كيف أُعِدَّ السودان الحديث

حياة ومراسلات السير دوغلاس نيوبولد .K.B.E
عضو الجهاز الإداري السياسي السوداني

ك. د. د. هندرسون .C.M.G

مدير مديرية دارفور

الجزء الأول

تقديم

مارجري برهام .C.B.E

ترجمة

محمود صالح عثمان صالح



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

إن إدراج هذا الكتاب ضمن سلسلة «دراسات مقارنة للمستعمرات» هو خروج جديد عن المألوف. الكتب الأخرى تناولت القضايا الدستورية أو السياسية أو الاقتصادية للمستعمرات أو المستعمرات السابقة. هذا الكتاب يعنى بحكومة تُدار بواسطة حاكم عام: إنها دراسة سيرة ذاتية لإدارة استعمارية. وهذا الخروج في رأيي لا يتطلب أي اعتذار تحريري، ولكنه يتطلب شرحاً قد يساعد في إبراز أهمية عمل سير دوغلاس نيوبولد في ما يتعلق بتلك الأسئلة العامة التي من أجلها استحدثت هذه السلسلة لتقديم بعض الأجوبة عليها.

هذا الرجل نفسه، كما عرفته، يجب تقديمه، حيث الاهتمام العام بوظيفته، ليس من قبيل الترقّي الروتيني الذي بدأه بتولّي منصب مرموق في زمن استثنائي، وإنما هو نابع تحديداً من خصال شخصيته. ولكننا لا نعتقد – ولو أن ذلك متروك لتقدير القارئ – أن صداقتنا قد أثّرت على حكمنا عليه. حقيقة أن مقدرة نيوبولد لاستشعار العواطف وإلهام الآخرين لم تكن مجرد صفة مبهجة مصاحبة لموهبته كإداري وإنما جوهرها.



كيف أُعِدَّ

السودان الحديث

كيف أُعِدَّ
السودان الحديث

حياة ومراسلات السير دوغلاس نيوبولد

عضو الجهاز الإداري السياسي السوداني

مدير مديرية كردفان: ١٩٣٢ - ١٩٣٨

السكرتير الإداري: ١٩٣٩ - ١٩٤٥

تقديم:

مارجري برهام

ترجمة:

محمود صالح عثمان صالح

الجزء الأول



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

THE MAKING
OF THE
MODERN SUDAN

The life and letters of

SIR DOUGLAS NEWBOLD, K.B.E.

of the Sudan Political Service

Governor of Kordofan, 1932–1938

Civil Secretary, 1939–1945

BY

K. D. D. HENDERSON, C.M.G.

Governor of Darfur

WITH AN INTRODUCTION BY

MARGERY PERHAM, C.B.E.

FABER AND FABER LIMITED

24 Russell Square · London



السير دوغلاس نيوبولد.

كيف أُعدّ السودان الحديث

First Published in January 2009

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

الإهـداء

إلى الأخ الصديق الطيِّب صالح، أقال الله عثرته وشفاه وعافاه. فهو معجب جداً بالكتاب وشجعني على الترجمة، وأملي أن تحوز رضاه.

مقدمة المترجم

أغنتني مقدمة السيدة/ مارجري برهام عن كتابة مقدمة مطولة لترجمة هذا السفر القيم، فقد كانت مقدمتها، كما يقول أخي الأستاذ/ أحمد إبراهيم أبو شوك: «جامعة مانعة، استوفت الغرض، وعرضت النص عرضاً موضوعياً، وحققت الهدف المنشود».

إن ما دعاني لترجمة هذا المؤلف الرفيع هو إعجابي بشخصية إنسانية فذة، واسعة المعرفة، غزيرة الثقافة، حادة الذكاء، تتحلى بالشجاعة، والمثابرة، والصبر، والتسامح، والأريحية، وروح الدعابة وحب الناس.

صدر الكتاب في عام ١٩٥٣م من ضمن سلسلة «شؤون المستعمرات ودراسات مقارنة» التي تحررها السيدة مارجري برهام، والتي تُعنى أساساً بتطور الحكم المحلي للمستعمرات في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وقد صدرت حوالى عشر دراسات عن هذا الموضوع بين الأعوام ١٩٤٦م - ١٩٥٣م عن نيجيريا، وساحل العاج، وروديسيا الشمالية (زامبيا)، وسيلان (سيرلانكا)، وترينيداد وتوبيقو وأثيوبيا والسودان. وتشمل تلك الدراسات، مؤلف البروفسير مكي شبيكة «مسألة السودان» الذي صدر عام ١٩٥٢م. ويعتبر الكتاب مرجعاً أساسياً للإداريين والمؤرخين، إلا أن الرسائل والتي هي موضوع الكتاب الرئيسي، كتبت بأسلوب أدبي رائع يجد فيه القارئ غير المتخصص متعة ومنفعة.

فأسلوب نيوبولد ينطبق عليه وصف الأديب بطرس البستاني لأسلوب الجاحظ: «فمن خصائص أسلوبه في كتاباته التكرير والمرادفة والاسهاب، ويعود ذلك إلى قصده تبليغ المعنى وإيضاحه، وإبراز الموصوف وتصويره، ثم على تطرابه لموسيقى ألفاظه، ووقعها على مسامعه. وتصوير الموصوف من أبرز خصائصه، فإنه كثير العناية بمراقبة الأشياء التي يصنعها، فما يهمل موضعاً يتعلق به غرضه إلا جعل له صورة حتى يبرز موصوفه على الشكل الذي يراه، ومن الناحية التي يريد أن يظهره فيه. ويستعين على ذلك بتعابيره الخاصة فيكرر، ويرادف، ويبدئ، ويعيد إلى أن تتم له الصورة التي يريد... كما هو كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث والأشعار والأمثال، مما يدلّ على سعة اطلاعه ووفرة روايته»[١].

ورغماً من المتعة التي وجدتها في مطالعة الكتاب، وفي ترجمته، إلا أن الصعوبة كانت في معرفة معنى الكثير من الأمثال والأشعار والأحاديث التي وردت بلغات غير الإنجليزية مثل الفرنسية والإيطالية واللاتينية وخلافها، والتي لم أجد لها شرحاً في القواميس، وكذلك الحال بالنسبة لعشرات الأشخاص والأماكن المذكورة في الرسائل وغير معروفة إلا لصاحب الرسائل ومن يراسله. وعليه فقد قمت بترجمة ما علمت، واجتهدت في أماكن أخرى قدر استطاعتي عملاً بنصيحة مؤلف الكتاب وصاحبة المقدمة في أن لا يجهد القارئ نفسه لمحاولة فهم كل كلمة أو تعبير، أو اسم علم أو مكان، وإنما الأهم هو التعرف على إنسانية نيوبولد - وهو غرض المؤلف الأساس - والذي يظهر بجلاء خلال جميع فصول الكتاب.

وضع المؤلف كتابه من جزأين بالإضافة إلى المقدمة والتصدير والفهارست والصور الفوتوغرافية والخرائط في ما يزيد على ٦٦٠ صفحة من القطع المتوسط. ويضم الجزء الأول ستة عشر فصلاً، عدد صفحاته ٤٩٠ صفحة، أما الجزء الثاني فيشمل خمسة فصول جملة صفحاتها ١١٠ صفحات، وقد رأيت أن أقسّم الجزء الأول

(١) بطرس البستاني - أدباء العرب في الأعصُر العباسية - دار نظير عبود - صفحة ٢٨٠.

إلى قسمين وطباعة الترجمة في ثلاثة مجلدات كل منها يحتوي على ٣٠٠ - ٣٥٠ صفحة، وهذا الحجم من الكتب لا يرهق القارئ. وسيشمل المجلد الأول المقدمة والتصدير وثمانية من فصول الجزء الأول (١-٨). كما يشمل المجلد الثاني الثمانية فصول الأخيرة من الجزء الأول (٩ - ١٦). أما المجلد الثالث فيشمل كامل الجزء الثاني. وقد قمت بتقسيم الفهارست على المجلدات الثلاثة، وكذلك الحال بالنسبة للصور الفوتوغرافية والخرائط.

أرجو أن أكون وفقت في ذلك، وما توفيقي الا بالله.

محمود صالح عثمان صالح

٢٠٠٩م


مسطورات
MUSTORAT

مقدمة المحررة

إن إدراج هذا الكتاب ضمن سلسلة «دراسات مقارنة للمستعمرات» هو خروج جديد عن المألوف. الكتب الأخرى تناولت القضايا الدستورية أو السياسية أو الاقتصادية للمستعمرات أو المستعمرات السابقة. هذا الكتاب يُعنى بحكومة تدار بواسطة حاكم عام: إنها دراسة سيرة ذاتية لإدارة استعمارية. وهذا الخروج في رأيي لا يتطلّب أي اعتذار تحريري، ولكنه يتطلّب شرحاً قد يساعد في إبراز أهمية عمل سير دوغلاس نيوبولد في ما يتعلق بتلك الأسئلة العامّة التي من أجلها صمّمت هذه السلسلة لتقديم بعض الأجوبة عليها.

وقبل أن نحاول ذلك، فإن الرجل نفسه، كما عرفته، يجب تقديمه، حيث الاهتمام العام بوظيفته ليس من قبيل الترقّي الروتيني الذي بدأه بتولي منصب مرموق في زمن استثنائي، وانما نابع تحديداً من خصال شخصيته. هذا الزعم يجب أن يتبعه فوراً اعتراف من السير هندرسن (المدير الحالي لمديرية دارفور والباحث في تاريخ ومؤسسات السودان) ومن شخصي - بأننا كنا صديقين لدوغلاس نيوبولد. ولكننا لا نعتقد - ولو أن ذلك متروك لتقدير القارئ - أن صداقتنا قد أثّرت على حكمنا عليه. حقيقة أن مقدرة نيوبولد لاستشعار العواطف وإلهام الآخرين لم تكن، كما سأحاول أن أشرح، مجرّد صفة مبهجة مصاحبة لموهبته كإداري وإنما جوهرها.

كان أول مطلب له مني نابعاً من رؤيته الخاصة لما يتضمّنه عمله عموماً. كانت

زيارتي الأولى للسودان عام ١٩٣٦م كباحثة في شؤون المستعمرات، بعد زيارات عديدة لسنوات طوال لبلاد أفريقية وغير أفريقية أخرى؛ وقد وجدت إدارة السودان متفرّدة عن إدارة أي بلد آخر، وكان نيوبولد في قلب كل ما يميّز أعرافها. لم يكن ذلك لأن شخصيته كانت ساكنة تمكني من اختياره للدراسة دون مراقبة أحد، فمنذ اللحظة التي دخلت فيها لمنزله في الأبيض كان هو المعتدي - مغيراً على عقلي ومستحوذاً عليه، ومطالباً فوراً بأي خدمات بوسعي تقديمها، ولم يعتقني لآخر أيام حياته من رباط صداقته الوثيق.

كيف أصفه؟ كلّما كان الشخص متفرّداً كلما عجزت المفردات المستهلكة والمُساء استعمالها في أوصاف البشر من وصفه. كان قوي الشكيمة، صبغت شمس السودان الحارقة بشرته. ورغماً عن حيويته وحياته الرياضية كانت تعوز حركته الرشاقة وأشبه بحركة الأكاديميين من حركة موظفي المستعمرات - حركة شخص مهموم بعقله وغير منشغل بباقي جسده. الانطباع الفوري الذي يعطيه هو لشخص مفعم بالحياة بسعادة. قد يبدو أن حديثة ينمّ عن العناد والمشاكسة وغير مترابط حتى يتبيّن لك اتجاه ما يرمي إليه وهو مسعاه لتحقيق مكاسب للسودان. كان حديثه يجعل الإنسان يفكّر في نهير سريع الجريان تحت ضوء ساطع، يتمايل من جهة إلى أخرى فوق الصخور الوشيكة في محاولته للتقدم إلى الأمام، كما كان كثير الضحك. نجد بعضاً من تلك الخصال المتوهّجة والمتقلّبة في خطاباته أيضاً. لم تكن حيويته من النوع الذي يكبت ويقمع الآخرين عن طريق التأثير: وإنما كانت من النوع الذي يجتهد دائماً للتواصل مع الآخرين، وللوصول إلى توافق، وللمشاركة، وللاستحضار والتلاحم وليس فقط للتعبير عن نفسها. كانت عيناه الرماديتين تستفسران دائماً بسخرية وعبث - ولكن السخرية كانت دائماً لطيفة وفي غالب الأحيان موجهة لنفسه - وقد عزّز من ذلك ارتفاع حاجبيه ذي الشعر الأسود الكثيف. كان من قلائل الناس الذين يملكون الشجاعة للتخلي عن كل وسائل الدفاع، كما كانت حساسيته المحبّبة تجعل ممن حوله يستحون من وسائل دفاعاتهم المحكمة وتثير فيهم الرغبة في المساعدة والحماية،

ولكنها رغبة غير مجدية حيث لا أحد يستطيع حماية نيوبولد من نفسه، أو أن يسدل ستاراً بينه وبين كل ما يعبر أمامه من جمال أو قبح أو ما يشعر به من سعادة أو ألم (ولنستعر تعبيره هو) لأن طبيعته مثل شريط فوتوغرافي مفرط الحساسية لا بد أن تسجل ذلك كأوضح ما يكون. يمكننا رؤية نيوبولد كإداري خلال دوائر متّحدة المراكز ومتباعدة ووثيقة الصلة. الدائرة الأبعد التي تمثّل مسرح الإمبريالية الحديثة حيث كان هو رغم عقله المتسائل دوماً، موظفاً في خدمة مهما كان اسمها، كانت في الأساس استعمارية (أنا لا أستعمل التعبير، بالطبع، بمضمون استنكاري كما يستعمله بعض المصريين والسودانيين الناقدين لبريطانيا). إن المحاولة لتثمين أي تجربة بعيداً عن النظرية لمعرفة تأثيرها على حياة وخصائص كبار متنفذيها تعطي أحياناً نتائج غير متوقعة. وعندما نطبّق تلك التجربة على الإمبريالية البريطانية، يجد أعداء الإمبريالية تلك النتائج مربكة للغاية. ذلك لأن العلاقة بين الدولة الحاكمة والدولة الخاضعة لها واسعة في طبيعتها وعريضة في كل امتدادها حيث تتضمن أغراضاً كثيرة مختلفة، بل ومتعارضة، كما يشمل ذلك الاختلاف أيضاً الرجال الذين يُناط بهم تنفيذ تلك الأغراض. كما تغيّر التجربة أيضاً خصائصها بمرور الزمن، ولم يكن التغيير أسرع في أي وقت من الفترة التي قضاها نيوبولد في خدمة السودان.

لا بد من الاعتراف بأن المحرّك الأقوى والأكثر استدامة، وليس بالضرورة الشامل، لتوسيع الحكم الإستعماري، هو مصالح الدولة المستعمرة الخاصة. ولكن الدافع الإنساني كان دائماً مصاحباً، إن لم يكن سابقاً، لذلك المحرّك، خصوصاً في أفريقيا. وقد أظهرت بريطانيا، وعلى نحو متزايد ولأكثر من ماية وخمسين عاماً، رغبة واعية لعرض، ليس مختارات حذرة، وانما أفضل ما جادت به حضارتها الخاصة للشعوب الضعيفة والفقيرة التي أصبحت تحت حكمها. وقد تعلّمت، كيفما، أنه بينما يمكن فرض الهيمنة العسكرية والسياسية بسهولة، وتصدير كل ما تذخر به الدولة الصناعية من معدات ونُظم مادية، ترفض المجتمعات الخاضعة تحت نفوذها في معظم الأحيان الاختراق الأعمق للمؤثرات السياسية والروحية.

إن السبب في ذلك ليس خفياً. فإدارة المستعمرات تعاني، ليس فقط من العدوى التي تستوطن كل الحكومات الحديثة، وإنما أيضاً من أمراض خاصة بها. فكلّما ضاعفت الدولة الحديثة من وظائفها لخدمة الملايين من مواطنيها ومحاولة علماء الاجتماع في استيعاب نشاطاتها المتوسعة وتضمينها ضمن تعليقاتهم ونظرياتهم، تصبح الإدارة واقعياً ونظرياً أقل شخصنة. وفي دولة مثل بريطانيا فإن تلك الخطورة ليس معترف بها فقط، وإنما باتساع نشر التعليم والمساواة كعوامل تصحيحية بالإضافة للديموقراطية التي توفّر للمواطن نصيباً ضئيلاً من السلطة يتوافر المناخ المناسب للتوزيع الصحي للحقوق المدنية والواجبات. أما في المحميات فغياب مثل تلك العوامل التصحيحية يزيد من الخطورة الشاملة للدولة المركزية الحديثة والقوية. ولو أن من الصحيح أن الحكومة في الدول المحمية بموظفيها المحدودين ليست بدرجة من الفساد أو الكفاية كما هو الحال في أوربا هناك قرى أهلية في افريقيا لم ترَ مفتش مركز في تاريخها – ومع ذلك يصل نفوذ سياسة الحكومة الى كل كوخ وسوق على قارعة الطريق. حتى عندما تكون تلك الحكومة – الفعل المضارع لا ينطبق الآن في كل مكان – في أيدي قليل من المتنفذين. فهم يتسلحون بنفوذ أقوى غير محدّد كما هو الحال في بريطانيا، وهم معزولون عن الأعداد الغفيرة من المواطنين تحت حكمهم ليس فقط بالوظيفة والنفوذ وإنما بالعرق والثقافة. لقد تمّ قبول هؤلاء الحكّام، ربما بعد مقاومة في البداية، وقد جلبوا معهم الفوائد التي لا تحصى من قانون ونظام ورفاهية وعدالة رحيمة. ومع ذلك فقد كان من الممكن، بعد أن اعتبرت تلك الفوائد حقاً مشروعاً، أن تطفو سياسة وثقافة الحكّام فوق مجتمع الأهالي المستعمرين كطبقة معزولة لا يمكن الالتحام معها. إن مستويات الكفاية والإدراك والعدل وحتى الرحمة الحتمية التي ورثها الموظف البريطاني من مجتمعه المقابل قد تهيمن على طبقة المجتمع الانساني المحكوم دون افتراقها سريعاً أو بعيداً. يتجلى ذلك بوضوح عندما تتبلور المجتمعات المحكومة، كما هو الحال في المستعمرات الآسيوية، نتيجة حضارتهم التي توارثوها منذ أمد طويل. ولكن نقيضاً لذلك نجد سكان المدن ومن تلقوا تعليماً مدرسياً وهم الذين تأثروا أكثر

من الحكم البريطاني، نجدهم أول من يتحدى السلطة الحاكمة نظراً لتمسكهم بأهم ما جلب من بريطانيا - مبادئ الحرية الفردية والوطنية. إنهم لا يحتاجون لغالبية واعية تدعمهم: فعدم الإدراك في الأقاليم بحضارة الحكّام أو عدم المودة الصادقة بينهم وبين الحكّام قد مهّد الطريق لنجاحهم. وكلّما كان ذلك التحدّي عدوانياً وفوضوياً كلّما انحسرت قيمة العلاقة بين الطرفين. إن التدرّج والتعاون هو ما يحقّق المكاسب القصوى للتحرر والانعتاق. ولن يتأتى ذلك إلا إذا وقف الحكّام بجانب الأهالي وحازوا ثقتهم وبرهنوا لهم أنهم وما يجلبون للبلاد هو شيء مفهوم ومرغوب فيه. وبتطبيق هذا الاختبار الدقيق على النظام الإمبريالي يمكن لحكومة السودان، وبالتالي لممثلها نيوبولد، أن تتوصل إلى غايتها المنشودة.

ليس هناك في الحكم الاستعماري أو في عملية تحرير المستعمرات قاعدة نموذجية، ومع ذلك فقد أظهرت لي حكومة السودان أصالة ملحوظة. وعندما تجوّلت في أقاليمه ومراكزه المختلفة بدا لي وجود علاقة هادفة وحميمية بين المسؤولين والمواطنين أعمق مما عهدته إلى الآن. كانت وما زالت نقطة الالتقاء الأولية في كافّة المستعمرات بين بريطانيا ومواطني المستعمرات تتمثّل في المفتش المحلي، وكانت المسؤولية تقع عليه في ما إذا وقف الحكم الاستعماري في حدود القوانين والنظام والتنمية المادية أم تعداها لخلق علاقة أشمل وأخصب لتمكّنه من أن يكون ممثّلاً ليس فقط لحكومته بل لحضارته أيضاً. الحاجة لمثل هذه العلاقة كانت أدعى في منطقة مثل شمال السودان الخالية من تجمّعات بريطانية تجارية أو تبشيرية أو مستوطنة، وحيث كان ممثّل الحكومة يكاد أن يكون البريطاني الوحيد الممثّل للدولة الحاكمة. إن الأعداد الكبيرة من الموظفين البريطانيين، متعددي المواهب والذين يعملون بدون كلل وبإنسانية في السودان وفي مستعمرات أخرى، والذين مكّنتهم الظروف من تبوؤ تلك المنزلة الرفيعة، هم الذين خلقوا تلك الشخصية الرمزية لبلادهم - مفتش المركز الاستعماري. ولكنني لاحظت أن تقاليد وأعراف مفتشي المراكز البريطانيين في السودان كانت أرفع من أي مكان آخر في أفريقيا، كما كانت الصداقة بل الود نحوهم أكثر انتشاراً. إن من الأسباب

الرئيسية التي تجعل دراسة مهنة نيوبولد من الأهمية بمكان هي أنه كان مثالاً ممتازاً لتلك الطبقة، وأحد الذين تمكّنوا من نقل تلك الخصال الحضارية لمفتش المركز المثالي إلى قيادة الحكومة. وهذا مهم ذكره في مطلع الكتاب، حيث ولو أن الكتاب يركّز على نيوبولد فلا بدّ أن نتذكّر - وخطابات نيوبولد نفسها ستذكّرنا - أن نيوبولد كان واحداً من أفراد خدمة إستمد منها هو نفسه معظم فضائله الإدارية ولو أنه عزّز تلك الفضائل بأخرى شخصية. إنه تقدير وثناء لإدارته وأيضاً لشخصه كونه تمكّن من أن يعمل بحريّة داخل الإدارة ويترقى فيها لأعلى المناصب. وتلك الخصوصية المتسمة بالتواضع والاستفهام والتي يصعب المحافظة عليها في المناخ الاستعماري الذي تحدثت عنه، قد تكون أبرز خصاله، ولكنها لم تكن فريدة. لم أنس الانطباع العميق الذي تركه في نفسي الحديث الذي أدلى به سلفه كسكرتير إداري - السير انقس جيلان - في نادي كاتدرائية الخرطوم، بعد وصولي بفترة وجيزة للسودان. كان الإحتفال بمناسبة ترحيب لعدد من الشبان السودانيين العائدين للسودان بعد زيارة لإنجلترا. كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها أحد كبار الموظفين البريطانيين يصرّح فيها ببساطة، بل بتواضع، أمام رعاياه، عن شعوره بالمصاعب وباحتمال القصور في كل ما يحاول هو وجهازه الإداري القيام به من أعمال.

كان نيوبولد مؤهّلاً جداً لتمثيل وتوصيل أفضل ما في حضارته، لم يكن مثال البريطاني المتطرّف في فردانيته والذي نجده بين أولئك الذين شقّوا طريقهم بعصاميتهم إلى أرفع الرتب وغالباً في المناطق الحضرية والذين لا يستطيعون فهم التلاحم الأسري والقبلي الوثيق في المجتمعات الأكثر بساطة. ينتمي نيوبولد لأسرة عريضة، مثقّفة ومتحابّة، تقطن الريف وتتحلّق حول والدته الأرملة، والتي كانت أيضاً أعزّ صديق له. لم يكن يعتبر ذلك الشعور بالقرابة كملاذه الخاص، بل حمله معه الى محيط عمله العام. لم تكن نظرته للفرد من الناس فقط كإنسان فريد ومتفرّد، بل كان يعلم أن أي واحد منهم كان عضواً في أسرة وكانت رغبته أن يتعرّف عليهم من هذه الناحية: ليتعرّف على منازلهم وعلى والديهم وعلى أزواجهم وأطفالهم، وإذا تيسر ذلك، معرفة أولئك

أيضاً شخصياً. ومن حبه لأسرته نبع حبّه لوطنه وتفانيه لإنكلترا - لأنه قبل كل شيء كان إنجليزياً - كدولة وكبلد، ولكنها كانت وطنية سعيدة وكريمة. كانت وطنيته لدولة ليبرالية حرة. وبدينه المسيحي وشغفه بالعلوم الانسانية، والكلاسيكية منها تحديداً، كان مالكاً للإرث الغربي بالكامل. كان يتمتّع بحب استطلاع مرح وعاطفي عن عالمه. كان عقله يعيده إلى حقب غابرة من الماضي واجداً متعة باكرة ومتواصلة لعلم الآثار، كما قاده إلى الفضاءات الرحبة ليجد متعته القصوى تقريباً في الترحال وفي استكشاف الصحارى. وقد وضع كل معرفته وما كان يمثّله بدون تحفظ لخدمة السودان. لقد كان هناك زمن ما كان يطيق أن ينفى من وطنه الأم نسبة لحبه العميق له. ولكن، ونسبة لأن حب الناس والأشياء من حوله كانت ضرورة له، فلم ينقض وقت طويل قبل أن يرى خلف سطح شمال السودان القاسي والغريب، الكثير الذي يثير الانتباه والعاطفة ويتطلّب البذل، مما ولد حباً جديداً من الحب القديم. وعندما توثق ذلك الرباط أصبح شاملاً. لم يرسم أي حدود - كما كان سائداً في مجتمعات موظفي المستعمرات - بين جنبي حياته، بين الحياة الإنجليزية في الوطن والحياة في البلد البعيد حيث مقر عمله، أو في السودان بين الساعات الخاصة التي كان يخلد فيها للراحة والمتعة مع زملائه من البريطانيين من جانب، وساعات العمل العام في مكتبه وتعامله مع المواطنين. كل جنب يتدفّق في الجنب الآخر مثريين بعضهما بعضاً.

ولو أنه توصل إلى تهذيب الادارة دون وعي تقريباً إلا أنه أدرك أن ذلك غرضاً يتطلب أن تشرع فيه الحكومة بوعي، وقد استعمل كل نفوذه لتحقيق ذلك. وعندما كان يعمل تحت ضغوط غير محتملة لإدارة شؤون البلاد الرئيسة، وحتى في الأيام الأخيرة عندما كان يعالج مشاكل الحرب الصعبة والروتينية، كان واعياً لحتمية جني القروي السوداني بتعدد أنماطه للفائدة المنتظرة من الحكومة ومن النصر. وكما استشهد هو بتولستوي «فقط عندما شعر أنه في حلف مع القروي تمكن حينها من توجيهه». وقد كتب عندما كان مديراً لكردفان: «حتى هنا في الأبيض بمقاهيها المترفة والنميمة والحسد يمكننا أن نلمح الوجوه المتطلّعة للملايين من سكان كردفان المحتاجين

لمساعدتنا». كان يثور على حياة الرئاسة لأن في المدن الثلاث المكتظة بالسكان حول ملتقى النيلين كان من المستحيل أن ترى رجلاً يستخدم طورية أو تسمع خرير السواقي وهي ترفع قواديس مياه النيل بجهد لتروي الأرض العطشى[١].

هذه الصفحات تضج بالشواهد عن معاناة نيوبولد من انعزال الحكام عن الناس الذين يحكمونهم. كان دائماً يعظ بعدم إغراق الفرد في المجموعة وأن تحطيم التفرد هو تحطيم للاخلاق، وأن الإصلاح يجب أن يكون نوعياً وليس كمياً. كان جهاز السودان الاداري أصلاً يتحلى في تقاليده بالعطف والكياسة نحو رعاياه، ولكن نيوبولد قوّى وكثّف تلك التقاليد. كان ذو قناعة من أن الحضارة الأجنبية الطاغية والتي فرضت رغم أنف السودانيين بموجب الفتح يمكن في الحقيقة أن تكون مفهومة وحتى جاذبة لهم. وليقدم لهم تلك الحضارة ظهر كأنه أتاهم من خارج اسوار القوة الأجنبية وفي نفس الوقت بمحاولته أن يفهم ويقدّر حضارتهم قد استدرجهم خارج اكتفائهم الذاتي الصلب والمعارض ليفسح مساحة واسعة للالتقاء. إن مثل ذلك التصالح لا ينجز إلا بتضحيات إنسانية جسيمة، كأن يقدم البشر طواعية المادة المطاطية اللينة التي نسجوا منها ليهمدوا ارتطام الكينونات الكبيرة والقاسية مع الأفكار التي ينشدون لها الانسجام، أو لتجاذبها في ما بينهم لما فوق قوة الاحتمال تقريباً.

وعند دراستنا لنيوبولد كوكيل لحكومة استعمارية ربما نجد أنه قد نجا من قلق ذهني واحد. فهو لم يتشكك في أساس الامبريالية ولم يعذب نفسه بالارتياب من المهنة التي التحق بها. لقد كان مثل كثير من زملائه في خدمة السودان وفي مستعمرات أخرى، لكنه كان أكثرهم تروياً وفعالية. لقد رضي بالعلاقة الامبريالية كإرث تاريخي وبدأ من العمل لتحريكها لمسافة أقرب لمطالب ضميره المسيحي ولذوقه الخاص المتحضر.

واذا ما اقتربنا إلى صميم عمل نيوبولد يمكننا أن نجد مغزى عاماً ثانياً ولكنه محلي في ما يتعلق بالمهام الادارية التي واجهته في سنوات خدمته في السودان خصوصاً

(١) كانت هناك، في الواقع، واحدة من تلك السواقي أمام منزل أحد رجال الدين في الخرطوم، وكانت رؤيتها مصدر متعة عظيمة لنيوبولد.

خلال السنوات الأخيرة منها. ويمكننا أن نراه يتعامل في أحوال السودان الخاصة والمعزولة، مع نفس المشاكل الكبيرة التي واجهت بريطانيا في الهند والتي لا تزال تتطلب الحلول في كل المستعمرات تقريباً. فبعد فرض القانون والنظام وكسب الثقة جاء بناء جهاز الحكم المحلي لمجتمع القبائل والمجموعات الحضرية، وترك جهازي القانون والمحاكم (المدني والشرعي) للعمل جنباً لجنب بدلاً من التوفيق والتنسيق بينهما، والمهمة الحساسة الخاصة بإلباس التعليم الغربي لمجتمعات تكونت في بيئة مختلفة فيزيولوجياً وذهنياً، وإدخال مبادئ الاقتصاد الغربي في مجتمعات فلاحية قروية أو رعوية متنقلة. بعض هذه المهام الإدارية تتطلب التعليق.

ربما كان الحكم المحلي هو المهمة الكبرى لنيوبولد مقارنة بالمهام الأخرى. لقد فهمت السلطات السودانية من مبادئ الحكم غير المباشر واتخذت نظام نيجيريا نموذجاً وطبقته في مرحلة متأخرة في السودان في ظروف غير ملائمة. وقد تبع ذلك توجّه سبقت فيه كل المستعمرات الأفريقية الأخرى نحو إيجاد نظام أكثر منهجية للحكم المحلي وأقرب للنموذج البريطاني، علماً أن نيوبولد والذي اضطلع بالدور الأساسي في البناء الجديد، قد بحث في كل أرجاء العالم عن نظام يلائم تجربة السودان. إن أهمية عمل نيوبولد في هذا الجانب لا تحتاج منا لتأكيدٍ حيث الخطابات والوثائق التي ستتبع ستلقي الضوء الكامل والمقارن لهذه المسألة الكبرى التي تهم جميع حكومات المستعمرات.

أما بالنسبة للمهمة الاقتصادية فكان من الطبيعي أن يشعر نيوبولد بالأسى المعتاد - وقد نقول اللوعة - بشكل خاص وحاد، كأي مندوب استعماري فاضل يضطر أن يراقب عن قرب ضغوط القوى الحديثة، والتي يساعد هو نفسه في زرعها، على المجتمعات الصغيرة والضعيفة تحت رعايته. لقد كان عليه أن يتعامل مع حالتين رئيستين من هذا النوع المؤلم. كان حبه الأول لقبائل البجا رعاة الإبل بالقرب من البحر الأحمر. لقد تأثر جداً من واقع الصدمة من جراء فرض زراعة القطن على أولئك الرحل القدماء، ذوي الأوجه الوسيمة والشعر الكث الجعد الذين ذكرهم كيبلنغ في أشعاره،

والذين لا يجيدون الزراعة. وكما سنرى في هذه الصفحات فقد ملك نيوبولد الشجاعة ليعترض على تلك السياسة ويغيّر اتجاهها. ثانياً كان عليه التعامل مع مجتمعات جبال النوبة الصغيرة والوثنية والمفعمة بالرجولة والذين أجبرتهم الغزوات العربية على الاحتماء بجبال كردفان العصيّة. لم يوافق نيوبولد على قسرهم وانما استمالهم بالملاطفة والتملق لقبول مبدأ المواطنة في النظام الاقتصادي والسياسي الجديد والذي اجتاح القوى العربية كمدٍّ ثانٍ وأصبح الآن محيطاً بجبالهم الحجرية العصية. في الحالتين اتخذ نيوبولد الخط «العاطفي» كما يسميه العمليون الذين يستعينون بالمجاز البشع «إنك لا تستطيع عمل جعة (أومليت) بيض دون كسر البيض» لتبرير حتمية دعواهم. وكان بمقدور نيوبولد أن يكون عاطفياً بمجرد أن ينفض يده عن الموضوع بتحسر غير مجدٍ. في الواقع فإن تسخيره للعاطفة لسنوات العمل الإداري المتأني، برهن على أن العطف لا يقل قوة أو عناداً من الحرص على الإيمان بالقضاء والقدر.

كان نيوبولد في المركز وفي الإقليم يتعامل مع هذه المهام وأخرى نجدها ضمن هذه الصفحات - سنشير لاحقاً لسياسة التعليم - بطريقته وفي ظروف السودان الخاصة، كمسائل تكاد تكون عامة في كل الامبراطوريات الاستعمارية. كما نجد في أواخر أيام عمله عندما عين سكرتيراً إدارياً، يجابه أحداثاً أخرى ليست ذات مدلول تمثيلي فقط، مثل انتقال السلطة الامبريالية، بل ذات أهمية أساسية للسودان وبعلاقة لصيقة بالحرب العالمية الثانية وبعلاقة بريطانيا بمصر. تلك هي الأحداث والسنوات التي تغطي أكبر مساحة في هذا الكتاب حيث إننا ندخل في قلب دائرة دراستنا، وعلينا، إذا رغبنا في تقييم مغزاها، أن نفحص بدقة أحوال السودانيين التي كان نيوبولد نفسه تفهّمها واستوعبها. إنها رواية من أربعة فصول متزامنة: العلاقة مع مصر، الحرب العالمية الثانية، الاجراءات التي اتّخذت تجاه التعليم ليواكب تطور الحكم الذاتي، وأخيراً الموضوع الأهم لكتاب ضمن هذه السلسلة - التطور الدستوري ومعاملة مؤتمر الخريجين.

لا بد من اختصار التعليق على المواضيع الثلاثة الأول. أولاً مصر - يجب أن نتذكر

أن نيوبولد وزملاءَه كان عليهم تصريف كل أعمالهم تحت التدقيق المتهور واللاذع من جيرانهم من ناحية الشمال ونفوذهم المعتاد. لقد سبق لمصر فتح السودان، ثم شاركت بريطانيا في إعادة فتحه، ووقعت مع بريطانيا الاتفاقية الثنائية، وكان علمها الأخضر يرفعه الضباط البريطانيون بجانب علم بريطانيا بكل احترام واستفزاز. ومع ذلك فقد حرمت مصر من المشاركة الفعلية في إدارة السودان أو اقتسام السيادة عليه. هذا أمر يصعب مناقشته خصوصاً في الوقت الحاضر حيث وصلت العلاقات البريطانية - المصرية إلى أسوأ حالات الخصام في ما يتعلق بالسودان[٢]. العلاقة بين البلدين والتي بدأت بتدخل بريطانيا في مصر عام ١٨٨٢م، كانت عبارة عن شراكة مفروضة بين بلدين غير متكافئين وغير متجانسين. وقد زادت حدة التوتر كلما ازدادت مصر قوة ووعياً بذاتها. وقد قاومت القيود التي طوقتها والتي فرضت عليها أيام ضعفها وفقرها. كان إرثها التعس والموسوم بالاضطهاد والفساد في الماضي وخلافاتها الاجتماعية والسياسية العميقة كانت ستجعلها شريكة غير مريحة على أي حال. ولكن في ثورة غضبهم ضد ما شعروا به من إذلال بريطاني، حاول القادة السياسيون المصريون من وقت لآخر إلحاق الأذى ببريطانيا عن طريق السودان. لقد تسبب اغتيال حاكم عام السودان، السير لي ستاك، في القاهرة والتمرد الذي أثارته مصر في السودان عام ١٩٢٤م، في تحويل عزوف الموظفين البريطانيين عن التعاون الاداري مع المصريين إلى تصميم راسخ لمنع مصر من التدخل في شؤون رعاياهم في السودان مع المحافظة بحذر شديد على حقوق مصر في مياه النيل.

وطبقاً لشخصيته ومعاييره الإدارية وتفانيه في خدمة السودانيين، كان من الطبيعي أن يتمسك نيوبولد بوجهة نظره تلك بشدة. وقد قابلت مصر عزلها شبه التام والذي لم تلطّفه اتفاقية عام ١٩٣٦م بأي قدر، من أي نصيب في إدارة السودان، بمضاعفة جهودها لإثارة القلاقل وشراء موالين لها في السودان. ولو استعمل قادتها الحكمة والاعتدال للتعامل بمقتضى الاتفاقيات المبرمة وبابتعاث موظفين أكفياء

(٢) كتب ذلك قبل تنحية الملك فاروق. وعندما تتم المراجعة في سبتمبر ١٩٥٢ نأمل ان يكون الأسوأ قد ولى.

ومتعاونين ليمثّلوها لما أصرّ البريطانيون على سياسة الاقصاء الصارمة. وللأسف كان الإسراف في حياة مصر السياسية يوصم أي مرونة تجاه بريطانيا بالخيانة التي تعاقب حتى بالاغتيال. ليس أسهل من اتهام مصر بأنها أسوأ عدو لنفسها، ولكن ألم يكن في الوسع عمل المزيد لإنقاذها من نفسها؟ يعجز البريطانيون في كثير من الأحيان عن التعامل مع الاضطراب العصبي للدول حتى وإن اقتضت مصالحهم في تخفيفها. والسودانيون، مع عدم إدراكهم لذلك لمدة طويلة، كانت لهم مصلحة طاغية في تخفيف مرارة المصريين. كنت أحياناً أتجرأ بمجادلة نيوبولد بأن حكومة السودان قد استسلمت بسهولة للإغراء بتحويل أنظارها بعيداً عن الشمال، ومن الحقائق غير السارة والتي تعطي مصر بموجب الاتفاقيات على الأقل حقوقاً متساوية مع بريطانيا في السودان، وسيأتي يوم عصيب تصرّ فيه مصر على حقوقها نتيجة تراكم المرارات بسبب الإقصاء. كان يمكن تقديم تنازلات سايكلوجية وليست سياسية مع محاولات أكثر لمقابلة وتنوير الرأي العام المصري مهما كان حجمه، للمحافظة على شعرة معاوية، مهما كانت رفيعة، عبر هوة الأغراض والأفعال. كانت تلك قضية يصعب الترافع فيها، ولم يتأثر نيوبولد بها لأنه كان يشعر بأن كل غرائز البريطانيين ومصالح السودانيين تدعمه. إن أحوال وأفعال وتصرفات مصر عام ١٩٥٢م وموقف السودان السليم بالمقابل يبدو مؤدياً لوجهة نظر نيوبولد. ومع ذلك فإن من مصلحة السودان أن يحتفظ بعلاقة حسنة مع مصر، ومرارات مصر وجهلها تجاه جارتها من ناحية الجنوب يبقيان العقبتان الرئيستان نحو تحقيق ذلك.

العلاقة مع مصر وبناء المؤسسات الدستورية لا يمكن فصل موضعهما عن موضوع الحرب وستظهر الفصول الخاصة بهم الكثير. ويمكننا أن نرى تأثير الحرب على الحكومة وكيف كوفئ الحكام لحسن إدارتهم لمدة أربعين عاماً بثبات السودانيين وولائهم عندما كان حكامهم في خطر. وقد أحطنا علماً بأهمية السودان كمركز مواصلات، ليس فقط من الشمال للجنوب، ملبياً بذلك آمال سيسل رودس بربط رأس الرجاء الصالح بالقاهرة جواً بعد فشل مشروع الطريق البري والسكك

الحديدية؛ بل أيضاً عابراً القارة غرباً – شرقاً عبر الخرطوم. يمكننا أن نتعلّم الكثير هنا عن مغزى أفريقيا الاستراتيجي من الفصول اللاحقة التي تلقي الضوء على التاريخ السياسي – العسكري للحرب في هذه المنطقة. ولكن هذه الصفحات وعن غير قصد، قبل كل شيء، هي سجل للشجاعة. فكما في بريطانيا، أيضاً في السودان كان هناك القليلون في القيادة ممن يعلمون مبلغ الخطر في الأشهر التي بلغت فيها الأزمة أسوأ حالاتها، وقد تحملوا عبء المعاناة نيابة عن رعاياهم. وبكل المقاييس المنطقية، عند دخول ايطاليا الحرب عام ١٩٤٠م كان الوضع في السودان بائساً. فقد أخذ على غرة وكان بدون دفاعات تقريباً بين جبهتين. وكانت القوات الايطالية معدة إعداداً حسناً وجاهزة للانقضاض على سهول السودان من حصونها الأثيوبية. وبدا السودان كقاعدة أمامية لبريطانيا محكوم عليها بالهلاك كما كانت بريطانيا نفسها محكوم عليها بنفس المصير. كان نيوبولد وحاكمه العام غارقين في فيضان من المسؤوليات الجديدة والعاجلة والتي لم يكن لديهما لها موظفين أو معدات أو خبرة. كما كانوا يتوقعون كل ليلة أن تقصف المدافع عاصمتهم غير المحمية بالقنابل ومع ذلك فقد حافظا على تلك الثقة في مقر رئاستهما – تلك الثقة التي تكسب المعارك في الجبهات، أو تضمن عدم نشوب المعارك أصلاً. ما كان نيوبولد يسمح بالكلام بأن السودان غير محمي، أو، وهذا الأهم، أن السودان ليست له رغبة في الدفاع عن نفسه. كان العدد القليل من الجنود السودانيين، الذين يظهرون ويختفون على طول حدود السودان الجنوبية – الشرقية المحتلة، مثل جيش في مسرح، يراوغون ويقاومون جيوشاً ايطالية تفوقهم عدداً وعتاداً. وقد نجا السودان من الاجتياح، كما يبدو، بمعجزة.

وبزيادة أعداد وأحجام الملفات المتعلقة بالحرب والعلاقات الخارجية المتراكمة على مكتب نيوبولد، كان نيوبولد، بدون شك، يسعد برؤية ملف خاص بالتعليم. لقد ولد نيوبولد معلماً. وكان الدور الذي يناسبه أكثر من سواه في جميع ما اضطلع به من أعباء، هو دور المدرس المتحفز والمتواضع والذي يشرح لمدرسته (السودان) أفضل ما يعلمه عن تاريخ وخبرة وطنه. لقد قيل ما فيه الكفاية الذي يثبت بأن

نيوبولد كان يؤمن بقوة أن منح السودانيين مؤسسات غربية يرغبون فيها بدون تعليم غربي وتأثير حضاري سيكون عديم الفائدة، كمن يقدم سيارة بدون وقود يحركها. إن توسع التعليم وسط المسلمين والوثنيين، ودار الثقافة بالخرطوم، والارتقاء بكلية غردون لتصبح جامعة، وابتعاث الشباب السودانيين لزيارات لبريطانيا - تلك كانت من أمتع النشاطات وأكثرها فائدة في فترة نيوبولد كسكرتير إداري. ونجد روح تلك المواضيع في الوثائق والمحاضرات المدرجة في الجزء الثاني من هذا الكتاب، بعضها كان خطباً ألقيت خلال إدارته أثناء الحرب عندما كان يسرق ساعة من زمن عمله لتحضير ما كان يود أن يقوله. لقد أملت عليه شجاعته وتحرره أن يتوسع في تعليم التاريخ الغربي والسياسة الغربية بدلاً من تقليله واطلاق أيدي المعلمين في توفيره بالرغم من توقعه كأداري بالمزالق والمخاطر التي قد تسبب اهتياجاً خطيراً.

ومع ذلك، وعندما نأتي الى أهم عمل لنيوبولد كسكرتير إداري، وهو التطوير الدستوري، يبدو لنا وكأنه أخذ على غرة بالنسبة لمؤتمر الخريجين. ولكن قبل أن نناقش الدور الذي لعبه هنا، علينا أن نلقي نظرة على خلفية الموضوع.

إن حكومة السودان كانت تحكم شعباً مذعناً سياسياً لحوالى أربعين عاماً. لقد كانت هناك حادثة واحدة من القلاقل بإيعاز من مصر عام ١٩٢٤م. وفقط في عام ١٩٣٦م عندما أبرمت الاتفاقية البريطانية - المصرية وأشارت لحقوق السودانيين دون مشاورتهم على بنودها، حفز ذلك المجموعة الصغيرة من السودانيين الذين تلقوا تعليماً غربياً للحراك السياسي والتنظيم. وبما انني كنت في السودان حينئذ وقابلت مجموعات من أولئك الشباب في منتدياتهم، فقد تمكنت من مشاهدة بعض من ذلك التلمس نحو فكرتيّ الوطنية والحرية. وقد كان من المستغرب له جداً عند وصولي للسودان في ذلك الوقت ان اكتشف انه لم يتم أي نوع من تخفيف اتوقراطية الحكومة المحضة والتي لم يكن لها لذلك الوقت أي جهاز رسمي للتشاور مع السودانيين أو التفكير في ذلك الاتجاه. لقد كان من الصعب عليَّ أن لا أعلق بأن حتى الحكومة المصرية المستبدة بدأت محاولات لتشكيل مجلس أعيان منذ القرن التاسع عشر. إن العلاقات

الشخصية الطيبة بين البريطانيين والسودانيين بمختلف رتبهم والتشاور غير الرسمي بدا لي ليس عذراً كافياً لعدم الشروع في تشكيل مؤسسات مجلسية رسمية. فقط بمثل تلك المجالس كان يمكن للسودانيين تعلم أسس عمل الحكم المركزي والبدء في بناء وحدة وطنية حقيقية داخل الوحدة الاصطناعية التي رسمت القوة الاجنبية حدودها. وإلا فمن الواضح أن تأخير قيام حركة سياسية لمجموعة مثقفة كسكان مدن السودان وضفاف نيله لا بد أن تفرض نفسها خارج الدستور. وقد أثرت هذه المسألة في عديد من المرات مع نيوبولد، وكان كعهده دائماً مستعداً لتقبل ومناقشة النقد. وإذا ما بدا من الخطابات التي ستلي انني كنت أضغط لقيام مجالس مديريات فذلك لم يكن من قبيل الاقتناع بأنها الأفضل في حد ذاتهم حيث المديريات نفسها لم تكن وحدات حقيقية ولكنها تمثل جهازاً وسطياً بين الإدارة الأهلية والمجالس المركزية، أو كهيئات انتخابية لمثل تلك المجالس.

لا داعي أن نستبق الرواية التي يرويها المستر هندرسن في كتابه هذا والتي ترويها الوثائق المضمنة فيه أيضاً. وبما أن النقد الوحيد الذي وجهه السودانيون ضد نيوبولد يتعلق بمعالجته لهذا الموضوع فلا بد من التعليق[٣]. لقد وجد نيوبولد نفسه كسكرتير إداري في مطلع عام ١٩٤٢م مجابهاً بعدة مطالب دستورية من مؤتمر الخريجين المعيّن من نفسه والمكوّن من خريجي المدارس ومن أفندية المدن. يلوم السودانيون نيوبولد على رده المتعسف على خطابات لجنة المؤتمر في ربيع وصيف ١٩٤٢م في تسبب تصدع المؤتمر إلى جناح معتدل وآخر متطرف توجه إلى مصر للمساعدة[٤]. أضف لذلك فإن تشكيكه في أهلية المؤتمر للتحدث باسم البلاد قد قاد الجناحين، في بحثهم لأسهل الطرق لتكوين حركة شعبية، لطلب العون من الطائفتين الكبيرتين اللتين يتبعهما مسلمو شمال السودان. وقد قاد ذلك للفرقة والتطرف والفوضى المحبطة للأغراض الطائفية والسياسية. لن أتجرأ بإصدار حكم نهائي في هذه المسألة العويصة، ولكني

(٣) أنظر في هذه السلسلة، مكي عباس في كتابه «مسألة السودان»، ١٩٥٢، صفحة ١٠٧ وما يليها.
(٤) الحقيقة أن المؤتمر قد انقسم على نفسه تلقائياً قبل هذا التاريخ.

فقط أبدي بعض الملاحظات. قد يعتقد القرّاء أن نبرة خطابات نيوبولد للمؤتمر في ربيع وصيف ١٩٤٢م كانت حادة وبدت كأنها مغايرة للروح الليبرالية التي كانت تتسم بها حواراته مع قادة المؤتمر وكذلك بروح مذكرته الضافية للمجلس التنفيذي بتاريخ ١٠ سبتمبر(٥). ويجدر بنا أن نتساءل حقيقة كم من حكومات المستعمرات في مقدورها أن تنشر وبهذه السرعة تقريراً سرياً بمجرد اندلاع هياج سياسي.

يمكننا أن ندلي بعدد من أسباب التناقض الواضح بين آراء نيوبولد وفعله. أولاً ومهما كانت آراؤه، فإن قراراته الرسمية كانت تتطلب الموافقة عليها من الحاكم العام والمجلس التنفيذي بأكمله. ثانياً، فهو وهم كانوا يتعاملون مع الأمر بما ورثوه من عدم بصيرة بمثل هذه الأمور ممن سبقهم من إدارات في الماضي. ثالثاً كان نيوبولد وحكومته يعملون وهم في عزلة غير مألوفة، فما كانوا مسائلين مباشرة لا من البرلمان أو الشعب البريطاني نسبة لوضع السودان الغامض، كما حرموا من الدعم والخبرة التي كانت توفرها وزارة المستعمرات البريطانية لمستعمراتها الأخرى. وقد وقع على عاتق القلة من كبار الموظفين بحكومة السودان الاضطلاع بإبتكار السياسات تقريباً من أفكارهم واجتهاداتهم الخاصة. ورابعاً، فيجب أن لا ننسى أن ذلك التحدي برز عندما كانوا هم والسودان منهمكين في التوتر والقلق بسبب الحرب التي كانوا يكابدون فيها للبقاء، كما برز أيضاً في أحلك أيام تلك الحرب مما دعا نيوبولد لأن يصرخ «دعونا نهزم رومل أولاً».

لكل تلك الاعتبارات الخاصة يمكننا إضافة اعتبار آخر عام. كان نيوبولد يواجه أصعب امتحان خلقي وسياسي للحكم الامبريالي. إن أول احتجاج ضد سلطتها، بطبيعة الأشياء، لا بد أن يقدم من مجموعة تفتقد الخبرة وتمثل نفسها فقط. يمكن استيعاب مثل الحركة دستورياً، ولكنها لن تهمد لمجرد أنها وجدت منبراً في مجلس تنفيذي. ستكون المجموعة بالتأكيد غير مُمَثِلة، وغير مؤهلة، وغير كفيئة لتقديم

(٥) يرجى الاطلاع عليها في مكان آخر من الكتاب.

حكومة بديلة فحسب، ولا حتى قادة للمشاركة في مسؤوليات الحكومة الهامة. لا بد للفجوة بين كفاية الحركة الفعلية والكامنة أن تجسر، كما وأن الموقف العاطفي كان على وجه يتعذر فيه الوصول لحل في جو من المعقولية الهادئة. ولم تكن العاطفة مقصورة على الطرف السوداني فقط. إن خدمة قوامها موظفين بريطانيين، اشتهرت بحكومتها الخيرة والأبوية والاتوقراطية، والتي لنحو خمسين عاماً قامت بواجبها خير قيام، لا بد أن تكون ردة فعلها تلقائية منذ أول تحد يهدّد فوراً سياسة بلدها (بريطانيا) وأداء ومُثُل موظفيها ومصالحهم الوظيفية.

قد تبدي الوثائق المنشورة في هذا الكتاب أن نيوبولد قد تأثر بالصراع المتكرر في بريطانيا لإيجاد حل للمعضلة التي تتمثل في أن بريطانيا تُحَكَمْ ديموقراطياً بينما تحكمُ في الخارج اتوقراطياً. وإذا سُئلنا «هل نجح في ذلك؟» فلا بد من اضافة سؤال آخر: «ما هو النجاح؟» في مثل هذه الحالة، وهذا سيقودنا مرة أخرى لمناقشة أسس السياسة البريطانية، الشيء الذي لن نتمكن من الخوض فيه الآن. أضف لذلك أن من الصعب عمل تسويات سياسية كبيرة في أي مكان كان بكياسة تامة واتفاق شامل، وخصوصاً في البيئة الاستعمارية. وربما ساعد وجود نيوبولد في منصب السكرتير الإداري في مرارات أعظم نسبة لأنه آخر من يوصف بالاتوقراطي، ولعطفه على الشباب وتأييده لأفكارهم، ولحرصه على عقد صلات صحيحة وشخصية مع قادة المؤتمر. لقد فتح نيوبولد ذهنه وذهن زملائه في القيادة لكل الأفكار والتجارب الخارجية، وأوصلها بأفضل ما في وسعه من استطاعة إلى أفراد الخدمة المنتشرين في كل مكان، والذين قد يصعب عليهم تقدير مغزى الأحداث في العاصمة مقارنة بخلفية الكمونولث وحتى العالم.

وحتى لو أظهر فحص أشمل لكل البيّنات أن معالجة نيوبولد للأمور لم تكن مبرأة من الخطأ، خصوصاً في ما يتعلق بتأخير تشكيل مجلس نيابي فان ذلك لن يبرهن عدالة الناقدين السودانيين في بحثهم لتفسير فقدانهم للوحدة وانحرافهم عن طريق القيادة السياسية القويم. انه قدر رواد الإصلاح المحتوم أن ينقسموا إلى مجموعة معتدلة

وأخرى متطرّفة: الاستغاثة بمصر، أو بالأحرى من مصر، لا بد كانت إغراء لا يقاوم لاسباب تاريخية وأخرى أقل احتراماً. وربما فشلت أي سياسة في ذلك الوقت من إنقاذ وشلّ القومية السياسي الباكر من الغرق في خضم بحور الطائفية الدينية الأكبر والأقدم. في كل الأحوال، وبغض النظر عن درجة التأخير أو الصرامة، فلحكومة السودان رصيد وافر من ثقة السودانيين فيها - وكانت مساهمة نيوبولد في ذلك الرصيد كبير للغاية - تمكنها من المضي قدماً تحت إدارة صديقه وخلفه المقتدر، السير جيمس روبرتسن، في مناخ من التعاون يكاد يكون غير مسبوق لمثل هذا الانتقال للسلطة تقريباً.

قبل أن نترك هذا الموضوع الهام يجب ان نتذكّر أن خلق جهاز تشريعي هو جزء واحد من أجزاء عملية تطوير الحكم الذاتي، ولو انه الجزء الذي عادة يسرق اضواء التاريخ. لقد كانت هناك ثلاثة أجزاء في برنامج نيوبولد وكل واحد منهم وجب ان يكون في وضع متساو مع الآخرين.

لقد ذكرنا شيئاً عن التعليم والحكم المحلي، وعلينا أن نلاحظ أن جعل الحكم المحلي أكثر ديموقراطية، وخصوصاً في المدن، كان يدفعه نيوبولد الى الأمام الى النهاية. وبرهن، عندما بدأت عملية انتقال السلطة الحقيقية، على انه أعطى تدريباً ممتازاً لبعض القادة السياسيين والموظفين السودانيين. الجزء الرابع كان سودنة الخدمة المدنية. قد لا تكون نتائجها مثيرة للإعجاب ولكنها كانت متساوية في أهميتها مع الجزء التشريعي، كما كانت مهمة متواصلة وشاقة ومحرجة. في الجانب الأول كان هناك جهاز خدمة مطلوب منه التعاون في مهمة ستعود لزاماً عن طريق التخفيف الى زواله الحتمي. وفي الآخر كان المتعلمون السودانيون توّاقين للترقية، غيورين من كل تباين، واثقين من قدراتهم، بالغين تارة ومتجاهلين تارة ورافضين تارة المعايير التي يحاول جهاز الخدمة الأبي أن يحافظ عليها. وموازياً لتطوير كلية غردون، وبتفصيل مقررات تدريب الإدارة، وضعت حكومة السودان جداول مفصّلة لاستبدال الموظفين البريطانيين بسودانيين بشكل متصاعد بالنسبة للرتب العليا. ولكن الجداول لم تمنع الشذوذ

أو تسمح بالتغيير في الجو السياسي. كانت التجربة تراجع باستمرار وكان نيوبولد يحث المديريات دائماً ببذل جهود أكبر لقبول السياسة والعمل على انجاحها. تستمر عملية السودنة اليوم بخطى متسارعة ولن تصل الى منتهاها الى أن يغادر آخر موظف بريطاني موقعه، مورثاً، كما نأمل، تقاليد تمكّن الخدمة المدنية السودانية من أن تستمر في أن تكون مثالاً للاستقامة والإخلاص للدول المجاورة.

قبل أن نترك المسألة الدستورية لا بد من ابداء ملاحظة: فالوثائق المطبوعة في الجزء الثاني من هذا الكتاب يجب أن تجعله مصدراً مهماً لتاريخ السودان. فالوثائق توضح كيف ولماذا اندفعت حكومة السودان، وهي المبتكرة دائماً، بقوة ونشاط في ما يختص بمشروع مؤسسات الحكم الذاتي في طريق مغاير للحكومات الاستعمارية الأخرى. ويمكننا أن نتقصى في هذه الوثائق بالاضافة لخطابات الممثّل الرئيس لهذه الأحداث إثر نشوء استقلال السودان، بينما الكتاب الذي صدر في سلسلة هذا العام لمؤلفه مكي أفندي عباس يورد شرحاً وتعليقاً من سوداني كان مشتركاً أيضاً في الأحداث.

يتابع المستر هندرسن تاريخ نيوبولد الى منتهاه، ويا لها من نهاية ملائمة. فبعد الأزمة الأولى التي انحازت فيها إيطاليا الى الأعداء، وطّد نيوبولد نفسه لمجابهة معاناة الحرب الطويلة بما فرضته عليه من أعباء اضافية لاسيما أن أعباء الإدارة المحلية استمرت وزادت تعقيداً. لقد نجا من الموت في الحرب العالمية الأولى لتقتله الحرب العالمية الثانية في مكتبه. ليس لأنه لم يَنْصَعْ لكل المناشدات لأخذ عطلة في بلده بحجة ان الآخرين، وخصوصاً المتزوجين منهم، أحق منه بالمقاعد المحدودة في الطائرات، ومتعللاً بأن المسؤولين في بريطانيا يحملون أعباء أكبر جسامة من أعبائه، وإنما لعدم رغبته أو قدرته في أن يتعلم كيف يحمي نفسه، حتى بما تتطلبه منه وظيفته الهامة من حماية مشروعه، من عطفه واريحيته. وبينما كان الأباطرة والملوك والجنرالات ورؤساء الوزارات والعديد من شخصيات الاتحاد العظيم المشهورة يهبطون في الخرطوم من السماء مطالبين بالاستضافة والتنوير وهم عابرون، ظل منزله مفتوحاً لأصدقائه الجدد والقدامى المتواضعين، كما كان يحرق الليالي في كتابة الرسائل الطويلة وشديدة

الخصوصية، بخطه الواضح المتكوّر والتي كانت تبهج وتشجع متلقّيها، كما ساعدت أيضاً كثيراً في رفع معنويات أفراد إدارته المجهدين والمنهكين.

كان أثقل عبء عليه هو الحزن العميق الذي يشعر به عند وفاة صغار مرؤوسيه الذين التحقوا بالجيش أو صغار الضباط، مثل ابن اختي، والذين أسكنهم قلبه ومنزله عندما كانوا معسكرين في الخرطوم. لم ينقطع أبداً عن تسطير رسائل مطوّلة لأمهاتهم معبراً لا عن عاطفة عامة، ولكن عن الحزن الشخصي لفقد شخص عزيز من أسرته هو. هناك بعض الناس ممن ينزلقون عبر الحياة بسهولة لمحافظتهم على واجهة ناعمة لا يلصق فيها شيء. ولكن نيوبولد ما كان ليتحرك ياردة واحدة بين الناس دون أن يلتصق بهم، جامعاً لصداقات وواجبات جديدة. من ينزل معه في بيته يدرك أن تلك العاطفة الجيّاشة والمميّزة لم تشمل أصدقاءه وزملاءه فقط وإنما خدمه وأطفالهم وحتى الحيوانات التي تقطن منزله. إحدى ذكرياتي المحببة عن نيوبولد كانت عندما أخرج من منزله في الصباح الباكر للعدو فوق الحواجز في الأبيض وأجده منهمكاً في محادثة مع فرسه المفضّل «دود» كأنه يحادث فرداً من البشر. وعليه تجد انه عندما ذهب الى يوغندا في آخر الأمر فلم يكن ذلك بغرض الراحة أو ليتعلم كل ما هو جديد في ذلك البلد، وإنما ليعقد صداقات مع بعض صغار الطلبة الأفارقة في كلية ماكرري مما تطلب تحرير رسائل مطوّلة لهم وغير ناسٍ أنهم قد لا يملكون ما يشترون به الطوابع ليردوا عليه. بين آخر ما مرر من خطاباتٍ كان لأحد الطلبة من قبيلة الكيكيو اسمه قاساقا. كتب له: «أنا لا أنسى صديقاً قط»، ولكم يا ترى تمثّل تلك الكلمات الصدق المحض؟ ولكن قاساقا لم يكن يعلم في ذلك الوقت كَم كلّفت تلك الذاكرة نيوبولد.

قرّاء هذا الكتاب ممن لم يعرفوا نيوبولد إذا اطّلعوا على هذه المقدمة، قد يقرأوها بقدر طبيعي من التشكك. إن الاطراء اللفظي لشخصية رجل فاضل يندر أن يكون فاعلاً، خصوصاً لجيل ما زال يستاء من استعمال جدودهم المتكرّر وغير الكيّس لمثل العظماء والأخيار كوسيلة لرفع المعنويات. من المأمول أن يجد قرّاء هذا الكتاب من خطابات وأوراق نيوبولد أن يتعرّفوا على شخصيته عن قرب وأن يشاركوا في تخيّل

متعة صداقته ويثمنوا مغزى مكانته كدليل للحكم البريطاني. ولكن ليس هناك ادعاء مثير للشك، بل الاشمئزاز أكثر من أن يوصف المرء بأنه كامل. وأنا كمحررة وصديقة أشعر، إذا كان عليّ واجب إضافي، أن أوضح بجلاء أنني لا أدعي صراحة أو ضمناً ذلك.

ولكن ماذا ندّعي؟ عن نفسي لا بد أن أوضح صراحة انه خلال تجوالي ودراستي لسنوات طويلة في شأن الحكم الاستعماري، أن نيوبولد قد أظهر لي أعلى مستوى رأيته في أي إدارة استعمارية أخرى. بالطبع فتلك المعايير لا بد أن تكون شخصية، كما وان الصداقة ولو انها مفتاح الفهم، تشكّل أيضاً إغراءً لا يليق بالدارس. ولكن إذا ما بدا للبعض أن الصورة التي رسمتها ودية أكثر مما يجب، فلا بد أن ندرك انه من الصعب، وليس فقط لمودتي له، أن أنتقد كتابة سيرة صديق بعد سنوات قليلة من موته: وأيضاً لأن الرجل والأحداث لم يمض عليهم وقت كافٍ للحكم عليهم. كما أكرر أنني لا أدّعي أن نيوبولد بدون أخطاء. لقد قامرت في هذه المقدمة بإثارة سؤالين عن سياسة نيوبولد تجاه مصر والمؤتمر قد يساعدان الآخرين مستقبلاً في إيجاد أجوبة لهما. قد يكون هناك الكثير الذي يمكن إثارته بدون شك، وهناك سؤال ثالث يمكنني إضافته الآن: لاحظ أصدقاء نيوبولد وخصوصاً في الأيام الأخيرة، في بعض الأحيان أنه يميل الى المماطلة في الشرح الذي تعذّر معه حصولهم على قرارات واضحة وحاسمة. هذا من دون شك عيب لأي إداري. ولكن ذلك هو الوجه المقابل للفضيلة - شعوره بتعقيد الأمور التي كان يتعامل معها وما يترتب عليها في النهاية بالنسبة للسودانيين. وكان يدرك أيضاً أن الحلول لتلك المعضلات لا توجد في رأسه ولا في إدارته ولا حتى في السودان. وقد فتح كل نوافذ عقله - للشرق الأوسط ولأفريقيا ولبريطانيا وللكمونولث وللعالم وللماضي كما والى الحاضر - مقتبساً من أفكار وتجارب كل تلك المصادر واختمرها في عقله ليضع سياسة تناسب السودان في القرن العشرين. كان بعض زملايه من البريطانيين يفضلون رئيساً أسرع قراراً وأكثر ثقة بالنفس، ومستعداً لكل الحلول. ولكن كان هناك نيوبولد واحد بين عشرين من أعضاء إدارته المؤهلين،

ولن يكون هناك خلاف فيمن يفضل السودانيون كسكرتير إداري أو من سيتذكروه طويلاً.

إذا ما أصبح هذا الكتاب، كما آمل، مرجع دراسات للطلبة السودانيين ومؤرخي المستقبل، فإني أناشدهم، عندما ينظرون في ما يحتمل من قصور لحكامهم السابقين، أن يفتحوا أذهانهم لاحتمالات نفس الشيء لأنفسهم. الدول الحديثة تبحث عن الخرافة والأساطير في أصولها لاستشعار الفخر والثقة. ومع أنه في ما مضى كانت الأساطير تتحدث عن نجاح كفاح أبطالها ضد الأعداء الأشرار، فهذا لا ينطبق بالطبع عن ميلاد دولة تحت الحكم البريطاني في منتصف القرن العشرين: فالسلبيات والايجابيات في القصة معقدة للحد الذي يصعب فيه تصنيفها. بالنسبة للايجابيات، إذا ما أحب نيوبولد السودانيين فلأنهم استحقوا عواطفه ولأنهم بادلوه حباً بحب. لقد قال مكي أفندي عباس أحد السودانيين المنتقدين للحكومة عند موت نيوبولد: «نحن نعلم أنه مات من الإرهاق. كما نعلن أن حافزه عندما أرهق نفسه حتى الموت لم يكن مجرد سداد لدين ولكنه كان لأسباب أكثر سمواً - كان ذلك حبه للسودان، وعندما كان يضيق بعمل مكتبه كان، كما يقول هو نفسه، يخرج ليتفرج على بعض الأطفال وبعض الأبقار وبعض العيش لأن رؤيته لتلك الأشياء تنعشه أكثر من أي شيء آخر»[٦].

مكي عباس والذي احتفظ نيوبولد بصداقته بالرغم من كل خلافاتهما السياسية، لم يكن السوداني الوحيد الذي أظهر إعجاباً بالسكرتير الإداري. فقد أبدت صحافة السودان الفتية والممثلة لكل الأحزاب نفس الإعجاب العميق والمتبصر. كما وأن رئيس مؤتمر الخريجين نفسه وضع إكليلاً من الزهور على تابوته وعبّر نيابة عن المؤتمر «عن عميق حزنه لوفاة سير دوغلاس. ان كل الدوائر السودانية والتي تقدر بصدق الخدمات الجليلة التي قدمها بتفان لأهل هذا البلد، ينعون فقده الأليم»[٧]. كما كتبت

(٦) الرسالة الاخبارية - الخرطوم ٢٨ مارس ١٩٤٥.
(٧) صوت السودان - ٢٤ مارس ١٩٤٥.

صحيفة سودانية أخرى: «لقد خبر السودان جيداً، واحبه، وكان مخلصاً له، وادرك انه بتوجهه هذا كان يظهر حبه وتفانيه لوطنه»[٨]. وفي صحيفة أخرى نقرأ: «تعرف نيوبولد عن قرب بالراعي في فلاه والمزارع في حقله والتاجر في دكانه والأفندي في مكتبه... كان يؤمن بقدرة السودانيين في ادارة شؤون بلدهم، كما أن مجهوداته الشاقة لتحقيق ذلك استنزفت قواه»[٩]. الشاعر السوداني شيخ عبدالله البنا كتب قصيدة تقول:

لا بد أن نتذكر عندما نقرأ هذه المقتبسات أنها من صحف أبعد ما تكون شبهاً بالصحف البريطانية وإنما من صغار صحافيي الشرق الأوسط الملتهب في أوج إسرافهم وحماسهم الوطني، وكانت الصحافة المصرية المتطرفة هي مَثَلهم. إن الذين يعرفون أجواء البلاد الإسلامية في هذه المنطقة قد لا يصدقون تلك الاقتباسات عن مسؤول بريطاني كبير يمثل الاستعمار. ويجب أن نقرأها لا كتقدير لنيوبولد وحده، وانما لنيوبولد والسودانيين معاً في إعجابهم المتبادل وهدفهم المشترك. أحرز نيوبولد تلك المرتبة لا لأنه كان يتحكم في السودانيين وإنما لأنه كان يحكم شعباً يملك خصالاً رفيعة: القتال بشرف وحسن الدعابة واحترام ديانتهم مما دعاهم لاحترام ديانته أيضاً. إن إعداد السودان الجديد والذي أولاه نيوبولد كرئيس للجهاز الإداري، كل ما جادت به خصاله العظيمة وأيضاً حياته، كان ابتكاراً مشتركاً سينظر له البريطانيون والسودانيون في ما بعد بفخر عام. إن التفاني والعطاء الذي طالب به السودان نيوبولد وغردون مع اختلافهما والذي قاد كلاهما لأن يتركا جسديهما المتعبين في تربته الرملية، قد يوصف بالتبني وقد يدّعي السودانيون، ولهم كل الحق، أن الشخصين ينتميان للسودان ولتاريخه بنفس قدر انتمائهما لوطنهما إن لم يكن أكثر.

كلمة أخيرة. بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون السودان أو المختصرات الفنية ولغة الناشطين المختزلة وهم يكتبون على عجل، قد يجدون بعض الإشارات في

(٨) الرأي العام - ٢٤ مارس ١٩٤٥.
(٩) السودان الجديد - ٣٠ مارس ١٩٤٥.

هذه الصفحات تبدو غامضة بعض الشيء. ولقد رأى المؤلف والمحرر عدم تحميل هذه الصفحات بمذكرات تفسيرية وترك الغموض كما هو. وأنا أؤيد نصيحة المستر هندرسن للقارئ بأن يواصل قراءته مطمئناً في أنه سيدرك لب الموضوع والذي رغم كل شيء هو الرجل نفسه. وإذا ما وجد القارئ النص متبايناً ومتعارضاً بإرباك فهذا من طبيعة الحكومات الاستعمارية. انه، أو كان حتى الأمس القريب، عالم وجب على الموظفين البريطانيين في المديريات أن يعالجوا بسرعة قضايا متعددة الخصائص والعناصر لما يقرب من مليون نسمة، مسلحين بالنيات الحسنة والتعليم الكلاسيكي، بينما أولئك الذين يخدمون في الرئاسة كانوا يقومون بنفس المهام ولكن بنسبة خمسة أو عشرة أضعاف. لقد ولى ذلك الزمان ولكن الجديد يجري بناؤه الآن على قواعد وضعت على هذا النمط. وقد يكون من المفيد أن ما سطره أحد أولئك الإداريين المبدعين يوماً بعد يوم دون تفكير في الأجيال القادمة، لزم أن يجمعه أحد زملائه وأن تحرره إحدى صديقاته. ويصدر هذا السجل بعد سنوات قليلة من وفاته وفي ذات الوقت الذي يتولى فيه صديق آخر منصبه ويحل بها تضمنته سياساته والتي تبدو أنها على وشك التحقيق في نشوء سلمي لسودان مستقل.

مارجري برهام

كلية تفيليد - أكسفورد

يونيو ١٩٥٢

مقدمة المؤلف

ان الغرض من هذا الكتاب هو وصف التقدم نحو الحكم الذاتي خلال الربع الثاني من القرن العشرين للسودان الانجليزي - المصري بالاستشهاد بوثائق ورسائل رجل موهوب له القدر المعلّى في توجيه ذلك التطور. كونه موهوباً فلا شك في ذلك، فقد كتب عنه صديقه و. ب. كندي - شو يقول: «في زمن أصبحت فيه كتابة الرسائل فناً مندرساً كانت خطاباته الشخصية متعة نادرة»، ولكن صورته ستظهر من خلال التقاليد المتعارف عليها لإدارة المستعمرات البريطانية. إن اختلاف إنسانيته وعلمه وبراعته عن زملائه كان في الدرجة وليس في النوع.

وبفضل التقاليد البريطانية أصبح الحكم الذاتي في جميع أرجاء العالم مقبولاً كهدف أساسي للإدارة الاستعمارية. وقد يبدو من المفارقات أن الاهتمام السياسي في المستعمرات لا ينظر أبعد من الاستقلال في وقت تدرس فيه الدول القائمة تقليص سيادتها من أجل أمنها، ولكن البشر مجبولون على التركيز على خطوة واحدة كل مرة. إن الهدف ليس صعب المنال في مجتمع متخلف، ولكن مهمة بناء دولة حديثة بحكم ذاتي لا يمكن إنجازها في عقود قليلة. إنها مهمة لا تختلف كثيراً في المبادئ حيث الخبرة المكتسبة من منطقة واحدة ستكون محدودة الفائدة. قد تختلف الأحوال ولكن تبقى المعضلات الأساسية ثابتة. الإدارة هي فن توافق السياسة مع الأحوال، وخصوصاً للحالة التي تفرضها طبيعة البشر، والتي قد تجعل أنجع الحلول غير عملية. ولذلك

فإن الحكم الاستعماري دائماً ما يكون غير منصف، وعليه لا بد من تثمين رصد الإداري للصعوبات التي تواجهه يومياً وكيف قد تصدى لها. جلبت الحرب مشاكل جديدة وخلقت صعوبات أخرى ولكنها لم تؤثر على المهمة الأساسية.

النقطة الأساسية في صورة نيوبولد هي الانسانية وقد لخص كندي - شو شخصية نيوبولد كـ: إنسانية مبنية على علم الانسانيات (الثقافة) - وخلفية علمية عالية. وفي مقدمة العمل اليومي العناية المخلصة والعملية والرفاهية للرجل العادي، رجل الشارع، والناس الذين يأتي ذكرهم دائماً في رسائله. كان دوغلاس نيوبولد رجلاً عادياً أصبح عظيماً، بفعل مستقيم وتواضع مكناه من التعرف على حاجة الرجل العادي مهما كان لون بشرته، وببراعة من زيادة رفاهيته بكل ما يملك من قوة».

تلك الرفاهية لا يمكن بلوغها الآن في المستعمرات، كما كان الحال في الماضي القريب تحت نظام أتوقراطي خير. كان ثقة نيوبولد في المؤسسات الديمقراطية الغربية موضع شك للكثيرين في السودان من بريطانيين وسودانيين نسبة لسوابق مصر وسوريا وإيران، ولكن السودانيين يملكون خصالاً قد تعطي سبباً للأمل في أن يقتفوا خطوات الهند وسيرلانكا والباكستان وليس خطوات دول الشرق الأوسط الأقل استقراراً.

ك. د.د. هندرسن
الفاشر، دارفور
السودان - ١٩٥٢

مدوّنات وتقدير

فيما عدا الرسائل الرسمية لمديري المديريات ولوكيل حكومة السودان في لندن، فقد تمت كتابة جميع هذه الرسائل بخط اليد، الصورة الفوتوغرافية المواجهة لصفحة: توضح جمال خط نيوبولد والذي لم يضطرب حتى بعد تسطير أكثر من عشرين رسالة في جلسة واحدة، كما كان دأبه.

لقد حاولت أن أبسط الموضوع بقدر الإمكان للقارئ العام بتقليل الكلمات العربية إلى أقل عدد ممكن، وتوسيع المختصرات عندما يغفل النص عن إيضاحها. عادة ما كان يستعمل المختصر (حك) - حكومة، وكثيراً ما يسقط أداة التعريف (أل). هناك قائمة للمختصرات المتعارف عليها ومسرد بالكلمات العربية المتكررة في الحاشية، مع المقاطع الطويلة معلمة للمساعدة في اللفظ وما يقابلها بالانكليزية مضمناً غالباً في النص. اما استيفاء المحرر فقط أحطناه بالأقواس المربعة. الكلمات الأجنبية مكتوبة بالأحرف المائلة ما عدا تلك المتعارف عليها والتي تشكّل جزءاً من لقب أو اسم - مثل شيخ، أو مأمور، أو أفندي. كما أن هناك عدداً كبيراً من الهوامش تتعلق بالأشخاص المشار اليهم في النص (الأوسمة التي منحت في وقت لاحق مطبوعة بين قوسين).

ننصح القارئ العادي أن يهمل كل الملهيات إلا إذا أثير فضوله. الردود على خطابات نيوبولد مطبوعة بالحرف المائل.

الحاجة لتقليص الكم الهائل من المادة لحجم معقول ولتفادي التكرار المحتوم في

مثل هذه المراسلات الغزيرة فقد تطلب ذلك حذف الكثير. وإذا أشرنا لكل حذف فسنجعل النص غير مقروء. فقد استعملنا النقط فقط عند الضرورة لإظهار أي فتق. وقد شمل ذلك من وقت لآخر استبدال الاسم بالضمير. وقد أوردنا أداة التعريف (ال) متى ما كان لذلك ضرورة.

الرسائل التي تشكل الجزء الأول من الكتاب تحكي قصة خدمة نيوبولد بأقل ما يمكن من سرد تحريري أو شرح. ومتى ما أمكن ذلك زودنا خلفية لتلك الرسائل مستعينين بالتفاصيل التي تظهر في وثائقه المدرجة في الجزء الثاني من الكتاب ومستعملين ذات كلماته. الفصلان الأولان من الجزء الثاني يركزان على صفات الرجل والبلد التي خدم بها. والفصل الثالث سيساعد الراغبين في تتبّع المشاكل الإدارية التي ذكرناها في رسائله. الفصلان الرابع والخامس يوضحان الأغراض الرئيسية وأصعب مهام تعرّض لها كسكرتير إداري خلاف الانهماك في الحملة الأفريقية. وبما أن الجزء الثاني يشرح الجزء الأول فقد يكون من المفيد الرجوع إليه متى دعت الضرورة لذلك.

أود أن أعبّر عن عميق امتناني وشكري للآنسة مارجري برهام لمساعدتها لي بصبر وبدون كلل، ولنصائحها ونقدها لكل ما يتعلّق بإخراج هذا الكتاب، وإلى كاثلين أفت نيوبولد (السيدة/ هيوبرت تيري)، وبنتي أخيه دافني وآنثيا تيري لإمدادي بأوراق العائلة وبالمعلومات، وللتصنيف والطباعة، ولعمل الكثير جداً الذي لولاه لاضطررت للقيام به بنفسي لو كنت متواجداً في انكلترا، والكثير جداً أيضاً الذي كان سيتعذّر عليّ عمله تحت أي ظرف. وإلى السير جيمس روبرتسن لإتاحته لي الأوراق الرسمية والسماح لي بالاستفادة منها، وإلى السيد أي. ك. ج. سويتنغ لرسم الخرائط التخطيطية وإلى مصلحة المساحة بحكومة السودان لرسم وطباعة خارطة السودان وتوضيح الأماكن التي جاء ذكرها في النص، وإلى الرائد و. ب. كندي - شو للمعلومات والمواد والنصائح، ولكل أولئك الذين تكرموا بإرسال رسائلهم وصورهم الفوتوغرافية لأخذ نسخ منها.

أما عن مؤهلاتي أنا لهذه المهمة، فقد عملت تحت إمرأة نيوبولد كمفتش مركز صغير

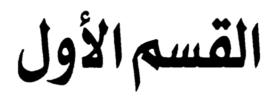
في كردفان من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٦، وكنائب مساعد السكرتير الإداري في الخرطوم من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٤. وكمفتش مركز لمنطقة البجافي عام ١٩٤٥، وكمساعد السكرتير الإداري لخلفه من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٩ حيث أتيحت لي الفرصة أن أتتبّع خيوط إنجازاته من خلال ملفات المكاتب ومن شفاه أصدقائه ولمشاهدة الأحداث التي برهنت على نجاح سياساته.

ك. د. د. هـ.



مسطورات

MUSTORAT



القسم الأول


مسطورات
MUSTORAT

الفصل الأول

السنوات الباكرة

١٨٩٤ - ١٩٢٠م

وُلد دوغلاس نيوبولد في تنبردج ولز يوم ١٣ أغسطس ١٨٩٤م. كان الأصغر لإخوة سبعة وأخوات أربع في أسرة تربطها أواصر المحبة القوية والإلفة الفكرية. لقد ورث تقاليد التعليم والمغامرة والعمل العام. توفي والده وهو في سنته الخامسة، ولم يتزوج أبداً. كانت والدته هي المؤثّر الأعظم في حياتهم وكان يراسلها أسبوعياً تقريباً إلى يوم مماتها.

كانت والدته - إليانور إليزابث نيوبولد - إبنة الكولونيل ديفيد فيرقسون الضابط في الجيش الأميركي والابن الأصغر المغامر من أسرة آدم فيرقسون أوف دنفلاندي (Dunfallandy) في بيرثشاير (Perthshire) (مقاطعة في شمال شرق اسكتلندا - المترجم)، والذي عَبَرَ الأطلسي في أربعينات القرن التاسع عشر وتقلّد رتبة في جيش لنكولن في شمال الولايات المتحدة الأميركية. ثم مكث سنوات طويلة في المكسيك (حيث اكتشف وترجم أرشيف محاكم التفتيش لفترة توركيومادا (Torquemada) - رئيس محاكم التفتيش الإسباني الذي عيّنه الملك فيرناند والملكة إيزابلا وقام بمحاكمة أكثر من ماية ألف من اليهود والمسلمين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية الكاثوليكية في القرن الخامس عشر الميلادي - المترجم). وقد عمّر ليكتب رسالة لحفيده عندما كان الأخير في الصحراء الليبية، يتذمّر فيها: «إن سنّي المتقدّمة وشيخوختي المعتلة الوهنة تمثّلان عقبتين لا يمكن التغلّب عليهما بالعزم والتصميم». وكانت رسائله تشبه رسائل حفيده. في رسالة لأخيه من أريزونا في

فبراير ١٨٦٣م كان يحتج:

«لقد استلمت منك رسالة في مايو أو يونيو الماضيين وليس سواها منذئذٍ، ولولا الختم على الظرف فكانت وريقة من حجم قطعة الخبز. قد تكون قرأت شيئاً عن الصحراء العظمى، ولكني لا أعتقد أنها أعظم أو أسوأ من هذه. كان عليّ أن أعبر منطقة الهنود الحمر وهي أسوأ وأخطر منطقة في العالم. كنت سأعتقل لأنني أرجعت مرافقيّ إلى إنجلترا قبل رجوعي وأيضاً لأنني عرّضت جسدي الغالي للخطر. أخذت معي ثلاثة من المكسيكيين وقدّرت أنه من الأفضل لي أن أؤمن بالله أحياناً... بعد ذلك تركوني أحكم مركزاً جغرافياً (أريزونا الغربية) في حجم اسكتلندا! وتوجب علي القيام بمهام مدير الإمدادات لكل الحملة. لقد عقدت الزيجات وفصلت في الطلاقات ودفنت الموتى، وقمت بفضّ المنازعات بين الأحياء، وكانت سلطاتي غير محدودة. كل ذلك فُرض عليّ نتيجة لخبرتي في هيئات الأركان ومعرفتي باللغة الإسبانية - أريزونا جزء من المنطقة التي أخذت من المكسيك. وهنا قمت بتقديم استقالتي مرتين بوضوح وبدون مواربة ولكنهما رُفضتا، وفي سبتمبر يتمّ استعفائي. وقد صدرت لي التعليمات في أكتوبر، بناءً على اقتراحٍ مني شخصياً، للقيام باستكشاف طريق جديد لتوصيل الإمدادات العسكرية لأريزونا، لأن الطريق القديم كان غير مناسب ومكلف. قمت برحلة لمنطقة تقع على خليج كاليفورنيا تبعد ٢١١ ميلاً من مدينة توسون اسمها لالبرتاد، واستطلعت الآراء ووجدتها منعطفاً واسعاً وآمناً. ثم رجعت حوالى ٧١ ميلاً وتفقّدت منعطفاً آخر يسمى منعطف لوبس أيضاً على الخليج وحوالى ٢٠ ميلاً شمال لالبرتاد، وقمت بمسح الطرق ودونت مذكرات مستوفية عن كل ثروات المنطقة، ثم قفلت راجعاً بطريق غير الطريق الذي أتيت منه. وبعد كتابة تقريرين ضافيين عن ذلك الاستطلاع ورحلت إلى جهة تبعد حوالى ٣٠٠ ميل من توسون في مكان خلاء ليس به شيء سوى قبائل الأباشي من الهنود الحمر القتلة الذين يختبئون خلف الصخور والأشجار وما شابه لقتل المسافرين وحتى مهاجمة الجيوش الكبيرة. لقد كنت محظوظاً حيث كان معي حرس مكوّن من عشرين جندياً طوال

الوقت، ولكني لم أشاهد أي هندي أحمر.

«وقد يندهش بعض الضباط الإنجليز إذا علموا أن جنود كاليفورنيا يزحفون صيف شتاء بدون خيم أو أي وقاء آخر. لم يكن لدي أي غطاء في كل مسيراتي سوء بطاطيني، وقد سرت أكثر من ٢٥٠٠ ميل في العشرة شهور الماضية، وكانت الحرارة تصل الى ١١٥ درجة في الظل - ولكن لا ظل هناك - كما وأن البرد كان قارصاً في الشتاء. تقع شيواوا (Chihuahua) على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وكما قد تتخيّل فكنت أعاني من شدّة البرد في تلك الرحلة. فقد كان الجليد والصقيع كثيف للدرجة التي يضطر المرء أحياناً لترك فراشه ليلاً ليمشي مسافات بعيدة ليصل إلى مكان الماء والعشب عند الصباح، كما كانت الخيوط المجمّدة تتدلى من مناخير الخيول بطول إثنتين أو ثلاث بوصات، كما يتجمّد البيض في صناديقه الخشبية داخل المخازن. ولكننا اعتدنا على ذلك كيفما كان».

توفي ديفيد فيرقسون عام ١٩١٨ عن ٩٤ عاماً، وبعد غياب سبعين عاماً عن اسكتلندا عاد ليتخاطب بلغة طفولته الفيلية (لغة السلتيين في ايرلندا ومرتفعات اسكتلندا - المترجم)، وكانت زوجته إميلي والش تجيد عزف الموسيقى بمهارة، ووالدتها إليناور آدمز المتحدّرة من أسرة أنجبت إثنين من رؤساء الولايات المتحدة.

وكان ابنهما آرثر والش فيرقسون قد خدم بتفوّق في حكومة الولايات المتحدة وشارك في عدة لجان وطنية وعالمية. وقد توّجت مساهمته المميّزة في لجنة الرئيس تافت الخاصة بالفلبين بنصب تمثال له في مانيلا.

وكانت أخته إليانور فيرقسون تصغر زوجها وليام نيوبولد بأكثر من ثلاثين عاماً. وقد التقيا في المكسيك حيث كانت له مصالح تجارية هناك وكان الإمبراطور ماكسمليان يعتبر أحد أصدقائه. كان والده من أعيان وركشاير وقد توفي بعد انهيار أعماله التجارية وإفلاسه، وكان ابنه وقتها في عامه الثاني عشر. تلقى وليام الصغير تعليمه في مدرسة الملك إدوارد في برمنغهام وتمكن بسرعة من استعادة ثروة الأسرة. وقد كان كثير الأسفار إلى أن تزوّج في منتصف عمره. وكانت والدته من أسرة بكرنغ،

وكان هو نفسه بلحيته المدببة شبيهاً للسير وليام بكرنغ - سفير الملك إدوارد السادس إلى فرنسا ومندوب الملكة إليزابث الأولى إلى بلاط إسبانيا، وكان تمثاله يرقد على ضريحه في كنيسة سينت هيلين في يوشيسقين. وقد توفي في مطلع عام ١٩٠٠م تاركاً أسرة تنعم بالمحبة الأسرية والعلاقات الزوجية السعيدة المتسمة بالدعابة والمرح. وقد ترك لزوجته الصغيرة (كان عمرها ٣٨ عاماً عند وفاته) عشرة أطفال أحياء لتقوم بتربيتهم، كما أوصاها بأن «تردّ على الرسائل وتدفع الفواتير في الحال، وأن تستشير عندما تكون في شك من أمرها. وأن تكون دقيقة في مراعاة المواعيد، وأن تعيش على قدر إمكاناتها المتاحة».

وقد قامت بواجبها بكفاية وسكينة مما مكّنها من فرض نفوذ دائم على كل أولادها وخصوصاً دوغلاس الأصغر، دون أن تتدخّل في تنمية شخصياتهم مما كان يثير الدهشة. كان ذوقها غير مترف، وكانت تحب الزهور والحدائق، كما شاركت أفراد أسرتها في هواياتهم، ولكن اهتمامها بالناس كان أكثر من اهتمامها بالأشياء. كان أهم ما يميّزها الحنان الهادئ والكرم بدون تباهٍ. كان منزلها دائماً مفتوحاً لدائرة واسعة من معارفهم وأصدقائهم وجيرانهم. وكان الأطفال المتوجب عليهم الجلوس مع بعض الثقلاء والمضجرين، ينتقمون منهم في ما بعد في مدرستهم بالمحاكاة الهزلية. وكان دوغلاس من أبرز إخوته في مثل تلك الأفعال التي تستوجب الشجب، إلا أنه طوال حياته العامة كان يتسم بالحياء والتحفّظ الذي ورثته والدته من أسلافها. كما احتفظ أيضاً بالمقدرة لإحاطة نفسه بدائرة واسعة من الأصدقاء في حياته الأسرية كما وأن موهبته في تحويلٍ مهماته الرسمية إلى شؤون أسرية ساعدته عندما تولّى جهاز الخدمة المدنية، حيث الأُسر الكبيرة المتحابّة تتجادل وتتبادل التهم ولكنها لا تضمر الضيم، وتفهم بعضها بعضاً وتقف متكاتفة[١].

كما ورث أيضاً من والدته النشاط الجم. فقد كانت لآخر أيامها تستيقظ باكراً

---

(١) كتب نيوبوند عام ١٩٢٤ «كلما أنظر في أمر الحكم الأهلي كلما أزداد قناعة بأن مفاهيم أسرتنا هي الصحيحة، في عدم الهتيج. وعدم التدخل، وعدم إرغام الناس لفعل لا يرغبون فيه».

وتدير شؤونها المالية دون مساعدة وتتمشى كثيراً وتعمل في حديقتها بهمة.

ومثل إخوانه وأخواته فقد تلقى دوغلاس أول تعليمه من والدته، وتعلم القراءة والكتابة قبل أن يشارك أخيه أرِك (Eric) وأختيه الصغيرتين كاثلين ومارجُري في الفصل المدرسي تحت رعاية معلمتهم الآنسة ليلي هارلاند الطيبة والصبورة، والتي علمتهم المبادئ الأساسية لكل شيء من الألعاب الرياضية، للعزف على البيانو واللغة اللاتينية، (والتي كانت هي نفسها تقوم بتعلمهما قبل تعليمها لهم).

تبع ذلك الدراسة في المدرسة الإعدادية في تنبرج ولز (Tunbridge Wells) الداخلية الاسبوعية، والتي كانت غير مستساغة لدوغلاس في بادئ الأمر، الشيء الذي كان يبكيه كل صباح يوم اثنين (بداية الأسبوع - المترجم) بينما كان أرِك يحاول التخفيف عنه. كان أرك يكبر دوغلاس بثمانية عشر شهراً، وكان الاثنان لا يفترقان، وكانت الأسرة دائماً تشير لهما إجمالاً بـ«أرِك ودوغلاس». تبوأ أرِك لاحقاً منصب المدير العام لشركة صهر الحديد الشرقية وأصبح عضواً في المجلس التشريعي لمستعمرة البوغاز (الملايو - المترجم). وقد كانت وفاته المفجعة عام ١٩٣٨ في حادث طيران في بنانق مؤثرة جداً على دوغلاس، كوقع وفاة والدته عليه عام ١٩٤٢م.

خلال سنوات طفولته تلك كان مولعاً بالريف الانكليزي وخلفيته التاريخية - إنجلترا التي يمثلها تل بوك (Pook's Hill) - ولم يفارقه ذلك الولع طوال حياته وقد قاده التجوّل خلال روابي ومحميات الأودية إلى التعلق بالآثار والذي أتى أكله في ما بعد في أفريقيا. كان أخواه ولي (Willie) وفيليب اللذان يكبراه شغوفين أيضاً باستكشاف المغارات والمخيمات البريطانية والمباني الرومانية في مختلف أنحاء البلاد.

تبع دوغلاس إخوانه إلى مدرسة أبنغهام كطالب عام ١٩٠٧م وأصبح رئيساً لاتحاد طلبتها ومحرراً لمجلتها، كما نال شارة مدرسته في لعبة الخمسة (لعبة شبيهة بلعبة الكرة الطائرة) والهوكي. ثقفت أبنغهام دوغلاس وأهلته للالتحاق بكلية أورويل في جامعة اكسفورد عام ١٩١٣. وقد مكنته الحرب العالمية الأولى والتي كان فيها ملازماً أول في فرقة دورست للفرسان الملكية، من التعرف على العالم العربي والصحارى العربية

عندما اشترك في المعارك ضد السنوسي خارج مرسى مطروح في يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٥م.

كان نيوبولد يقضي أوقات راحته في زيارة العديد من المقابر الصحراوية والأحواض الرومانية خلال الحملة التي اختتمت بواقعة العجيجة (Agagio) في يوم ٢٦ فبراير ١٩١٦م المشهورة بمهاجمة فرقة الفرسان الملكية واعتقالهم الجنرال التركي جعفر باشا، والذي كان مقدراً له أن يلعب دوراً مشهوداً في الثورة العربية والتاريخ اللاحق للعراق. وقد وصف دوغلاس في يومياته عن الحرب كيف استطاع المائة وسبعون فارساً «يصحبهم عامل المجاريف وطباخ وبيطري شاهراً مبرده» من اقتحام مؤخرة جيش السنوسي، وقد منيوا بستين إصابة أغلبها بسبب إطلاق النيران عليهم من أنصار السنوسي من خلفهم، والذين خدعوهم بالتظاهر بالموت. وقد سارع هو نفسه مع قسم مدفعيته إلى جانب مطلقاً نيران مدافعه كغطاء، ثم رجع ليتسلم جعفر باشا قبل أن تنجح عملية انقاذه بواسطة ضباط السنوسي، ثم قام بتسليمه إلى قوات جنوب أفريقيا المتحالفة.

وقد تبع تلك المعركة اكتشاف بير حكيم لأول مرة في التاريخ والتي كانت مُعْتَقَلاً للأحياء من السفينة الحربية البريطانية «تارا»، والتي أغرقت بطوربيد على سواحل السلوم في نوفمبر الذي سبق. وقد قاد اكتشاف قصاصة ورق في منزل أحد الاعراب الى الدليل مما مكن دوق وستمنستر من قيادة رتله المكون من اثنتي عشرة عربة مصفحة لاختراق الجيش المتراجع وعبر الصحراء بسلام ورجع مع واحد وتسعين من المعتقلين الاحياء والذين كانوا يعيشون على القواقع. كانت تلك هي نهاية الحرب في الصحراء، أما بقية مشاركة نيوبولد في الحرب فكانت في فلسطين.

كان اللواء الذي ينضوي تحته نيوبولد يقوم بحراسة صعيد مصر، وقد انتهز نيوبولد الفرصة لتحسين لغته العربية ولزيارة بعض الأضرحة والمشايخ المحليين. وبعد فترة وجيزة كلف اللواء بحراسة الممر الذي يبلغ عرضه خمسة أمتار على طول الضفة الشرقية لقناة السويس من زوار الليل (قد يقصد الحيوانات المفترسة أو الأعداء

- المترجم). كما قاموا باستبدال مدافع المكسيم التي ورثوها في حرب البوير بأربعة مدافع من طراز فكرز الحديثة.

وقد وصف نيوبولد لوالدته في رسالة حملة استطلاعية كبيرة كنموذج لما كانوا يقومون به في مطلع عام ١٩١٧م.

«أخذت مدافعي الأربعة مع طابور من الفرسان في طريقنا إلى النخيل التي تبعد حوالى سبعين ميلاً شرقي السويس في خط مستقيم، وفي منتصف الطريق للعقبة عبر سيناء، ولكننا أخذنا طريقاً يبعد حوالى تسعين ميلاً. لقد بدأنا بالوصول بالقرب من أبيار موسى ووصلنا إلى بعد ٦ أميال من سفوح الجبال الضخمة التي ترتفع إلى ارتفاع ٣٠٠٠ قدم أمام السهل الداخلي المرتفع. وفي اليوم الثاني قطعنا ٢٧ ميلاً، ١٢ منها عبر طريق لم تطأه أقدام جنود منذ عهد جيوش صلاح الدين في القرن الثاني عشر الميلادي. لقد كان زحفاً رائعاً عبر ممر ضيق ترتفع الصخور العالية على جانبيه. كان السير عسيراً عبر الصخور الضخمة والفجوات الضيقة طول المسافة. كانت حملتنا قوامها ٧٥٠ جملاً يسير الواحد منها خلف الآخر لمسافة تصل إلى ميلين. وكان الرجال الذين يقودون الجمال وهم على دوابهم المحملة، يعانون من صعوبة قيادتها فوق الأحجار. وكانت المرتفعات على الجانبين يحرسها فوج هندي من حرس حدود شمال - غرب الهند، وقد أدوا واجبهم على أحسن وجه. ومهما أرجعت البصر على طول خط الزحف فإنك ترى مجموعة من البنجاب أو الأفريد جالسين في أعلى الصخور من الناحية اليمنى والناحية اليسرى. من الصعب حراسة ممر طوله ١٢ ميلاً على الجانبين بـ٢٥٠ جندياً فقط، ويكونوا على اتصال ببعضهم طول الوقت. لو كان للاتراك أي جيوش في المنطقة لسببوا لنا مشاكل جمة. كان مدخل الممر يعج بالقناصة ولكنهم أخلوه عندما سقطت العريش ورفح واضطروا للانسحاب من كل نقاطهم شرقاً. كان بإمكان بعض القناصة أن يعطلوا الطابور بكامله في أي مكان حيث الممر كان شركاً للموت.

لم أشاهد في حياتي مناظر كتلك، يعجز المرء عن وصفها. كانت سلسلة الجبال

- جبل رحا أو (راحة؟) مجرد كتل من القمم والمنحدرات الوعرة تتخللها وديان منتشرة في كل الاتجاهات. وكانت هناك حوالى ستة معابر. كان المعبر الذي اخترناه أطولهم وأوعرهم. وعندما تمطر - متوسط هطول الأمطار في سيناء حوالى خمسة أيام خلال يناير وفبراير - تسيل المياه من المنحدرات إلى الوديان ثم تتسابق على طول القاع بكميات ضخمة. كان هناك سيل كبير في المعبر قبل يومين من دخولنا فيه وكان بامكاننا رؤية خط الماء حواليى ٢٠ إلى ٣٠ قدماً أعلى القاع. اقتلعت الصخور الضخمة من منبتها وتبعثرت في أوضاع مختلفة، بعضها كان يتوازن فوق بعض مثل حجارة لوقان في ترين ديناس (Treyn Dinas) وكانت الشجيرات والطين يلطخان أعلى جوانب الجبل. سيغرق المرء لا محالة إذا أخذ على غرة أثناء السيل ومن المحتمل أن يتحول إلى عجين. كان هناك معسكر متقدم حوالى خمسة أميال غرب مدخل المعبر وقد تغطي بارتفاع ست أقدام من نفس السيل. وقد تبعثرت بألات العلف لمسافة ألف يارد، وردمت الآبار واقتلعت الشجيرات الصغيرة من جذورها.

بدأ الزحف على فلسطين في مارس ١٩١٧ متخطياً خان يونس «القرية التي وجد فيها قابيل العنب» ووجد فيها علي منتار «الجبل الذي حمل إليه شمشون أعمدة بوابة غزة».

تلا ذلك غارات متكررة على غزة. وفي أغسطس قضى نيوبولد نهاراً حرجاً قبالة بير شيبا عندما أصيب بشظايا مباشرة والتي كانت تنهمر على مدرجات الصخور مثل البرد وتحدث قرعاً لم تحتمله الخيول إطلاقاً. كان عليهم الانسحاب الفوري وعندئذ انزلق سرج جواد نيوبولد جانباً.

«كان لا بد لي أن أقفز عن الجواد. وقد حاولت أن أشد حزام السرج، وكانت القذائف تنهمر من كل مكان. كنا في فضاء مكشوف تحت أنظار الاتراك. كاد جوادي أن يجن من الفزع وكنت أنا في مثل حالته، كما كان العرق يتصبب في أركان عينيّ ويمنعني من الرؤيا بوضوح. ولكني تمكنت من شد حزام السرج وسبقت الجزقسم

(جزء من القسم) الاحتياطي في المؤخرة وبلغت تقريري إلى قرنفل الضابط القائد لفرقة بكنغهام شاير».

سقطت غزة يوم ٧ نوفمبر وفي يوم ١٢ نوفمبر وعلى مشارف (أشدود) لمحوا القدس لأول مرة تتوهج بيضاء على قمم (Judea). وفي يوم ١٣ نوفمبر اشترك نيوبولد في حملة أخرى مع أفواج فرسان دورست وبكنغهام شاير وخمس بطاريات مدفعية تابعة للسرية ١٧ المدفعية (جملتهم ٥٥٠ أو ٦٠٠ فارس) عبر ميل من الأرض المسطحة تماماً تغطى بالعشب والنيران الثقيلة تطلق عليهم. وقد اندفعوا إلى الجبل وتمكنوا من الاستيلاء على الموقع في ربع الساعة، محتجزين ١١٠٠ سجين ومستولين على ٢٠ مدفعاً رشاشاً وثلاثة مدافع ميدان بأتيامهم. قتل في تلك المعركة نيل برمروز وإيفلين روثشايلد. وقد اشتركت المدافع الرشاشة مع الخيالة في ذلك الهجوم لأول مرة. كما اشترك نيوبولد مرة أخرى في هجوم على أبو شوشة (جزر)؛ وفي الهجوم على الزيتون يوم ٢٨ نوفمبر أصيب في ساقه عندما كان يجلي موقعاً متقدماً. «وبعد أن مكثت لمدة نصف ساعة، ظهر اثنان من فرسان فرقة دورست وحملني أحدهم على ظهره لمسافة ميل إلى أعلى وأسفل الصخور إلى أن وصلنا لجمل الاسعاف وكان الظلام قد خيم حينذاك. وقد اندفع بي الجمل ولكنني تمكنت من الانزلاق منه، وأخيراً تحصلت على جواد وامتطيته وساقي ممدودة على حقيبة السفر المعلقة على السرج، حتى وصلت إلى مركز الاسعاف حوالى ثلاثة أميال إلى الوراء حوالى الساعة الحادية عشرة مساء».

وبعد رحلة شاقة جداً وبساق مكسور ومتورم وصل إلى الاسكندرية (المستشفى العمومي ١٥) يوم ٣ ديسمبر. وقد برأ الجرح سريعاً بعد نظافته، ولكنه ترك بذرة مشاكل سيتعرض لها لاحقاً.

ثم عاد إلى سريته في مطلع مارس ١٩١٨م وبعد شهر تحرك اللواء، المُعاد تشكيله، شمالاً عابراً للقدس تحت ضوء القمر المكتمل وخارجاً عن طريق أريحا إلى طلعة الدوم، وهي بقعة على سفح جبل مقفر وبغيض للغاية؛ لا ورقة نبات من أي نوع ولا بوصة من الظل، لا شيء سوى الصخور الحارقة والعقارب. جلسنا وأكلنا بعض لحم

البقر المعلب القاسي وشربنا ماءً حاراً ومطيناً بالقرب من المنطقة التي شهدت حادثة السامرائي الطيب. عقد قادة الفوج والضباط المساعدين لهم في الساعة السادسة مساءً مؤتمراً، ثم أخذونا إلى تل مجاور حيث كان وادي نهر الأردن منبسطاً مثل خارطة تحت أقدامنا، وقاموا بشرح العمليات القادمة لنا. كنا نشاهد البحر الميت بوضوح، وكذلك جميع حوض نهر الأردن وأريحا وشونت غرين على حافة جبل جلعاد على الضفة الأخرى. ونرى خلفنا قباب ومآذن القدس، وعلى يسارنا بروك شيرث وهو عبارة عن شق في الجبل بعمق حوالى ١٨٠٠ قدم».

تبعت ذلك عمليات فاشلة في شرق الأردن أسفرت عن «الانسحاب المخزي لكل القوة ليلاً عبر الأردن، ولكنها أرغمت الأتراك أن يرحلوا قوات كبيرة من غرب الأردن إلى شرقه، وإلى اليوم الأخير قبل الهجوم الذي شنه ألنبي كانوا يعتقدون أن هجومنا الرئيسي سيكون من الشرق بدلاً من ساحل البحر».

وقبل أن تنشب المعارك كان يتجول على جواده حول منطقة المعسكر بأسرها من يوم لآخر:

«لقد استحممت في البحر الميت، وزرت دير القديس جون المعمداني عدة مرات، وعلى العموم قضيت وقتاً ممتعاً».

ولكن في الثامن من يونيو بدأ يشعر بضعف في أصابعه. وفي اليوم العاشر تعذر عليه النهوض بدون مساعدة، وفي اليوم الثالث والعشرين، وبعد رحلة مضنية عاد مرة أخرى للمستشفى في الاسكندرية وهو في حالة شلل تام. وقد نقل إلى إنجلترا وتماثل ببطء للشفاء، وقد أجازوا لياقته لمزاولة الخدمة مرة أخرى يوم الهدنة (١١ نوفمبر ١٩١٨ - المترجم) وتم تسريحه يوم ٢٠ ديسمبر ١٩١٨م.

لقد حولت الحرب في أوروبا كثير من الشبان المثاليين إلى رجال يشعرون بالمرارة، كما انضجت آخرين قبل أوانهم، ولكنها لم تؤثر كثيراً على نيوبولد. فقد احتفظ طول حياته بخجل وحياء شبابه وبكراهيته لأي شيء يتسم بالحماس والغلظة، وهذا ما

نستشفه من بعض رسائله. كما اكتسب أيضاً، نسبة لنظرته الرومانسية للتاريخ، والتي شكلت حبه لإنجلترا أيام طفولته، رغبة لدراسة آثار الشرق وشغفاً لاستكشاف الصحارى والذي تولّد من تلك الحملات العسكرية.

قدم نيوبولد في إبريل ١٩٢٠م مقالاً لصحيفة التايمز اللندنية عن واحتي الكفرة والسنوسي؛ وخلال أوائل سنوات خدمته اللاحقة في السودان كانت تتملكه الرغبة لاستكشاف الصحراء الليبية: «إحدى المساحات الفارغة القليلة على خارطة العالم» كما كان يقول. وكان شغوفاً بترديد أبيات الشعر الفرنسي المقفى:

«دُن يدرو الفاروجي

بجماله الأربعة

يطوف العالم ويستمتع به

وقد عمل ما كنت أنوي أن أقوم به

في حالة امتلاكي لأربعة جمال».

وقد كتب بعد سنوات عديدة: «ان الصحراء الليبية مقفرة وكئيبة حتى بالنسبة للصحراء الكبرى، وتتمدد لحوالى نصف مليون كيلومتر مربع عبر شمال - غرب أفريقيا. هنا ترقد عظام جيش قمبيز الزائلة، وهنا نجد رفاة الاجناس الغابرة، ورؤوس الفؤوس المتآكلة، وعظام الزراف المشقوقة منذ العصر الحجري للانسان. وهناك تختبئ واحة زرزور المفقودة بين الجروف الداخلية وكثبان الرمل، وقد تغشاها صدفة أربع أو خمس مرات خلال الألف سنة الماضية بعض البدو التائهين والذين لم يتمكنوا من العثور عليها مرة أخرى. وتتحدث أساطير العرب (وكتب الكنوز الدفينة) عن مدينة مدفونة بها ملكة نائمة في قصر مسحور. ولكن لبعض أولئك الذين اخترقوا قلب الصحراء بمشقة، وخصوصاً بالوسائل التقليدية - بقوافل الجمال - فهم ليسوا في حاجة لألغاز أسطورية لجذبهم للصحراء. فمنظر الصحراء المهيب، وتعاقب سلسلة قمم الجبال الصخرية والسهول العارية، وانسجام الرمال والسماء والنجوم هي كفيلة بالإلهام.

«إن القليل من الجماجم ورؤوس السهام والصخور المنقوشة المتفرقة وصرخة وحيدة لطائر مهاجر هي من الندرة أن تقنع المستكشف أن هذه لم تكن أبداً موطناً للبشر العادين وإنما مسكن للجن والعفاريت من البازيليق (زحَّاف خرافي مهلك الأنفاس والنظرات - المترجم)، والأصلة أم طبق (حية خرافية تصرع البشر بنظراتها - المترجم). هكذا كان الاعتقاد لراسمي الخرائط في القرون الوسطى الذين تأثروا بشعوذة الرهبان، فقد ملأوا الصحراء الليبية بأناس لهم ذيول ورؤوس كلاب، وبالهبوقريف (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه الآخر بجسد وقائمتين مثل قوائم الفرس - المترجم)، وأحادي القرون (حيوان خرافي له جسم فرس وذيل أسد وقرن وحيد في وسط الجبهة - المترجم) كما توضح خرائط العالم الشهيرة لرتشارد دي هالدينغهام في كاتدرائية هرفورد بإنجلترا. وكما كتب سوفت (جونثان سوفت - (١٦٦٧ - ١٧٤٥) الكاتب الإيرلندي الساخر - المترجم):

الجغرافيون يملأون الفراقات في
خرائط أفريقيا بالحيوانات المتوحشة
ولعدم وجود مدن، يرسمون
الأفيال في الوديان المقفرة

«وعدم تشابه تلك البقاع غير المأهولة بأي شيء دنيوي يتعاظم بظاهرة شدو رمالها القريبة، والذي يكاد خفقانه البعيد أن يكون عزف الكواكب.

«وهناك هدوء وسكينة أيضاً في الصحراء. الصمت والاتساع يجبران عابر السبيل القَزَمي أن يخطو برفق كمن يخطو في كنيسة أو مسجد خالٍ. وتتطهر الروح من أدران المدينة كالبرم والحسد والحقد. وليس هناك ما يخيف سوى الخوف من الموت. وهل من مكان أفضل للموت فيه من أن يفترش الانسان الرمال النظيفة ويتدثر بالنجوم؟ وإذا ما حالف المرء الحظ ورجع سالماً فستبقى معه ذكريات أبدية لرحلة أشبه ما تكون برحلة للقمر أو لجزيرة هاي برازيل الأسطورية.

«أول وميض لفجر الصحراء يأتي عليلاً كأنه بازغ من الضباب مثل الشبح، وفجأة يظهر ظل الجمّال كبقعة رمادية على الرمال المضلعة. وفي الطليعة يُبرّك المرشدون جمالهم ويركعون في اتجاه الشرق لأداء أولى صلوات اليوم. ثم تبدأ القافلة في الزحف ببطء شديد، وتسير دون توقف. وفوراً تمتد أشعة الشروق القرمزية لتكشف عن عالم خالٍ. ويرتفع الهواء البارد من الأرض ليشكل شريطاً من البخار على الأفق. ثم، وبدون مقدمات، ترتفع كرة الشمس الضخمة فوق الرؤوس محولة كل ظل ولون إلى وهج غير لامع لرمال قاتمة وسماء شاحبة. ويطمس السراب الحافة البعيدة بين الأرض والسماء بضباب يجعل الرؤوس تدور والعيون تتمرد. ثم يأتي الظهر والأصيل الطويل وغير الرحيم، عندما يبدو العالم كله كأنه توقف تماماً، ما عدا دائرة الأفق الضخمة التي تتحرك دائماً إلى الأمام وإلى الجنب وإلى الخلف كأنها تثبت القافلة المتثاقلة، إلى الأبد، إلى وسط قرمها العاري. وببطء تطول ظلالنا حتى نصبح عمالقة لحقبة أخرى. وأخيراً تغيب الشمس المتكاسلة فجأة تحت حافة الأرض بألوان مندفعة تموت فور ميلادها. وأخيراً ينحسر الشفق سريعاً مخلفاً وراءه فيضاناً أبيض من النجوم تظهر فرادى أولاً ثم في مجموعات. ثم تهدأ الريح وفي الحال يظهر قمر مبهج مجتازاً المعسكر النائم. «كتب داوتي وكينجليك ولورانس وحسنين عن مجد ورعب الرمال والسماء، ولكنهم لم يحسنوا الوصف. فقط نقول مع حسنين: «إن الصحراء رهيبة وعديمة الرحمة ولكن كل من زارها مرة لا بد أن يعود اليها».


مسطورات
MUSTORAT

الفصل الثاني

شئون القبائل الرعوية

١٩٢٠ - ١٩٣٢م

عاد نيوبولد لجامعة أكسفورد بعد الحرب لإنعاش نفسه بالعلوم الكلاسيكية ومثرياً ذاكرته بالحقائق والاقتباس من الأعمال الجغرافية ومن الإنجيل. كان تناوله للإنجيل جغرافياً وتاريخياً وليس لمغزاه الديني. «كنت أتمنى لو كان هناك تعليق علماني مفيدٌ عن العهد القديم ليشرح الأسماء والمراجع، كل ما هو متاح الآن هي الكتب والمدونات المدرسية الدينية التي لا تفيد كثيراً من زاوية تاريخية». ليس هناك ما يحملنا على الاعتقاد انه كان في تلك الفترة أكثر أو أقل عقيدة دينية من معاصريه. ومثل كل الإنجليز كان يحتفظ بدينه لنفسه. الفصل الأول من الجزء الثاني من هذا الكتاب مخصص لإلقاء الضوء على وجهة نظره تجاه الديانات وعلى دراسته العملية وعلى قراءته، وهو يركز على شخصيته أكثر من سواه من فصول. وقد نعاه المطران فللوين قوين في كاتدرائية الخرطوم قائلاً: «إن إيمانه بالدين المسيحي كان سر حياته ونجاح عمله»، وليس هنا أحد ممن عرفوه سيعترض على حكم صديقه.

لم يكن قرار نيوبولد للالتحاق بخدمة السودان السياسية في عام ١٩٢٠م نابعاً من المثل التي ألهمته لاحقاً. كان تواقاً للمغامرة ومفتوناً بالصحراء. لم يستهوه أبداً الجانب الديواني في الخدمة المدنية، وقد كاد ان يستقيل أكثر من مرة عند وصوله للسودان، إلا أن نقله من النهود في غرب كردفان، والتي لم ترق له أبداً، الى سودري على مشارف الصحراء الليبية الجنوبية وفّر له مزيداً من الحرية وخلفية توافق مزاجه.

عند وصول نيوبولد للسودان في صيف عام ١٩٢٠م أوشك عصر الأتوقراطية الأبوية - العصر الذهبي للحكام والمحكومين على حد سواء - على الانتهاء[١]. كانت البلاد على وشك أن تسلك الطريق الوعر المؤدي الى الحكم الذاتي، الطريق الذي بدأ المنظرون السياسيون رسم علامات استفهام حول كل معالمه المتعارفة.

لقد وصف نيوبولد شمال السودان العربي، والذي قضى فيه كل سنوات خدمته، في محاضرة مطبوعة في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وذلك الجزء من السودان يغطي ثلثي مساحة السودان الشمالية والذي توحّد جغرافياً ليس من قبيل الصدفة المحضة كما هو الحال في نيجيريا، إلا أنه مع ذلك كان نتيجة صدفة تاريخية لحد ما. لم يكن وادي النيل، جنوب خط العرض ١٢ معروفاً الى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، بينما كان الشمال منذ عام ١٠٠٠ قبل الميلاد مقر سلالات حكام نبتة ومروي الكوشية والتي غزا مؤسسوها مصر وفلسطين، ثم جاءت بعدهم الممالك المسيحية - دنقلا وسوبا، والتي أخرت الغزو العربي لأكثر من ألف عام. سقطت دنقلا في القرن الرابع عشر الميلادي، واندفع العرب جنوباً نحو مراعي كردفان وكسلا - غرب وشرق النيل - مبعدين السكان الأصليين النوبة جنوباً وحاصرين البجا في جبال البحر الأحمر. وبين النيل الأزرق والنيل الأبيض صمدت مملكة سوبا لمئتي سنة أخرى الى أن خضعت لائتلاف بين العرب وزنج الفونج من سفوح جبال الحبشة الذين أسسوا سلطنة سنار الزرقاء. صاحب حكم الفونج لفترة من الزمن نهضة تعليمية ورفاه، ولكن الحروب المتكررة مع الحبشة وسلطنة دارفور في الغرب أسفرت في القرن الثامن عشر عن حكم عسكري مستبد تبعته حروب أهلية قادت البلاد إلى حالة من الفوضى السياسية.

وعليه لم تجد جيوش محمد علي باشا، حاكم مصر الألباني الأصل، والتي غزت

(١) لقد نعى ذلك العصر أحد النقاد الأمريكيين، والذي لم يعرف عنه تميز في حبه للإنجليز - بيير كرابتس - في كتابه «اكتساب السودان» (روتلدج، ١٩٣٤م)، قائلاً: «في الحقيقة، من المشكوك فيه أن نجد أي خدمة مدنية في تاريخ العالم قد حققت درجة من الجدارة الفعلية والكفاية والنفع الذي تميزت به خدمة السودان الإنجليزي - المصري المدنية منذ ولادتها والى هذه اللحظة».

السودان عام ١٨٢١م مقاومة تذكر. كانت المناطق الشمالية تخضع اسمياً لسلطان سنار ولكن تسيطر عليها قبيلة الشايقية القوية. وكان وسط السودان يحكمه محمد عدلان وزير السلطان باسم السلطان الضعيف، والذي خرج منتصراً من معاركه مؤخراً ولكن الحروب الأهلية أنهكته. وكانت كردفان في الغرب تخضع لسلطان دارفور، بينما كانت قبائل الجنوب الوثنية تحتفظ بسيادتها. وقد تم للجيوش التركية - المصرية النصر على الجميع واحداً تلو الآخر، وقد تمكنت في الخمسين سنة التي تلت من توسيع حكمها جنوباً للبحيرات العظمى وشرقاً الى أرتريا. وأخيراً وفي سبعينات القرن التاسع عشر ميلادية حاربوا سلطان دارفور في سلطنته وهزموه.

ظل الحكم التركي قاسياً وظالماً رغم المجهودات الانسانية للخديوي اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) ومعاونيه من الأوروبيين، أمثال بيكر وغردون وجسي وآخرين. كما كانت محاولات محاربة تجارة الرقيق غير منتظمة وفاشلة، وكان المديرون ومساعدوهم يغتنون على حساب الشعب وخزينة الدولة، كما كان الانضباط العسكري في تدهور مستمر.

ساعدت جيوش تجار الرقيق الخاصة وحلفائهم من عرب البقارة في استمرار الحكومة لبعض الوقت، ولكن الدعم تلاشى عندما شرعت الحكومة في محاربة تجارة الرقيق بشكل جاد، ووصل عدم الرضى ذروته في عام ١٨٨١م عندما ثار محمد أحمد، أحد رجال الدين من نواحي النيل الأبيض، وادعى أنه المهدي المنتظر. وقد قادت الإخفاقات المتلاحقة بسبب انفراط النظام وسوء القيادة لسقوط الخرطوم عام ١٨٨٥م وموت الجنرال غردون الذي رجع للبلاد لإجلاء الحاميات.

في ذات الوقت اضطرت بريطانيا العظمى ودول أوروبية أخرى للتدخل في مصر نسبة لافلاس الخديوي وثورة عرابي باشا ضده والتي أخمدتها القوات البريطانية منفردة عندما رفضت فرنسا المساعدة في ذلك. وقد تبع احتلال بريطانيا لمصر لاحقاً تورط بريطانيا في محاولة فاشلة لإنقاذ غردون، ومن ثم أعيد تشكيل وتنظيم الجيش المصري وإعادة فتح السودان عام ١٨٩٨م بعد ثلاث عشرة سنة من سوء حكم خليفة المهدي - الخليفة عبدالله.

تمخضت إعادة فتح السودان بواسطة بريطانيا ومصر عن الاتفاقية الثنائية لعام ١٨٩٨م والتي أقامت نظاماً مشتركاً لحكم المنطقة المعاد فتحها. استمر النظام يعمل بطريقة مرضية طالما كانت بريطانيا تسيطر على شؤون مصر. ولكن بعد انسحاب بريطانيا من مصر عام ١٩٢٢م قاد ذلك سريعاً لمحاولة مصرية لطرد بريطانيا من السودان نهائياً عام ١٩٢٤م عن طريق تمرد عسكري[٢].

كانت تلك السحب التي تنذر بالعاصفة تتجمع أثناء خدمة نيوبولد الباكرة في كردفان، ولكن لا تلك المشاكل أو مشاكل الحكم المحلي الرئيسية ألقت بأي ظلال في سماء دار الكبابيش البعيدة. كان نيوبولد منغمساً في اهتماماته بالآثار والاستكشاف للصحارى بالإضافة للتعرف على أسلوب الحكم القبلي.

كان نيوبولد قانعاً مبدئياً بالحفر في المواقع القريبة من مقر رئاسته في سودري. وقد كشفت رسائله التي نشرت بعد وفاته مجلة «السودان في رسائل ومدونات» - المجلد ٢٦، الجزء الثاني - عن مطالعته الواسعة للمصادر الأولية الأدبية القديمة والنقوش وتتضمن تعريفاً مثيراً للانساب الانجيلية.

وأخيراً تمكن في سبتمبر ١٩٢٣م من الوصول لمناطق في الشمال لم تدون في خرائط في الماضي، وقد أرسل عند عودته تقريراً الى زميله وجاره من ناحية الغرب، مساعد مفتش مركز شمال دارفور، أ.ج. آركل:

الى أ.ج. آركل مساعد مفتش مركز شمال دارفور حمرة الشيخ - أكتوبر ١٩٢٣

«لقد غادرت خور الصنت يوم ٢٠ سبتمبر متوجهاً شمالاً الى الشرق قريباً من دائرة خط الطول ٢٧ درجة. وبعد خمسين ميلاً فوق الكثبان المتموجة وصلت، ويا للعجب لركن جبل ثجارو الجنوبي الغربي. وهو ليس تلاً صغيراً في خط عرض ١٧

(٢) لتفاصيل أكثر، أنظر «تقرير الشؤون العالمية» لعام ١٩٢٥م المجلد الأول: «العالم الاسلامي منذ إحلال السلام» آرنولد توينبي.

وخط طول ٢٧ كما توضحه الخرائط، وإنما هو جبل محترم من الحجر النوبي بامتداد ٨٠ ميلاً شمال جنوب و١٥ ميلاً شرق غرب. وقد تسلقت بارتفاع ٣٠٠ قدم من السهل قبل أن يبدأ الانحدار غرباً حيث أطفأت ظمأ إبلي في جلتي فيديرا يوم ٢٤ سبتمبر وهي بركة صخرية فوق الوادي بين التلال. أصبت يومها بضربة شمس خفيفة، ولكني واصلت اليوم الثاني إلى جلتي ماقيرنات التي تبعد عشرين ميلاً والتي تزخر أيضاً بالمياه. ساءت حالتي هنا ومكثت في فراشي أربعة أيام كنت أهذي من الحمى في أحدها. في اليوم الرابع شربنا آخر نقطة من المياه وعليه كان علينا أما أن نتقدم أو نبارح. واضطررت للنهوض وواصلنا سيرنا الى جبل عطرون على بعد ١٠٥ أميال ولم نجد به ماء. ولكننا وصلناه في سبعة شدات وكانت لدينا عشرة جالون من المياه متبقية. الطقس حار جداً والهبوب متواصلة من ناحية الشمال. على طول سفح جبل ثجارو وجدت كمية من الآنية الفخارية وحجارة شحذ ومدقات ولكنها لم تكن مثيرة ما عدا رأس طورية حديدية. في وادي هور التقطت خمسة رؤوس لفؤوس حجرية مصقولة وحادّة ولكنها غير مجلوة كمثيلاتها الأوروبية من العصر الحجري. حوالى خط عرض ١٦,٤٥ تلاشى العشب والنبات وحلت مكانهم الصحراء بتلالها الصخرية وكثبانها الغريبة الشكل ولكن عموماً بحبات رملها القاسية والمتساوية. كما وان العواصف الرملية الجهنمية التي تهب من الشمال لم تنقطع. وادي هور يمتد لمسافة تصل الى سبعة أميال أو تزيد، وهو منخفض عريض بدون ماء ولكن بأعداد كبيرة من الشجيرات ومختلف أنواع العشب - وحشد من النعام. ومن هنا الى وادي النطرون صحراء مرعبة لا حياة فيها، يحدها جبل راهب بتلاله المتشابكة والمكونة من الحجر الرملي من جهة يمين الوادي ولا شيء شماله. وفي ظلت حماد، على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوب الجنوب الغربي من وادي النطرون، وجدت صوراً صخرية منحوتة على صفحة الجبل تشبه الزراف والرجال والأبقار والأبقار الوحشية والغنم والأفيال[٣] وخلافه. وصلنا النطرون يوم ٤ أكتوبر ومكثنا فيه ثلاثة أيام. لم نشاهد أي عدو، أو

(٣) قطاع الطرق من قبيلة التبستي.

أي شيء آخر سوى أحواض الملح والهبوب ومياه الصحراء تغطي سطح الأرض في كل اتجاه.

غادرت النطرون يوم ٦ أكتوبر واقتفيت أثري عائداً الى وادي هور، ثم ملت الى الجهة الشرقية لجبل ثجارو، وامتطيت الجبل راكباً لمدة يومين على طول قمته الى جلتي أم تصاوير والتي تبعد حوالى خمسة أيام ونصف من النطرون، نسبة لأن خضيرة كانت مجدبة. لحسن الحظ وجدنا بجلتي أم تصاوير مياهاً وفيرة حيث ما كان معنا من ماء يكفي لمدة خمسة أيام فقط. هذه الجلتي تستحق الزيارة. إنها هُوّة عظيمة في الجبل بعمق حوالى تسعين قدماً، وتنشل المياه لأعلى المنحدر الشاهق. الصور الصخرية في كل الاتجاهات - (العرب يسمون كل الصور الصخرية التصاوير) لزراف ورجال وأبقار وخلافه. هنا ساءت حالتي مرة أخرى وكنت مريضاً على شكل متقطع لمدة عشرة أيام، في الواقع الى أمس، ولكني بخير الآن.

بمجرد أن أدركت أنني غير مدرك توجهت شرقاً حول المنحدرات الجنوبية لجبل ثجارو وشقيت طريقي الى وادي أبو سفيان والذي يشاع أن به آثاراً. ويقع هو على خط طول ٢٨ وحوالى ثلاثين ميلاً أبعد جنوباً من المكان التي تظهره الخرائط، ولا اعتقد شخصياً أن أي رجل أبيض قد زاره من قبل. كنا محظوظين لأن نجد مياهاً في بير مردومة وقد قمنا بحفرها. وقد وصلنا وكان معنا ما يكفي فقط ليوم واحد من المياه، وأقرب مياه أخرى كانت تبعد حوالى يومين ونصف جنوباً. مكثت هناك ثلاثة أيام ووجدت قبوراً كثيرة ومجموعتين من الصور الصخرية المثيرة جداً، كل منها حوالى ألف صورة للزراف والجمال والرجال والنعام وأشكال هندسية وخلافه، وكذلك الكثير من الآنية الفخارية. كذلك وجدت ثلاثة أو أربعة حيشان بجدران حجرية متداعية، وأهم من ذلك بكثير، وجدت هرماً حقيقياً! وهو مبني من الطوب الأحمر المحروق في شكل مدرجات، صغير ومتهدم - حوالى ٢٠ قدماً في ارتفاعه - ولكنه بدون شك هرم. وحوله كانت هناك حيشان حجرية وبقية من طوب البناء وأتون لحرق الطوب وقطع من مخلفات صهر المعادن. بوجه العموم اكتشاف لا بأس به.

من أبو سفيان حضرت رأساً الى هنا. لقد قطعت لتاريخه من بارا ثمانماية وسبعين ميلاً، وتبعد بارا من هنا مئتي ميل وعليه سأكون قد قطعت أكثر من ألف ميل. أنا جاري كتابة تقرير[٤] كامل بتفاصيل عن المخلّفات الأثرية وتوفير المياه وعلم طبقات الأرض (الجلوجيا) والأعشاب وخلافه».

❐❐❐

كانت رسائل نيوبولد الى آركل تعرج من علم الآثار للخوض في أمور الإدارة العادية، كان نيوبولد مسؤولاً عن قبيلة الكبابيش العربية في شمال كردفان، وكان آركل مسؤولاً عن قبيلة الميدوب في شمال دارفور - وهي قبيلة متخلفة تقطن الجبال ويعتقد نيوبولد أن أصلهم من التبو وقد نزحوا جنوباً من ليبيا بعدما طردهم الغازون الساميون الأوائل.

الى أ. ج. آركل ٢٣ أكتوبر ١٩٢٣

علي التوم اعطاني صورة معبّرة عن مجهوداتك، وآمل أن ينصاع جماعة منصور الى قيادة جامع[٥]. سألت علي التوم عن رأيه واخبرني ان جامع زعيم حقيقي لقبيلته وهو شخصياً معجب به جداً، ولكنه يعتقد أنه عاجز الآن للقيام بالمأمورية لأن السن تقدمت به. وأضاف أن الميدوب الآن كشفوا نفسهم للحكومة وفتحوا أبواب الجبل بسبب خلافاتهم الداخلية ولذلك سيكونون حذرين من أي انشقاق آخر وسيلتفون حول أي زعيم كان، ولكنه يرى أنهم لا يحسنون التدبير. أتمنى أن تجد الخلف المناسب ليحل محل جامع بعد وفاته. ورغماً عن كل أخطائه فإن جامعاً رجل بمعنى الكلمة. علي التوم معجب جداً بادارتك لأعمالك ويسميها «جبدة» في ما يتعلق بتعاملك مع الميدوب. بالنسبة للفرد العادي من الكبابيش والذين التقيت منهم عدداً في «الجِزو»

---

(٤) نشر هذا التقرير تحت عنوان «ملحمة صحراوية طولها ألف ميل».

(٥) على التوم ناظر قبيلة الكيبابيش - منصور - وجامع متنافسان على نظارة قبيلة الميدوب.

[المرعى الشتوي على حدود الصحراء] لم ألمس أي خلاف بينهم وبين الميدوب الآن أو في الماضي، سوى الحوادث التي اضطرتنا للاجتماع. تقريباً كل من تحدثت معه من الكبابيش كان له أصدقاء بين الميدوب وكان يزورهم كلما مروا بالجبل.

بالنسبة للكباشي المقتول فقد قابلت ابن أخيه، وهو نفسه رجل طاعن في السن، صدفة في الجزو. كنت مخطئاً في تحديد المكان وكنت اعتقد أنه على بعد ثلاثة أيام من جبل الميدوب ولكنه في الواقع على بعد يوم واحد. وقد تحصلت على تفاصيل أكثر، ولكنك ستقابل الرجل نفسه. علي التوم يعتقد انك أخرجت الجمل ليقتل عن قصد حتى لتتأكد، ويقول إن مكرك لا يصدّق. على العموم يبدو أن الأمر مؤكد، وبشهادة سليمان سيكون الحكم مقنع. وإذا لم تتمكن من اكتشاف القتلة هل في الإمكان الحصول من القبيلة على غرامة تساوي مبلغ الدية؟

بالمناسبة علي التوم من تلقاء نفسه أخبرني أنه يقدّر الفرق بين السرقة المتعمّدة واختلاس الحيوانات الضالة. كما قال أن عدداً من الكبابيش لا يرغبون في الرجوع لأحواض آبارهم المزدحمة ويفضلون التسكع في الجزو لمدد أطول مما يجب، وكثيراً من حيواناتهم تتأخر بسبب العطش أو تضل طريقها، وبالطبع فإن الميدوب سيأخذونها. أنا أوافق طالما يبلغ شيوخ الميدوب عن الحيوانات الضالة، فنحن لن نتهمهم بالسرقة. ولكن إذا احتفظوا بها فذلك يعتبر جريمة. علي التوم دائماً يقول لكل كباش يفقد حيواناته في أرض الميدوب فهو المخطئ، وفي أغلب الأحيان هي الحقيقة.

أوافقك في ما ذكرته عن قتل البقر الوحشي الجماعي. في رأيي بوجه العموم إن الحيوان اسطوري، ولكن بعض الناس لهم ولع شديد بالصيد، وأنا شخصياً أعتقد أن من مبادئ الإدارة الرئيسية الاهتمام بحماية الحيوانات الأليفة أكثر من حماية الحيوانات المتوحشة.

يمكنك الحصول على ٥٠ - ١٠٠ بندقية من الميدوب بإعطائهم الأمان. الأمان الذي قطعناه نحن للكبابيش اسفر عن حصولنا على ٥٠٠ بندقية العام الماضي. وقد قلت لعلي التوم إن عليه أن يضرب مثلاً لقبيلته. سألني إذا كنا سنطلب منه معرفة من

أين تحصل على البنادق. أجبته: «لا. أحضر البنادق وخمسين قرشاً عن كل بندقية وأنا أعطيك رخصة». ذهب الى خيمته (كان ذلك في حمرة الشيخ) وأعطى بعض الاوامر، حضر بعدها بعض الخدم يحملون ١٤ بندقية. لم أنطق بأي كلمة، حررت له الرخص وقبضت السبعة جنيهات. بعد مدة من الصمت قال لي: «هذه بنادقي، القبيلة ستُحضر بنادقها بمجرد أن ينتشر الخبر». وقد فعلوا أو على الأقل نسبة كبيرة منهم.

في ثاجرو الأسبوع الماضي سمعت إشاعة عن شجار نشب بين الكواهلة والزيادية والذي أسفر عن قتل أحد الزيادية. سألت علي التوم عنها وقال إنه لا يعلم شيئاً عنها، ولكنه يعلم أن الكواهلة والمجانيين وشيخ فضيلي ناظر الحمر والجخيصات كانوا في القوزين، ولا بد أن حدث شيء حيث فجأة رحلت القبائل الثلاث مع أن الفولة كانت مليئة بالماء. القوزين هي المنطقة التي تجتمع فيها قبيلة الزيادية مع قبيلتنا خلال سبتمبر وأكتوبر، ويبدو أن الوقت قد حان للكواهلة أن يرتكبوا جريمة قتل. وإذا ما فعلوا ذلك حقيقة فلن أرتاح قبل أن يشنق الجاني لأني في غاية الامتعاض منهم. ولكن قد يكون الخبر غير صحيح. لا بد أن يكون قد حصل شيء لأني سمعت أن شيخ فضل الله يرسل المراسيل لكل مكان بحثاً عني، ولكن لم يعرف أي إنسان مكاني. وقد أرسلت له ليحضر لمقابلتي في سودري، وإذا كان المقتول من الزيادية فسأفيدك.

أنا مدين لك لحسن تعاونك. وبما أننا قد اتفقنا على الطريقة التي ستعامل بها فلن تكون هناك مشاكل في المستقبل».

❑❑❑

الرسالتان أعلاه تمثلان نموذجاً لحياة مفتش المركز. في منطقة رعوية في الماضي وستظل في المستقبل. الأحوال الصحراوية لا تتغير.

في نهاية عام ١٩٢٣ تم نقله إلى السكرتارية في الخرطوم ووجد نفسه في جو غير ملائم بروتينه الحكومي والسياسي والدبلوماسي - جو لا يروق له إطلاقاً ومع ذلك فقد أظهر في ما بعد مقدرة أفضل من أولئك الذين يروق لهم ذلك الجو كما عقد

صداقات مع عدد من موظفي المكاتب ورجال التعليم والمدن كأولئك الذين تركهم في كثبان رمال كردفان أو تلال البجا.

كان نيوبولد في ذلك الوقت يعتبر كل المهمة مجرد «غسيل مواعين» مضجرة، ووجّه سخريته للجهاز البيروقراطي لرؤسائه، الشيء الذي لازم الجنود في حياتهم المدنية بعد الحرب.

وقد كتب في إحدى قصائده، بالرغم من تعليماتنا المتكررة، والمنشور رقم ثمانية وسبعين، قال الحكام:

«مندوبنا في الموقع فشل في تنويرنا بالأحداث

وعليه سنرسل لجنة خاصة من عظام الرجال

مفتش الضرائب التافه وصاحب المعالي مدير الملفات

سيقطعون سريعاً مئات الأميال بالصوالين ليصلوا للموقع

بجانبهم زوجاتهم لاعبات البريدج ليخففن عنهم وعثاء السفر

ومترجم سوري ليترجم لهم في حالة مقابلتهم أحد شيوخ القبائل».

لم يفقد نيوبولد كراهيته للروتين الحكومي أبداً، ولو أنه توقف بعد فترة من المقاومة من غير طائل. ومثل تمبل Temple في نيجيريا كان لا يطيق الأبهة. وكان الروتين المكتبي يضايقه.

«كَتَبَتِي يتحمسون بشدة لموضوع الرواتب والترقيات، ويعدون الجداول التي تبيّن كيف يترقّى مفتش المركز وما هي فرصه، والفاقد بسبب المرض أو الاستقالة أو خلافه، ويقدّمون الأرقام القياسية ومستويات التجنيد الأعلى وأشياء تجعلني أصيب بالغثيان لمجرد النظر اليها».

ساورته مرة أخرى فكرة الاستقالة وتكررت، فقد كان يرغب في التفرغ للاستكشاف ومزاولة علم الآثار، كما كان يحن للريف الانجليزي. ولكن بقيت له

سنتان ليقضيها في الخرطوم كانت مثيرة جداً حيث تزامنت مع محاولة مصر لطرد حكومة السودان بالقوة. كان نيوبولد عائداً من عطلته عندما اغتيل حاكم عام السودان السير لي ستاك في القاهرة عام ١٩٢٤. وقد كتب لوالدته:

إلى والدته القاهرة ٢٢/ ١١

وصلنا الاسكندرية مساء أمس بعد رحلة مضنية ووجدنا عدداً من السفن البحرية في الميناء، كما استولت البحرية على مصلحة الجمارك. لقد وصلنا قبل منتصف الليل بقليل، ونمت إلى الساعة العاشرة من صباح اليوم. كل شيء يبدو طبيعياً في الظاهر ولكن الجو مكهرب بعض الشيء. الجنود البريطانيون والعربات المصفحة تجوب الشوارع بشكل ملحوظ، كما كانت فرقة اسكتلندية تزحف خلال المدينة هذا الصباح، والجنرالات يسرعون بسياراتهم تصحبهم الدراجات النارية. قابلت عدداً من المسؤولين هذا الصباح من ضمنهم باردسلي (مدير النيل الأزرق لاحقاً) سكرتير ستاك الشخصي الذي نقل الدم لوريد ستاك. لقد مدّني بكل التفاصيل التي ربما قرأتيها في الصحف. جوك كامبل، ياور ستاك، والذي كان معه في السيارة، أيضاً أصيب برصاصة ويتماثل الآن للشفاء. لقد كانت عملية مدبرة. تجمع القتلة بالقرب من الطريق، وعند وصول السيارة أطلقوا النار على رجل الشرطة المكلّف بتنظيم السير وأيضاً سائق السيارة، ثم تسلقوا السيارة وأطلقوا النار على ستاك في رأسه وصدره وقدمه.

«المطالب البريطانية قاسية ولكنها ليست مفرطة إذا ما أخذ الانسان في الاعتبار أن هذا الفعل هو قمة لسلسلة من الأعمال الكيدية وإثارة الفتن».

❒❒❒

محاولة الثورة فشلت في الخرطوم بعد قمع تمرد إحدى الكتائب السودانية. نتيجة التعديلات التي طرأت نسبة للخلاف مع مصر زادت أعمال السكرتارية وجعلتها تطن كخلية النحل.

كانت تلك فترة سجلت نقطة تحول في تاريخ السودان وكسرت قوالب الوعي الوطني الباكرة الرخوة وأعادتها إلى القدر لتخرج منه في الوقت المناسب وطنية جديدة بأحزاب دينية مسيّسة ومتنازعة، المحافظين منهم بقيادة السيد علي الميرغني زعيم الطائفة الختمية القديمة الموالي، والذين هرب قادتهم مع الحكومة السابقة إلى المنفى عام ١٨٨٥م، ورجعوا لمناصب نفوذ مع الحكومة الجديدة. أما خصمه السيد عبدالرحمن المهدي الذي يعتبر اليوم الزعيم لأتباع أبيه المهدي الأكثر تعصباً في غرب السودان والذي سيصبح رئيساً لحزب سياسي وطني تقدمي وسط المثقفين.

وبمرور السنوات شجع تحرير مستعمرات أخرى السودانيين ليأملوا في نهاية الحكم الثنائي بأسلوب سلمي، وانشغل متعلمو السودان بأشكال الحكم التي ستأخذها الحكومة التي ستتبع. ينظر أتباع السيد عبد الرحمن كأمير أو ملك مستقبلي لسودان مستقل. أما أتباع السيد علي فكانوا يبحثون عن بديل ووجدوه في فكرة استقلال تحت التاج المصري. بالرغم من محاولة غير الطائفيين إيجاد صيغة لجمهورية أو حتى ملك مستورد إلا أن الخلاف شكّل عقبة كأداء تعذر معها الوصول إلى وحدة وطنية.

وقد حاول نيوبولد في ما بعد التغلّب على تلك العقبة. لم يذكر نيوبولد في خطاباته ومذكراته الا القليل عن ذلك الخلاف والذي قلّل من فرصته في أن ينجح كرائد للسودانيين، فهو لم يستخف أبداً بأهميته ولم يفشل في أخذه في الحسبان، ولكنه ربما شعر أن بإمكانه مساعدتهم أكثر بتعزيز نقاط وحدتهم وتفادي الاشارة غير اللازمة للخلاف الذي لن يستطيع سواهم من تسويته.

شهدت السنوات التي تلت عام ١٩٢٤م، ليس فقط تجدد ولادة الوطنية السودانية، وإنما أيضاً وفّرت لأول مرة الموارد الاقتصادية للاستقلال. ان اكتمال أعمال خزان سنار على النيل الأزرق وتدشين مشروع الجزيرة الزراعي قد حوّل السودان إلى دولة قد تتمكن يوماً من الاعتماد على نفسها وتمويل مشاريع خدماتها الاجتماعية ومشاريعها

التنموية من مواردها الذاتية دون الحاجة للقروض الأجنبية المرهقة.

يجمع العالم بأسره الآن (١٩٥٤م) أن مشروع الجزيرة قد ضرب مثلاً عملياً للتنمية الأفريقية غير المستغلة. فالبحوث والتجارب المتأنية قد سبقت ولازمت المشروع. وقامت الحكومة الشريك الأول بتوفير رأس المال، والشريك الثاني - شركة أقطان الجزيرة - وفرت الاشراف والإدارة والتسويق نسبة لمهارتها وخبرتها وتجربتها، أما الشريك الثالث فكان المزارع بجهده.

يندر أن تخلو أي مؤسسة تجارية من أي عيوب كما كان الحال في مشروع الجزيرة. ومع ذلك فقد كان هناك العديد من الإداريين من ضمنهم نيوبولد، الذين أبدوا تخوفاً من أن حقوق المواطنين ستخضع لحقوق حملة الأسهم. وقد وجد نيوبولد تخوفه مبرراً مستقبلاً من كسلا كما سنرى فإن تجربته هناك عمّقت تخوفه الأساسي تجاه المشروع وتجاه التنمية الاقتصادية لجبال النوبة في كردفان.

لم تكن أفكار نيوبولد في ذلك الوقت قد نضجت تماماً. كان قلبه ما زال متعلقاً بالمناطق الصحراوية، كما كان هاجسه الأساسي هو مغادرة الخرطوم لمركز أشبه ما يكون بشمال كردفان. وكان نقله الفوري لمركز جنوب كسلا برئاستها في القضارف. وقد وصفها ووصف شعوره عنها في خطاب لوالدته:



إلى والدته　　　　　　　　　　　　الخرطوم ١٧ فبراير ١٩٢٥م

جنوب كسلا منطقة واسعة ومركز تجاري وتحد أثيوبيا وتكاد تكون أكبر مركز في شمال السودان. وأشبه لشمال كردفان بالنسبة للإدارة حيث سيعمل تحتي مفتشو مراكز. ولكن بها زراعة قطن كثيرة وتنمية. ومعي أربعة أو خمسة إنجليز محترمين ولا يجب عليّ التذمّر إلا أني أحاول أن أنقل إلى مركز البحر الأحمر للعرب الرحّل ورئاسته في سنكات على خط السكك الحديدية بين الخرطوم وبورتسودان فوق جبال البحر

الأحمر، وهي بلا شك أكثر بقعة صحية في السودان. «هم» - يقصد الإدارة - خلقوا هذا المركز حديثاً وجمعوا فيه كل القبائل الرعوية من عدة مديريات، وميزتها أن رئاسته من جهة متحضرة على خط السكة حديد، بمنازل جيدة وطقس مثالي ومناظر جبلية خلابة، ولكن بدون أسواق أو صخب أو عمل مكتبي، فقط ساحة كبيرة بقبائل رحّل ممتدة إلى الحدود المصرية التي تبعد نحو ثلاثمائة ميل.

الإدارة الأهلية كانت ترغب في تجميع كافة قبائل بجا البحر الأحمر تحت إدارة واحدة والقبائل الرئيسية أربع وهم: (البني عامر) الارترية، وهو لم يكن معني بادارتهم، ومن المحتمل أن البشاريين الذين يرعون إبلاً مشهورة ويمتدون إلى صعيد مصر، هم الأشهر. أما القبيلة المعروفة أكثر للمسافرين فهم الأمرار الذين يعملون حمّالين في ميناء بورتسودان. ولكن أهم قبيلة في نظر السودان فهم الهدندوة، أتباع عثمان دقنة الذي هزم المربع الحربي للجيش الانجليزي المشهور في واقعة التامي عام ١٨٨٣م. وهم قد استوطنوا منذ فجر التاريخ نحو ١٠٠٠٠٠ ميل مربع بين البحر الاحمر والنيل ونهر أتبرة. إن عدم اهتمامهم بالبحر أو الزراعة، ومعيشتهم في مجموعات صغيرة في أودية جبلية صغيرة ومناطق نائية وعزلتهم عن العالم، مكنتهم من البقاء دون تأثير من ارتقاء أو انحطاط الحضارات من حولهم.

ولكن التغيير باغتهم، حيث يملك الهدندوة دلتا القاش والتي تنتج أجود أنواع القطن الأطول تيلة في العالم. كان هذا الجزء من أرضهم ما زال يدار بواسطة مفتش مركز كسلا، ولكن نيوبولد اكتشف أن مصالح مفتش مركز سنكات في تلك المنطقة أساسية، وأن القطن سيلعب دوراً أهم في حياته مما كان عليه الحال في القضارف. إن حرصه على مصالح الهدندوة الاقتصادية وحقوقهم أسفر عن تحامل من جانبه ضد شركات القطن لم يتخلص منه إلا بعد زمن طويل، ولكن في نفس الوقت ولّد فيه الاهتمام بمصلحة السودانيين والاستجابة العاطفية نحوهم والتي لذلك الوقت كان يحتفظ بها للصحراء.

كان نيوبولد ينظر إلى فترة خدمته في سنكات في ما بعد كأسعد أيام حياته، ولكن في بداية عهده بها كان قلقاً كما هو دأبه، مخصصاً عطلاته لاستكشاف الصحارى وتراوده الرغبة بجدية إلى السفر إلى سمرقند.

كان رفيقه في رحلاته الصحراوية هو و. ب. كندي - شو الموظف بمصلحة الغابات والذي شاركه في الهواية والحماس، والذي حسده في ما بعد عندما عينه الأخير كمرشد ومؤرخ لفرقة الصحراء بعيدة المدى ضد رومل.

أخذ الاثنان عطلة في شتاء ١٩٢٧ - ١٩٢٨م وغادروا سودري للبحث عن واحة زرزور المفقودة. وقد فشلوا في العثور عليها حيث اتضح أنها أسطورة ولكنهم سجلوا ما أنجزوه في مجلة السودان في رسائل ومدونات عام ١٩٢٨م.

في ذات الوقت كانت حياة نيوبولد كمفتش مركز تسبّب له الضجر أحياناً.

كتب كندي - شو:

«من الصعب تقييم حالة الاشمئزاز التي كان يشعر بها نيوبولد نحو السودان في ذلك الوقت وفي أوقات أخرى. لقد صحبته في رحلة عام ١٩٢٦م من سنكات إلى دورديب، وكنا نتحدث كثيراً عن خططنا للتقاعد والعمل بالزراعة في انجلترا. أعتقد أن شعوره كان مزيجاً من الضيق بالحرارة والضجر من رؤسائه وحبه العميق للريف الإنجليزي. لم يكن حبه حب المزارع الريفي وإنما حب المؤرخ والعالم وخبير الآثار الذي كان يشعر أن جذوره مغروسة في الريف الانجليزي عموماً. لقد تلاشى ذلك الشعور في ما بعد، ولكن حينها كان قوياً جداً».

وهذا الشعور ينعكس في خطاب كتبه خلال رحلة في جبال البحر الأحمر.



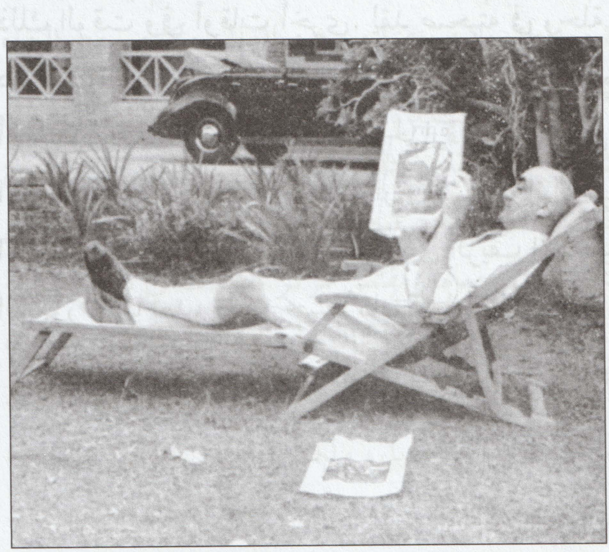
نيوبولد في رحلة استكشافية في الصحراء الليبية مع كندي - شوٍ وبعض الأعراب. والصورة تبين نيوبولد حاملاً قطتين خلويتين حديثتي الولادة سبق أن قتل الأعراب أمهما. عام ١٩٢٧.



نيوبولد كمفتش مركز منطقة البجا عام ١٩٢٩.



نيوبولد كمدير لمديرية كردفان كان يحضر تجمعاً لقبيلة الحمر في النهود عام ١٩٣٦.



نيوبولد يخلد للراحة بعض الوقت في حديقة منزله بالخرطوم عام ١٩٤٣.

or an after-life. We shan't get a Brave New World founded on 'rights' but on 'duty'. I am a bit alarmed by the continual stress on the 'right' of every man or woman to a vote, to a subsistence wage, to free education for their children. No one is born with a 'right', or automatically acquires a 'right'. One must earn a 'right'. No man can demand anything justly from society unless he is prepared to give something to society, which so many people aren't doing. Old Marcus Aurelius put it all in a nutshell

"What more dost thou want when thou hast done a man a service? Art thou not content that thou hast done something conformable to thy nature? & dost thou seek to be paid for it just as if the eye demanded a recompense for seeing, or the feet for walking?" Cf Robert Louis Stevenson —
"Our world must return some day to the word Duty & be done with the word reward. There are no rewards & plenty duties: & the sooner a man sees that & acts upon it like a gentleman or a fine old barbarian the better for himself."

This doesn't mean that it is good to be poor or hungry. There is enough money & goods & food in Britain, if properly distributed, for all old people & children to be fed & clothed & housed, who cannot work. But I'm sure we must get rid of undue profits, careerism, political expediency, ephemeral diplomacy, privilege, snobbery &c, rather than aim first at giving the poor & submerged access to property, higher education, political power etc. We must first find out what is good & decent for man to own & aspire to & then make that accessible to all. Merely to broaden the basis of snobbish property, privilege, & public schools is not a solution, & may merely increase the evil.

صورة فوتوغرافية مصغرة لخط نيوبولد من خطاب منه إلى باري سليفان بتاريخ ٢٥/١/١٩٤٣.

إلى و.ب. كندي - شو

في يوم من الأيام، في وادٍ من الوديان - سبتمبر ١٩٢٨ «تمكنت من القيام برحلة أخيراً بعد أن قضيت وقتاً مملاً أجادل فيه شيوخ القبائل بخصوص ضريبة القطعان. لكني سأهدئ أعصابي لأرد على بعض رسائلك. لقد اتفقنا، كما تذكر، أن مصائب السودان جميعها سببها حرارة طقسه الدائمة، لكن الآن يبدو أن ساعة الانتقام قد حانت. فقد عانيت في الثلاث ليالٍ الماضية الأمرين من البرد. كان طريقنا بعد مغادرتنا لسنكات بيومين يمر عبر قمة مستجمع مياه النيل - والبحر الأحمر، حوالى ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقد انخفضت درجة الحرارة في الليلة الأولى إلى ٤٦ درجة فهرنهايت (٨ درجات مئوية). لا داعي أن أذكر لك أنني لم أستحم، كما وأني أنام متدثراً بالملابس الداخلية الصوفية وبقلنسوة من الشعر.

كانت المقالة عن القرية التي أرسلتها لي جيدة. هل كانت هي قرية «تفونت»؟ من كتبها؟ لقد اكتشفت للتو ما يلي في كتابات رالف لويس ستيفنسن (وهو ما ينطبق على الهدندوة كما ينطبق على «تفونت»): «لا حزمة قوانين ولا حوافر فرقة من الخيل، أو أعقاب المسدسات تستطيع تغيير مثقال ذرة من أفكار الفلاح. لا يملك الريفيون الذين يعيشون في الخلاء أفكاراً كثيرة، ولكن على قدر ما يملكون من أفكار فهي نبتات قوية تزهر أكثر في حالة الضيق. إن من عاش طويلاً يتصبب عرقه من كدح الظهيرة أو تحت نجوم الليل، ويتردد على الجبال والغابات كأي عجوز ريفي مستقيم، يتمتّع في آخر المطاف بصلة حميمة مع قوات الكون وعلاقة عامرة مع بارئه». لقد اكتشفت كثيراً من الدرر في كتاب الجيب لرالف لويس ستيفنسن ما لم أعرفه من قبل».

❐❐❐

إلى و. ب. كندي - شو في مكان حار أثناء الرحلة ١١ سبتمبر ١٩٢٨

«أرسلت أحد أفراد الشرطة ليحضر لي خطابك بتاريخ ٣١ أغسطس من القطار

في انقواتيري أمس، حيث وجدت نفسي في منطقة كريهة تبعد ثمانية أميال من محطة انقواتيري وفجأة تذكرت أن قطار كسلا سوف يمر ذلك العصر حاملاً بريدي إلى قوز رجب.

هذه آخر رحلة قمت بها. كانت درجة الحرارة أمس ١١٠ درجات في خيمتي بين الساعة الواحدة والساعة الخامسة ظهراً، وأمس كانت ١٠٨ درجات، وعندما ذهبت إلى فراشي بعد العشاء كانت ٩٦ درجة. والآن هي ١٠١ درجة في الساعة التاسعة صباحاً، وعند الظهر قد ينفجر ميزان الحرارة. لقد تعرّضت لثلاث عواصف رملية وعاصفتين ماطرتين خلال الأيام الأربعة الماضية تسببت في تحطيم رافدة خيمتي. ليس هناك ظل أو ماء بين هذا المكان وقوز رجب والتي تبعد مسيرة ثلاثة أيام. بطانتي، والتي تتزاحم حول شجيرة تنتصب وحيدة على بُعد خمسين ياردا، تتكون من خادمين وسايسين وأربعة رجال شرطة وعمدة وخادمه ورجل عجوز كان يركب جملاً تكسو جلده القروح وقد لازمنا عدة أيام، ولا يتكلم العربية ولا نعرف من هو أو ماذا يريد. يعتقد العمدة أن الرجل الخرف يظن اننا في طريقنا الى قوز رجب لنمنحه مساحة كبيرة تنتج قطناً جيداً. على أي حال خُرج مائه يرشح وقد يموت قبل أن نصل قوز رجب.

هذه الحرارة تثير أعصابي. أنا لا أطيق مركزاً خريفه ليس جيداً، الهبوب تضرب الخيمة بقوة وتبعثر طعامي، ثم تقطر مطراً دافئاً حوالى الساعة ثم تتوقف ويصبح الطقس أحرّ مما كان. متوسط هطول الأمطار في هذا المركز حوالى ثلاث بوصات سنوياً. لقد قمت برحلتي الرابعة الآن إلى تيبلول، والتي توصف في التقارير الرسمية انها سلة غذاء منطقة الهندندوة ومرعاها. حوال ٦٠ في المئة من مساحتها عبارة عن صحراء مفروشة بالحصى وخالية من أي شجر أو ورقة عشب. واذا هطلت الأمطار فيها لقرن كامل ستصبح الحجارة مبتلة وحارة بدلاً من جافة وحارة. و٣٩ في المئة من مساحتها الأخرى عبارة عن كثبان رملية ناعمة جداً وأيضاً بدون أي خضرة. أما الواحد في المائة المتبقية من مساحتها فعادة يغطيها الجراد مما يتعذّر معرفة إذا كان تحته حبوب أم عشب. هناك بئران فقط بمياه مستديمة في مساحة ٨٠٠٠ ميل مربع

وليس هناك أي ظل. وهي حارة للغاية صيفاً، وحارة جداً خريفاً وحارة نوعاً ما شتاءً. الأمرار والبشاريون والشكرية والهدندوة والرشايدة وحوالى خمسين قبيلة من شاكلتهم كلهم يدّعون ملكيتهم لمساحات شاسعة منها، وكل قبيلة لها تسميتها الخاصة بمناطقها، لا وجود ظاهرياً لبشر يذكر، الأشياء الوحيدة الحية هي النعام والجراد والقطا (دجاج رملي). اعتقد ان النعام يأكل الجراد والجراد يأكل فضلات النعام والدجاج الرملي يأكل الرمل.

جمالي لم تقم بأي عمل لمدة خمسة شهور، ولكنها هزيلة ونتنة. ومع ذلك فإن أدروب سايس ممتاز. هذه المفارقة كثيراً ما تحدث في السودان. قبل كذا يوم هرولت بفرس لمدة ثلاث ساعات في سهل مكشوف. كنت أظنّ أنني قطعت مسافة خمسة عشر ميلاً أو على الأقل اثني عشر، ولكن الخارطة المكتظة بنقاط مثلثة، ولذلك مضبوطة، تقول المساحة فقط تسعة أميال. أعدت القياس عدة مرات وضبطت الزمن ولكن النتيجة كانت واحدة. الخلاصة أني هرولت (أ) خمسة عشر ميلاً و(ب) تسعة أميال في نفس الوقت. انها مثل قصة الهدندوي الذي قال: «أنا لم أسرق الجمل. عندما سرقت الجمل لم يكن هو هذا الجمل. على أي حال هو سرق جملي. وإذا سرق كل منا جمل الآخر فالجمال المسروقة ليست هي هذه الجمال. الحكومة محيرة».

أو مثل الهدندوي الذي تغيب عن جلسة محكمة أراضي طوكر، ووكيله قال: «هو شوية مش موجود». ليس مستغرباً أن أشيعيا قال: «الويل لأثيوبيا».

الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً ودرجة الحرارة ١٠٥ مع رياح كريهة والشمس عمودية. رجال الشرطة والعمال يربضون في كتلة تتصبب عرقاً ورأس كل واحد منهم تحت إبط الآخر، تحت شجيرة التنضب الوحيدة، وأعلى التنضب يقبع ثلاثة صقور. الأفق محجوب بضباب الحرارة، وعلى البعد المتوسط يركب رجل هرم حماراً أعرج يمشي بميلان عبر المنطقة. قد يكون يبحث عن حمارة حبلى. وهناك دبوران أصفران كبيران يتعانقان على شفة زمزميتي ويطنان بنشوة. كان الطباخ يعذب بهمة فاترة شيئاً

أشبه بقطعة جلد على نار مشتعلة من روث البهائم وسيقان الذرة - هذا يعني انني بدلاً من أن أتغذّي بكستيليتة الماعز مع ماء الفولة الدافئ، سأتغذّى بقطع من لحم الماعز مع ماء الفولة الدافئ. استلقى صبي السايس على ظهره وبدأ يهرش جسمه، ظهر جمل مقيد بشكال ولكنه جائع، يحجل بشكاله ببطء نحو الهواية (سرج يوضع عليه المتاع) مركزاً بصره على قش بردعتها.

ارتفعت الحرارة الساعة الحادية عشرة وربع إلى ١٠٨ درجات. ليس هناك أي نسمة هواء. لا يمكنني النوم لأنني سأتصبب عرقاً. كل ما لدي للقراءة هو:

أ) تقويم السودان (Sudan Almanac).

ب) قانون عقوبات السودان.

جـ) عربي السودان - لريتشارد هل.

د) مصحف قرآن.

هـ) ملف عن العشور.

و) ملف عن قطن القاش.

ز) قائمة لصغار مشايخ الهندندودة الميئتين مع متأخرات الضرائب على كل منهم.

كذلك نسختان من صحيفة التايمز اللندنية، وروايتان قرأتهما مرتين. كما وأن روحي قد بلغت الحلقوم بالنسبة لشؤون القبائل. لن أستمر في هذا العمل إلا إذا منحوني راتباً يبلغ ١٠٠٠٠ استرليني في العام، وخصصوا لي قصراً ريفياً في سسكس (Sussex) - مقاطعة جنوب شرق إنجلترا - تنتشر في أرجائه الينابيع الدائمة، وتكسوا ميادينه العشب الأخضر اليانع، ومزود بميدان للعبة الأسكواش وآخر مبلّط للعبة التنس، وبستان كبير يزخر بتفاح كوكس اللذيذ، وغابة زان، ومسطبة جنوبية مرصوفة بالحجر اللوحي يتمشى فيها الطاووس وسياجها من خشب الصنوبر. ومكتبة كبيرة مكسوة جدرانها بالخشب وبمقاعد وثيرة، ومصطلى (مدفأة) كبير تحرق فيه الأخشاب.

وفتحات في الجدران تتسع لبراميل البيرة وعصير التفاح المخمّر. وبالعدم فإني أفضل أن أُعيّن نائباً لمدير حلفا، أو أي وظيفة محترمة أخرى مستقرّة، حيث يمكن للمرء أن يمشي يومياً من منزله المحصّن ضد الهبوب، والمضاء كهربائياً، والمزوّد بثلاجة، إلى مكتبه المحصّن أيضاً ضد الهبوب والمضاء كهربائياً والمزوّد بثلاجة، والذي يقدم لي فيه الكتبة السوريون الذين يتحدثون اللغة الإنجليزية ملفات مكتوبة بالإنجليزي من وقت لآخر لأمهرها بتوقيعي. أتمنى أن لا يقع بصري أبداً على جمل مرة أخرى إلا في حالة إدلائي بشهادتي أمام المجلس الذي يمنحني علاوة على حيواناتي الثمانية النتنة. أنا لست مهموماً بنجاح الإدارة الأهلية في مديريتي أو في أي إدارة مباشرة أخرى، كل ما أنشده هو الهدوء والسكينة، وطعاماً طيباً، ونوماً عميقاً وطويلاً ودائماً. ولا يهمني إذا زاد وزني، في الواقع أفضل للإنسان أن يزيد وزنه في شبابه حتى لا يقلق مستقبلاً. على العموم أعتقد بأن وظيفة مساعد لمدير المخازن والمهمات قد تكون أفضل وظيفة، ليست هناك وظيفة أكثر استقراراً، ويحتمل أن يكون سكنه في أحد منازل ضباط الجيش السابقين في الخرطوم بحري بحديقة كبيرة مزروعة فيها البامية واللوبياء والباذنجان وبمواسير قائمة في كل نواحيها ونمليات ناموس على الأبواب الخلفية المؤدية لسكن الخدم.

الساعة الآن الثانية عشرة ظهراً ودرجة الحرارة بلغت ١١٠ درجات وتزداد حرارة. أعتقد بأنني لست في تيبلول وإنما في الجحيم. سيصيبني الجنون لا شك.

قوز رجب يوم ١٤ سبتمبر: لم أصب بالجنون ولكني كدت. وصلت هنا أمس مساء وتأخرت عن اللحاق بالبريد الصادر. وجدت في الاستراحة نسخة من مجلة «الشرق الأدنى» عدد فبراير والتي ذكرت بعض الشيء عن استكشافاتنا».

اتفق نيوبولد مع كندي - شو أن يقوموا برحلات استكشافية أخرى خلال ١٩٢٩م ولكن هزيمة الطليان للسنوسي حالت دون ذلك.

إلى و. ب. كندي – شو سنكات ٢ يوليو ١٩٢٩

«قد تكون قرأت عن استسلام قادة السنوسي الليبيين في التايمز بتاريخ ١٧ و١٩ يونيو. أنا أذكر عمر المختار والذي حاربنا عام ١٩١٥م. «صانعو المثلوجات» (Icecream) – يقصد الطليان – ينوون احتلال الكفرة وفتح تفاوض مع فرنسا بشأن حدود التبستي.

قد يكون لذلك مضاعفات، كما يقول السكرتير الإداري في ما يبدو، على رحلتنا الى واحة «واو» غرب الكفرة، ولا أدري إن كانت مضاعفات حسنة أو سيئة. على أي حال لا أعتقد ان التبستي سيميلون إلى قتلنا. من الأفضل لنا أن نشرع في الرحلة قبل أن يضع موسوليني حوافره في نايسربو.

لا جديد يذكر. كنت مشغولاً بالميزانيات وأتطلع الآن لعطلتي. المجلة الجغرافية أصبحت مملة».

اضطروا لإلغاء الرحلة، وفي عام ١٩٣٠ سافر إلى فلسطين في عطلته بصحبة البحباش ونجت التابع للفرقة العربية الشرقية، والذي اكتسب شهرة لاحقاً كرئيس للـChindits في بورما.

❒❒❒

إلى و. ب. كندي – شو القدس ٣ أغسطس ١٩٣٠

«أنا أحب هذه البلدة وأرغب في الخدمة فيها بالرغم من أهلها... سأكون سعيداً بأن أشغل منصب مساعد مدير الآثار هنا. وما زلت آمل في أن أكون مدير الآثار في حكومة السودان في يوم ما.

لقد مرّ بنا القطار على جبلين سبق لي أن أشتركت في هجوم شنته فرقة سلاح فرسان دورست فيهم. كنت سعيداً انني كنت في مقصورة درجة اولى، وفي نفس الوقت أشعر ان الوقت قد حان للدخول في مغامرة جديدة. لقد تقدم بي العمر وزاد وزني [كان

عمره ٣٥ عاماً] واصبحت أكثر بيروقراطية. منطقة شرق الأردن ستذكي الحماس ولكني أحتاج لشيء آخر يخفف وزني، مثل تبستي أو مدينة [اد] المفقودة».

❐❐❐

انطباعه الأولي عن دمشق لم يكن إيجابياً.

إلى و. ب. كندي – شو دمشق ٩ أغسطس ١٩٣٠

في طريقنا من عمان إلى ديرا بالسيارة عبر مناطق جميلة شمال شرقي الأردن – تزخر الوديان بالجداول وأشجار البلوط والدفلى (شجرة مزهرة سامّة – المترجم). قمنا بزيارة جرش إحدى المدن العشر الرومانية القديمة في شرق الأردن على مسافة حوالى عشرين ميلاً شمال عمان. كانت من أبدع الآثار التي شاهدتها في حياتي – مدينة رومانية مكتملة على صفحة تل وتحت سماء رزقاء لاشية فيها، ومصانة جيداً. فيها مسرحان ومعابد وساحة عامة مستديرة، وأروقة وابهية معمّدة. وطرق مرصوفة ومعمدة، وأينما تنظر ترى الأعمدة المرمرية البيضاء والبنية القائمة والأعمدة الواقعة، والفريز (نسيج صوفي غليظ) والقواصر (مثلثات في أعلى واجهات المباني) والعَتَبْ (حلية معمارية فوق وعلى جانبي الأبواب أو أي فتحة مربعة) من الطراز الأيوني أو الكورنيثي أو الدوري اليوناني القديم. وليس هناك مرشدين ولا ناس وأكواخ أهلية. وأنا لا أرغب في رؤية أي آثار رومانية أخرى حيث لن يكون هناك أجمل من هذه المدينة التي تبدو كما كانت نحو عام ٢٠٠ بعد الميلاد، مع مذابح نصبها الفيلق الثالث الروماني وبعض الأفراد، تعلوها أكوام من قطع الرخام المنحوتة المدببة لمنع السرقات.

بعد شرق الأردن بعربها البشوشين والمتفهمين لكل ما نقوله، وبشرطتها الجركسية، وموظفيها الذين يمتازون باللطافة ودماثة الخلق، وبمناظرها الخلابة، وصلنا دمشق وهي تقليد فطير لمدينة مرسيليا الفرنسية مما سبب لي ألماً في خاصرتي.

لقد وصلناها في أحرّ قطار ركبته في حياتي عبر منطقة تراكونيتيس (Trachonitis) البركانية - عبارة عن قفر كئيب بصخور سوداء. وقد عبرنا نهر الفاربار (Pharpar) والذي يختلف عن نهر النعمان حيث إنه نهير صغير بمياه طينية تسقي حقول الباذنجان.

لا يوجد فندق محترم هنا على الإطلاق، والذي حجزنا فيه وكان الأفضل عبارة عن نزل ضخم بعض غرفه بدون شبابيك والمكان كلّه غير صحّي. الموظفون حمقى وليست لديهم معلومات عن أي موضوع. الحمد لله أننا سنقضي هنا يوماً واحداً فقط. لم نشاهد أي شيء، ولا نرغب في مشاهدة أي شيء. البازارات كلها حديثة وقذرة وقبيحة ومسقوفة بالزنك المثبت على عوارض حديدية. وليس لديهم أي سلع شرقية حقيقية، فقط عطور للأفندية وخلافهم. المدينة تعج بالجنود، والأسلاك الشائكة تحيط بمحطة السكة الحديد، وأحد الميادين مكتظ بحوالى ثلاثين عربة مصفحة وعدد كبير من الشاحنات.

العملة غير مفهومة اطلاقاً لأنهم يسمون «القرش» «فرنكاً» ولكنهم يكتبون على العملة «قرشاً» وهو يساوي ٦/ ١ أو ٧/ ١ من القرش المصري. «الجنيه» يكتب «ليفر» ويسمونه «ليرة» (ولا علاقة له بالليرة الإيطالية)، ويساوي ٥/ ٣ البنس الإنكليزي. وقد وصلنا هنا نحمل عملة مصرية وفلسطينية فقط، وقد تعرضنا لمواقف غير كريمة مع سائقي عربات الأجرة. كنا ثماني جنسيات مختلفة نقوم بعمليات حسابية في قصاصات من الورق في وسط الميدان. وبعد أن تضلعنا في فهم العملة اللعينة اذا بزميلي ونجت يتهور ويحاول أن يشتري بنطال صوف. أعطوه سعراً لا علاقة له بأي شيء. واكتشفنا أنه بالقرش الذهبي. وقد سألناهم بلغات مختلفة «ما هو القرش الذهبي؟» وأخبرونا بلغات مختلفة «لا يوجد قرش ذهبي». ثم اتضح لنا أن القرش الذهبي عملة محددة القيمة ولكنه أسطوري وتستعمله المحلات التجارية الكبيرة كأساس لأسعارهم (مثل الروبية المعيارية) لأن العملة المحلية تتذبذب لأنها تدار من باريس وترتفع أو تنخفض قيمتها على حسب ما يقوله مستر تارديو لجمعية بوابي مونتمارتر المتحدة اليوم السابق.

في الفندق خمسون غرفة ومع ذلك أخذوا ساعة ونصف ليحضروا لي علبة ثقاب. ليس هناك وكالة سياحة - لاتوماس كوك أو خلافها. ذهبنا للمحطة مرتين لمحاولة حجز اسرّة للقسطنطينية ولم نجد سوى عامل تلفون مجنون برخصة والذي أحالنا إلى مسؤول غير معروف اسمه ولا يمكن الوصول إليه. ثم ذهبنا لمكتب المدير وعبّرنا عن استيائنا. وبعد ان تجمّع الموظفون بوجوههم الكالحة في مكتب أشبه بالعلبة الزجاجية، حاولوا أن يترجموا لنا ولأنفسهم عدداً من الأقوال التي لا تمتّ بصلة لموضوعنا، واستقر رأينا على:

أ - أن المدير أحمق.

ب _ أن وكيل المدير غبي.

جـ - لا أحد يعلم أين يمكننا أن نحجز أسرة للقسطنطينية.

د - لا أحد يعلم عن أي أحد سبق أن عمل ذلك.

هـ - ليس هناك تلفون في المحطة (يبدو أن عامل التلفون الذي رأيناه كان يتحدث إلى خالقه).

ثرنا عليهم ثم تركناهم. في ما بعد حضر لنا رجل قصير القامة يقوم بنظافة حمام الفندق الوحيد، وقال لنا بالعربي: «علمت أنكم تنوون الذهاب إلى اسطنبول. وكيل مدير الفندق لا يفقه شيئاً. يجب عليكم أن تبعثوا ببرقية الى تقاطع راياك لناظر المحطة ليحجز لكم الأسرّة. أكتبوا البرقية بالإنجليزي وسأقوم بترجمتها بالفرنساوي وإرسالها». ولذلك تحسنت الأمور.

ذهبنا إلى السينما مساء أمس وكان الفيلم المعروض يحكي عن أمير من دولة بوسط أوروبا خيالية (يشبه ولي العهد الألماني) كان يهدّد بحرق قرية استولى عليها إذا لم تمكنه فتاة يهودية جميلة من نفسها. غالب المتفرجين كانوا أفندية مع عدد قليل من الضباط الأتراك، وكانوا مستمتعين بالفيلم للنهاية عندما أقلع الأمير عن نياته الشريرة وطبع على جبين الفتاة قبلة بريئة فقط - لا حول ولا قوة إلا بالله!

أنا أرتعد كلما أفكر في كيف سيكون الحال في القطار للقسطنطينية لمدة سبعة أيام، ولكننا سنستجم هناك. إذا كان لدي مال لأخذت الطائرة من بيروت.

❐❐❐

كان نيوبولد يناقش في ديسمبر احتمال رحلة استكشافية للربع الخالي في جنوب شرقي الجزيرة العربية، ولكن اهتمامه بالآثار المحلية ظل قوياً، وقد جمع معلومات وفيرة عن قدامى سكان جبال البحر الأحمر وقدمها إلى علماء آثار متخصصين. وقد كتب من أرياب في الطرف الغربي من الجبال عن بعض الاستكشافات:

إلى و. ب. كندي – شو　　　　أرياب ٥ ديسمبر ١٩٣٠

أمس في راواي – شمال مسمار – وجدت أجمل مجموعة من الرسومات الصخرية التي شاهدتها في شرق السودان، أكثر من ألف رسمة، ولكن التقارير ذكرت «بعض الرسومات البدائية لرجال وحيوانات منقوشة على الحجارة». لقد كانت مقسمة بوضوح لمجموعات ثلاث:

أ- صور لابقار فقط، معالجه بالألوان في النقوش.

ب- صور لرجال ونعام وجمال وسيوف وخناجر، معالجة نوعاً ما بالألوان ولكن نقوشها مصفرة وبعضها مرسوم فوق الصور أعلاه.

جـ- صور حديثة جداً (رسمت خلال الثلاثين سنة الماضية). تقليد غير جيد للجمال من الأمرار، منها ٦ بيضاء وألوانها زاهية.

❐❐❐

إلى و. ب. كندي – شو　　　　كسلا، ديسمبر ١٩٣٠

عسكرنا في مختلف الخيران بارتفاع أكثر من ٣٥٠٠ قدم، وقد تسلقت ممراً على

ارتفاع ٥٠٠ قدم يقود إلى مضيق يرتفع إلى ٦٠٠ قدم يأخذ البنو عامر أبقارهم للمرعى فيه باستمرار. أبقارهم متعودة على تسلق الجبال مثل الوعول الجبلية. كل المنطقة مخضّرة بكثافة وكثيرة القطر، وأكثر اخضراراً من أركويت في أجمل حالاتها، حيث رذاذ البحر العالق يستمر لمدة شهرين ونصف. وجدت فيها أزهاراً وشجيرات عديدة مذهلة. والممر الحصوي يأخذ ثلاث ساعات لتسلقه. إنها أعلى بكثير من منحدر «كيتي وكولكيلاي» (ممران يقودان لتلك المنطقة). ويكثر فيها السوسن وأنواع مختلفة من العشب ونبتة «الغار» (نبات ذو زهر أزرق فاتح يعتبر رمزاً للاخلاص والصداقة - المترجم)، و«حشيشة ست الحسن» الضخمة الحجم، ونبتة عنب الثعلب بزهرتها الحمراء أو الصفراء المتوهجة.

ثم نزلت إلى شاطىء البحر وقمت باستكشاف جزيرتين: «با هدور» - عقيق القديمة - بأحواضها المقطوعة من الأحجار المرجانية وهي في غاية الجمال، يحتمل أن تكون من العهد البطليموسي أو الصائبي (اليمني القديم - المترجم)، مع أفرع واقواس تمتد نحو ٢٠ إلى ٤٠ قدماً من العمق أشبه بالمغارات (ربما كانت المستودعات التي شيدها يوميدس من عقيق). ثم جزيرة آيري والتي فيها استحكامات، مثل عيداب، وزجاج وآنية فخارية، واحداً من مثل «كراك» وعيداب، وحيطان مبيضة واسقف مقوسة (مختلفة تماماً عن باهدور). الجزيرتان سبق أن وصفهم كروفوت (مدير التعليم في السودان ١٩١٤ - ١٩٢٦) في المجلة الجغرافية عدد مايو ١٩١١. وقد أسعدني أن وجدت ٢٠ قطعة من الخرز أو كسار الخرز في آيري، وكانوا غير مصقولين مثل ما وجد في عيداب، ولكني لم أجد أي أسورة. الزجاج والفخار والخرز الذي وجدناه في آيري يبدو أنه أقدم من الموجود في عيداب، ولكن من الصعب برهان ذلك.

أنا سعيد باستكشافي هاتين الجزيرتين وقد وصلتها بسمبوك وهما قريبتان من الشاطىء. وكانا آخر آثار في منطقة البجا في السودان التي لم أزورها. أتعشّم أن تتاح لي الفرصة لاستكشاف ما هو موجود في ارتريا.

ركز نيوبولد اهتمامه مرة أخرى على الصحراء الليبية عندما احتل الطليان الكفرة وادعائهم في ما بعد لمثلث العوينات في الركن الشمالي الغربي للسودان. وقام بإعداد مذكرة علمية ودقيقة للسكرتير الإداري عن تاريخ المنطقة منذ عام ١٨٥٠ موضحاً في خطابه التفسيري ما يلي:

«لقد قمت خلال عدد من السنوات بجمع كل ما هو متاح من معلومات عن السنوسي وحدود الكفرة مع التبستي، أولاً لأني كنت مهتماً بهذا الجزء من العالم منذ اشتراكي في العمليات ضد السنوسي عامي ١٩١٥و١٩١٦؛ وثانياً لأنني كنت أنوي منذ زمن للقيام برحلة استكشافية عبر التبستي إلى واحة «واو» غرب الكفرة.

وبما أن الطليان قد فتحوا واستكشفوا كل المنطقة، فإن الرحلة ستكون عديمة الجدوى ولذلك صرفت النظر عنها.

ولكني قمت بتلخيص كل المعلومات الخاصة بهذا الجزء من العالم، وبما أن الطليان يدعون ويطالبون بمساحات واسعة - ولو أنها عديمة الفائدة، من السودان، رأيت أن بعض أجزاء هذه المذكرة ستكون ذات فائدة لمكتبك.

لم أبادر بأي رأي عن الحدود لأن ذلك ليس من اختصاصي، وقد تكون هناك عوامل أجهلها. إن احتلال الكفرة وملاحقة «الزوايا» البائسين تبدو كأنها عملية سفك دماء لا مبرر لها».

كما كتب لاحقاً عن اعتقال وقتل الطليان لقائد السنوسي المشهور عمر المختار. يقول:

«أنا مسرور أن التايمز ودعته بمقالة افتتاحية. كان محارباً شجاعاً وأبلى بلاءً حسناً مثل عثمان دقنة والملا المجنون (قد يقصد قائد النضال الهندي عامي ١٨٩٧م-١٨٩٨م في الهند أو الآخر الصومالي عامي ١٩١٠م-١٩١١م - المترجم)».

كان القرعان يغيرون من مناطقهم في تبستي على المناطق النيلية منذ أيام هيرودوتس، وقد بدأوا في مزاولة نشاطهم مرة أخرى. وقد طلب من نيوبولد أن يدلي برأيه عن

أنجع السبل للتعامل معهم، وكان رده:

«ان تعقب القرعان المراوغين وسريعي الحركة في مناطق الغرب غير واضحة المعالم، بمدافع رشاشة أشبه بانطلاق سير لأنسلوت بفرسه وبكامل لباسه الحربي في تعقب بعوضة.

أنا متأكد من أن هناك طريقتين للتصدي لغارات القرعان:

أ- لا تقوموا بأي عمل. إن أي قرعاني يخاطر بالسير راكباً لمسافة خمسماية ميل عبر تلك الصحراء الكريهة يستحق أن يفوز بناقة سمينة، كما وأن نشاط الكبابش سيزيد نتيجة نوبات الخوف من وقت لآخر.

ب- اصرفوا للكبابش عشرين بندقية رمنغتون خلال موسم الغزو حتى تتمكن فرقة منهم للمطاردة الفورية حتى يصونوا شرفهم.

أنا أفضل عدم تدخل سلاح الطيران لأن ذلك سيشجع العدو كما حصل في وازرستان».

كان يخطط هو وكندي - شو والرائد بانفنولد والأستاذ سانوفورد من بين آخرين لرحلة أخرى لواحة زرزورة، وكانت تلك الرحلة بديلة لرحلة الربع الخالي والذي كتب عنها قائلاً:

«لم أعمل أي شيء بخصوصها ولا أنوي أن أعمل شيئاً - ليس لدي أي رغبة في الوقت الحاضر. عندما ننتهي من زيارة تبستي سأكون قد بلغت الأربعين ولن أتمكن من استكشاف مناطق جديدة. وإذا سمحت ظروفي فإني أرغب في الذهاب للشرق من صنعاء واستكشف سد مأرب وكل المناطق الأثرية غير المعروفة هناك».

ولكن مصيره حتم عدم قيامه بأي رحلات أخرى، لأنه لم يعد مفتشاً لمركز وانما أصبح نائباً لمدير مديرية ومنهمكاً أكثر في المشاغل الإدارية.

لقد بدأت قلاقل القاش قبل وصوله للمديرية، وقد كان انشغاله بها مبدئياً من

باب مناصرته للهدندوة الذين احتلوا المنطقة خلال القرن التاسع عشر واستغلوها لزراعة الحبوب. القاش عبارة عن سيل يبدأ من ارتريا ويدفق طميه الخصب فوق السهل الطيني شمال مدينة كسلا. لقد تمت زراعة القطن هناك بواسطة الحكومة التركية السابقة، وقد جعل فقر السودان زراعة القطن أمراً مرغوباً فيه للغاية كمصدر محتمل للدخل. تم منح امتياز لشركة اقطان كسلا مما سبّب سريعاً تضارب مصالح.

كان الهدندوة محاربين مشهورين، ولكنهم برهنوا على عدم كفاية كزراع. وكان يعيش بينهم في الدلتا بعض المستوطنين من القبائل النيلية لهم خبرة زراعية تمتد لقرون سابقة، كما وكانت هناك، بالقرب من كسلا، مستوطنة كبيرة من الوافدين من غرب أفريقيا، وربما كان أولئك أفضل زراع أفريقيا. بالطبع كانت الشركة تنوي إعطاء مساحات أكبر للمزارعين الاكفياء، وبالطبع أبدى مفتشو مراكز البجا اعتراضهم. لقد أضحت القضية صورة مصغرة من قضية فلسطين: هل تترك الأرض لتستقل ببطء وعدم كفاية لمصلحة أصحابها غير الراغبين؟ أم تمنح الأجانب الأكثر تقدماً والذين ستثمر جهودهم لمصلحة كافة البلاد بتوفيرهم الدخل المطلوب للخدمات الاجتماعية؟

إنها معضلة لم يوجد لها حل سلمي للآن. وقد جابه نيوبولد ذات المشكلة مرة أخرى في جبال النوبة بكردفان ومشاريع القطن بالجزيرة. من الصعب على الكثيرين أن يواجهوا الانعكاسات المحلية دون تخيير أو تناقض. وقد أظهر نيوبولد تحيّزه في قصيدة ساخرة يعكس فيها كيف «ترقى أحدهم ويدعى أحمد موسى من املاق طاحن إلى قمة الازدهار عندما وصل رجل ضخم في سيارة فورد».

عملت حكومة الخرطوم جل جهدها لايجاد حل وسط ولكن اختلاف الآراء كان عميقاً جداً. وفي النهاية حول امتياز الشركة لمشروع الجزيرة وكونت هيئة حكومية لتتولى إدارتها وأصبحت وريثة لمشكلاتها وأمانيها.

لم ينسَ الهدندوة الرجال الذين ساندوهم أبداً، ولكنهم لم يظهروا أي حماس لاستغلال فرصتهم، وكانوا مستعدين جداً لايجار أراضيهم لمنافسيهم. ولاغرائهم

لزراعة قطنهم بأنفسهم استلزم عناء أكبر تمت خلاله صداقة متينة بين نيوبولد وفرانك كوتريل موظف مصلحة الغابات المنتدب لهيئة القاش.

كتب نيوبولد إلى كوتريل بعد نقله إلى كردفان:

«لقد منحوني وسام الأمبراطورية البريطانية وبعث لي الحاكم العام مفي والسكرتير الإداري ماكمايكل برسالتين في غاية اللطف يهنئوني بمنحي الوسام ويذكرون انه مكافأة لي لخدمتي للهدندوة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن بعض الفضل يرجع لك أنت، لأنني بدون مساعدتك لما استطعت عمل أي شيء مع هدندوة القاش.

لا يمكنني قطع الوسام لنصفين لأرسل لك جزءاً منه، ولو أن الأوسمة، وخصوصاً وسام الامبراطورية البريطانية شيء ممتاز إلا أنه لك كما هو لي وقد ذكرت ذلك للناس. لك جزيل شكري لكل ما قدمته لي من مساعدة. ومع أني كنت أجادلك دائماً وأحياناً بفظاظة إلا أني كنت دوماً أتذكر ما تقوله لي. وقد قال لي الناظر إذا ما نقلونا أنا وأنت من المنطقة فهو يفضل الموت».

تطلب الكفاح إعادة تشكيل وظائف القبائل بعشائرها المتناثرة وأيضاً للتخلي عن التقاليد القبلية. أشبه مثال لذلك هو أن نتخيل الحكومة الإنجليزية، بعد واقعة كلودن (التي هزم فيها الإنجليز جيوش الاسكتلنديين عام ١٧٤٦- المترجم) تحاول أن تقنع سكان المرتفعات الاسكتلندية من الاستقرار والعمل في زراعة الخضر في ستراثمور (مقاطعة في شمال اسكتلندا). ومن خلال ذلك الكفاح وجد نيوبولد العمل الذي يشبع رغباته ويكرس له حياته. إن حلمه باغتناء منزل صغير في الريف الإنجليزي لازمه طول حياته، ولكن نداء الصحراء سبقه نداء خدمة سكان الصحراء. ومثل داوتي ولورنس وعدد كبير من الإنجليز، فقد وقع نيوبولد في حب «سالم وسليم وسليمان» (أسماء للقبائل العربية من سلالة اسماعيل في قصيدة كتبها جـ. ن. فري عام ١٩٣٥م في كتابه «أبناء اسماعيل». (القصيدة في المجلد الثاني من هذا الكتاب - المترجم).

وعندما غادر نيوبولد كسلا مترقياً مديراً لمديرية كردفان، كتب لكبيري مساعديه، نوح عبدالله، والذي أصبح في ما بعد عضواً في المجلس الاستشاري لشمال السودان، وعلي أبو سن، الذي أصبح لاحقاً مفتش مركز لشمال دارفور:

«أشكركما لحفلات الوداع التي أقمتماها لي. لقد حزنت لفراقي لمنطقة البجا، ولكني مسرور أنكما ستبقيان لمواصلة العمل لإسعاد قبائل البجا.

العالم لا يقف بدون حراك، ونحن الموظفين نأتي ونبارح كقطرات المطر في الخريف.

إن قبائل البجا قد وجدت في جبال البحر الأحمر منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة، وسيظلون هناك إلى يوم القيامة.

ربما ينسوننا سريعاً، ولكن إذا ما استطعنا بقدر متواضع من زيادة سعادتهم ووقفنا سداً منيعاً بينهم وبين محن الفقر والمرض والاضطهاد، فيمكننا أن نغادر بقلب سعيد.

أنتما وشيخ محمد الأمين (ناظر البجا) كنتم كبار مساعدي وأيضاً أصدقائي، وأنا مدين لكم لصداقتكم الشخصية ولعملكم الرسمي.

أسأل الله أن يبارك فيكم وفي أسركم إلى الأبد».

ولكنهم لم ينسوه. من بين أوراقه، بعد مماته، وجد خطاب قصير من عمد الهدندوة في القاش، كتب بعد عشر سنوات، عندما بدأ الكفاح الاخير في الصحراء الغربية:

❐❐❐

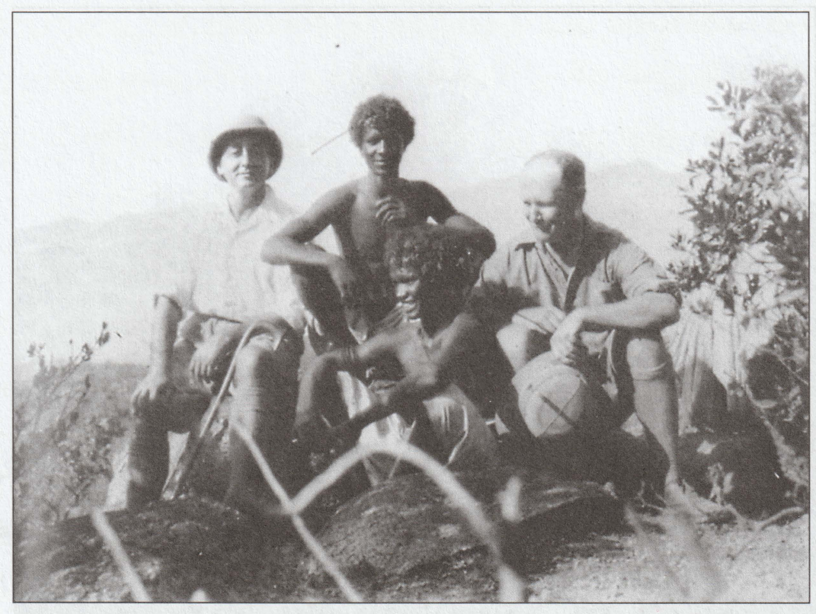
عزيزي المستر نيوبولد ٤ يونيو ١٩٤٢

اجتاحتني موجة من ذكرى الأيام التي قضيتها في منطقتنا والرحلات التي شاركنا فيها معاً مما اضطرني لكتابة هذا الخطاب. تلك الأيام لم تنسها قبيلتي ولم أنسها أنا. نحن نذكرك دوماً، وفي سمرنا دائماً ما نذكر الأيام الخوالي. ونحن في شوق للقياك ونسأل الله أن يجمعنا بك مرة أخرى.

من هنا الجميع كباراً وصغاراً يقرونك السلام ويسألون الله أن يطول عمرك ويمنحك النصر المؤزر.

تلقى شيوخ الهدندوة في سنكات خبر وفاته في مارس ١٩٤٥م بحزن شخصي عميق. كانوا يعتبرونه أحدهم بشكل خاص، وتفهموا الحقيقة وراء الكلمات التي نقشت على النصب التذكاري الذي يطل على المدينة من الجبال بالقرب من منزله:

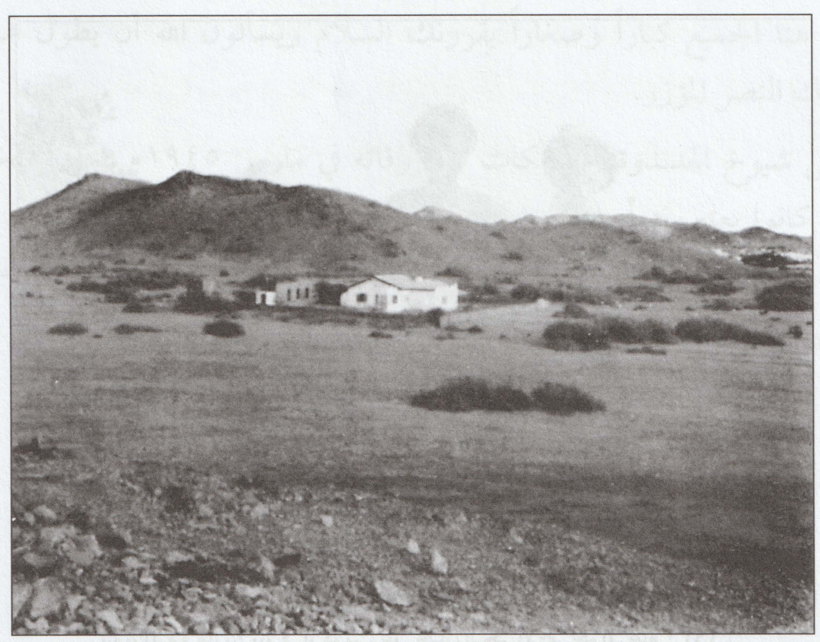
«لقد أحب هذه الجبال وأحب أهلها».



نيوبولد مع مارتن بار في اركويت على جبال البحر الاحمر حوالى عام ١٩٣٠.



بعض افراد قبيلة الهدندوة.



منزل نيوبولد في سنكات. الصورة ملتقطة من النصب التذكاري.



النصب التذكاري الذي نصب عند وفاة نيوبولد بالقرب من منزله.

الفصل الثالث

كردفان - تولّي الإدارة
١٩٣٢ - ١٩٣٥م

تقع مديرية كردفان عبر طريق الحجيج من غرب أفريقيا إلى مكة (المكرمة)، وبين مملكة سنار القديمة على النيل الأزرق وسلطنة دارفور الغربية والتي خضعت لحكومة السودان عام ١٩١٦م، وقد كانت لقرون مسرحاً للحروب بين تلك القوى المتنافسة، ولقرون سبقتها كان النوباويون يتجولون عبرها إلى أن اضطرهم العرب الغزاة للتقهقر جنوباً. ومن الصحراء إلى الجنوب تمتد منطقة تكسوها كثبان الرمال المتداعية والمثبتة بأشجار الهشاب وعشب الحسكنيت، وتتخللها سهول طينية عريضة مرصعة بأشجار التبلدي الضخمة في الشمال، وتغطيها غابات الصمغ الأحمر الكثيفة في الجنوب، إلى أن تشارف خلجان ومستنقعات بحر العرب.

وجد النوباويون أخيراً ملاذاً في الركن الشمالي الغربي حتى مجموعة جبال سبق لأخلاط من بقايا شعوب أفريقية أن استوطنتها، وأعطوا اسمهم لتلك الجبال: «جبال النوبة» - ويلز السودان، (ويلز مقاطعة جبلية غرب المملكة المتحدة - المترجم).

عُيِّن نيوبولد وهو في الثامنة والثلاثين من عمره مديراً لمديرية كردفان، وقد حظي بفرصة عظيمة لدراسة متطلبات مديريته على مهل وتفصيل تام قبل أن يضع الخطوط العريضة لسياسته. ويبدو أن المسح السريع الذي أجراه سابقاً في شمال وغرب كردفان المعروفة له أقنعه بأن المشاكل ونوعية البشر هناك لا تختلف عما كانت عليه دائماً وأبداً. كانت سياسة «الحكم غير المباشر»، و«تفويض السلطة»، و«الحكم الأهلي» وقتها، ما

زالت هي مبادئ سياسة الحكم الاستعماري التي لا يرقى إليها الشك. كان مفتشو المراكز يعملون بصبر لتجميع الوحدات الصغيرة للحكم المحلي التي كانت تدار مركزياً خلال الثلاثين عاماً التي سبقت، في اتحادات كبيرة تتمكّن من إدارة شؤونها المالية بنفسها. وبتشجيعه لتلك السياسة كان نيوبولد واعياً جداً للمخاطر التي أسفرت لاحقاً عن عدم الاحترام لنظرية الحكم عبر السلطات الاهلية، والمخاطر من تأييد المؤسسات التي اثبتت عدم جدواها، ومعارضة مثقفي المدن الذين، في آخر الأمر سيرثون السلطة الإدارية من الحكومة الأجنبية.

وقد حاول التصدي لذلك الخطر بحملة لتوسيع وسائل التعليم في المناطق الريفية، ولمحاولة خلق طبقة محلية متعلمة بأمل أن تتعاون مع نظام الحكم الوراثي القائم. أما بالنسبة لغالبية سكان الريف فقد كان ذلك الحكم الوراثي هو البديل الوحيد المقبول لحكم مفتش المركز الأبوي غير المتطور.

وقد كانت لنيوبولد أفكار مسبقة للتعامل مع تلك المسائل - كما كان مساعدوه يحتاجون فقط للتشجيع وليس للتوجيه - انما واجهته في جبال النوبة مشكلات تتطلب دراسات مفصلة لتمكنه من تدشين سياسات محددة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد مهد له سلفه، المستر جيلان، الذي اصبح فيما بعد السير جيلان السكرتير الاداري، الطريق، إلى أن تحول اهتمامه الزائد بمستقبل جبال النوبة إلى محبة لسكانها أنفسهم.

وكما سبق ذكره، كانت هناك مجموعات من القبائل تختلف في لغاتها وألوانها ومظهرها وبنية أجسامها، ولكن الشجاعة والانضباط كانا القاسم المشترك بينهم جميعاً، الشيء الذي أكسبهم سمعة طيبة كمحاربين مرتزقة لعهود طويلة قبل الحكم الحالي. وهم وثنيون بمعتقدات متشابهة من الارواح المحلية التي تحمي جبالهم وتفرض تبني الفضيلة بين بعضهم البعض، ولكن نادراً ما تفرض أي قيود على ممارسات أعداءهم التقليديين أو على أفرادهم عندما يكونون خارج مناطقهم. غالب زعمائهم موهوبون بمقدرات خارقة لا يفقدوها طول حياتهم. وقد تسبب ذلك في أن يواجه مناصرو الحكم غير المباشر بخيارين: إما تعيين زعيم علماني (يُعرف محلياً

بكلب الحكومة)، أو منح سلطات جديدة، وأحياناً متعارضة، لزعيم ديني لا يمكن عزله ابداً.

كانت معظم الجبال خاضعة لعرب البقارة إما مباشرة أو بطريق غير مباشر، وذلك لاحتلالهم للسهول البينية خلال القرن التاسع عشر. لقد أتى البقارة للسودان من الغرب بعد رحلة في شكل دائرة واسعة عبر شمال أفريقيا وجنوباً من تونس إلى تشاد، مكتسبين عبر القرون مظهراً ولهجة مميزين، وقد تخلّوا عن إبلهم بعد توغلهم جنوب خط العرض ١٢. لقد تم تسميتهم «بقارة» - اصحاب الابقار - لتمييزهم من «الجمالة» - أصحاب الجمال -، كما يستعملون ثيرانهم للركوب وحمل المتاع كما كان يستعمل أباؤهم الجمال.

إن امتلاك البقارة للخيول وبعض البنادق البدائية مكنهم من طرد النوبة من السهول وأخذ من ضل منهم طريقه للجبال من رجال ونساء كرقيق. أضف لذلك فقد كانت هناك غارات دورية تشنها الجيوش للحصول على جنود (يدفعوهم أمام جيوشهم لتحصدهم مدفعية العدو)، وعلى المحظيات والخصي طوال فترة الحكم التركي السابق.

ولذلك فليس من المستغرب له أن نجد قاطني الجبل ميالين للقتال ومرتابين ورافضين بشدة أن ينزلوا من معاقلهم في الجبال. ولم تفلح الحكومة الجديدة في كسر مقاومتهم وكسب ثقتهم إلا بعد ثلاثين عاماً، ولم يكن في الإمكان في تلك الفترة تطوير التعليم أو تطوير الاقتصاد. كما اتضح أن المسيحية تعطي أملاً أكبر للتقدم من الإسلام. إن المسلم العصري المتعلم من أبناء أم درمان عرضه لاغفال خلفية الاسترقاق والاضطهاد هذه عندما ينتقد ما يعتبره محاولة غير مبررة لزرع كيان يسعى في مجتمع اسلامي كان بإمكانه استيعاب النوبة في جنس هجين مفيد.

كان يتوجب على نيوبولد أن يدرك خلفية هذه المشكلات عند رسمه لسياسات تنمية اقتصادية وخدمات اجتماعية جديدة لجبال النوبة. وما كان هو يشك ابداً في تفوق أخلاقية الدين المسيحي، ولكن التعليم التبشيري كان يتقاصر أحياناً عن مبادئه،

وتفسده الغيرة الطائفية. وقد اضطر نيوبولد ان يلفت نظر جماعة واحدة على الأقل «بضرورة تقديم المسيحية كدين محبة وليس كدين بغضاء». ان النظرية التي اقترحتها أوديت كيون في كتبها (أجنبي ينظر للسودان الانجليزي - المصري - ١٩٣٠) والتي تقول ان الشعوب البدائية يمكن تنميتها بالتعليم العلماني ويُترك لها حرية الاختيار بين فلسفة الأديان أو الفلسفة العلمانية، نظرية غير عملية، حيث البدائي لا يستطع العيش دون وازع ديني. ولكن نيوبولد كان يتحسس طريقه طول الوقت نحو توسيع نظام التعليم الحكومي في جبال النوبة ومحاولاً إيجاد حلول امشكلة تضارب الأديان بضم علماء المسلمين للحكومة في مسعى للوصول لموقف متسامح مشترك. كما كان يسعى في أيامه الأخيرة لتحقيق هدف مماثل - ايجاد حل لمشكلة الجنوب برمته. ولكن أليس من الممكن، بدلاً من دمج الجنوب في شمال افريقيا المسلم، ووسط أفريقيا المسيحي، أن يصبح الجنوب أرضية مشتركة للاثنين معاً تمكن السودان من أن يكون دولة محايدة، حاجزة ومانعة لأي حروب دينية مستقبلية؟

الواقعيون يجادلون بأن هذا منطق يوطوبي، ولكن بدون إيمان يصبح تغيير المواقع عديم الجدوى.

لم نعثر على خطابات كثيرة من نيوبولد عن تلك الفترة، ولكن الإحصاءات والمذكرات العديدة في يومياته عن التاريخ الحديث وعادات وديانات ومحاصيل وتجارة جبال النوبة تزامنت بشكل مناسب مع اتجاه تفكيره في زمن كان يجمع فيه المعلومات. بعد ذلك تتجه الاهتمامات والمواضيع معاً إلى ميدان السياسة والتنمية.

لقد وصل الى الابيض، رئاسة المديرية، يوم ٨ نوفمبر ١٩٣٢م بالطائرة.

❐❐❐

إلى والدته — الأبيض ١١ نوفمبر ١٩٣٢

«وجدت احتفالاً مبالغاً فيه من حرس الشرف وما شابه. تعيَّن عليَّ أن أمتطي جملاً من المطار، وبعد أن أصبت بالصمم من أصوات الأبواق والجوقة الموسيقية، كان لا

بد لي من مصافحة حوالى ثلاثين من الموظفين البريطانيين، وأكثر من ماية من الموظفين الوطنيين. لقد كان احتفالاً متعباً حقاً بعد رحلة جوية متعبة. لقد استيقظت عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً ولم يتسن لي تناول إفطاري قبل الساعة العاشرة والنصف.

على أي حال فقد استقريت في منزلي الجديد، والجميع هنا في غاية اللطف، وأنا سعيد جداً، وجاري في ترتيب الأثاث شيئاً فشيئاً. لست في حاجة لأي شيء إضافي. الطقس بارد باعتدال وجميل. كل شيء يبدو أكبر حجماً من كسلا وما زلت في حالة ارتباك. توجب عليَّ ان ألقي خطبة في كنيستنا بمناسبة يوم الهدنة هذا الصباح أمام حوالى ثلاثين من المصلين، وقد طالبوني بأن أطلب البركة في الختام وهذه لا يسمح أن يطلبها إلا القساوسة. على أي حال استعضنا عنها بكلمات مناسبة.

كان على نيوبولد أن يغادر للخرطوم فوراً للمشاركة في مؤتمر تعليمي. وقد كتب لوالدته ان غالب اللجان لا جدوى لها ولكن تلك كانت جيدة. وقد وافق المؤتمرون على سياسة غير مركزية وببناء خدمة محلية بتوسيع التعليم الأولي. كانت هناك في ذلك الوقت اثنتا عشرة مدرسة قرية في كل المديرية و١٤٠ خلوة معانة ومدرسة واحدة ابتدائية في الأبيض ومدرسة بنات وحيدة.

كما تقرر أيضاً تعيين مفتش تعليم لكل مديرية.

وعند عودته من الخرطوم إلى الأبيض قام بعدة زيارات افتتاحية للمراكز المختلفة بمناسبة تجمع قبائلها المعتاد، مثل تجمع قبيلة الحمر الثلاثي (كل ثلاثة سنوات) في النهود حيث التقى معارفه السابقين قبل عشر سنوات مضت. وقد ذكر:

«كان هناك ٤٠٠٠ جمالي و١٦٠٠ من الخيالة، وكلهم زحفوا أمامي، وكان علي أن ألقي خطبة وأركب جملاً. لقد كان عرضاً جميلاً وفي نظري حسن الترتيب».

لم تكن الرحلة إلى أبو زبد مماثلة في متعتها حيث: «اختلس أحد الزعماء الكبار مبلغاً من الحكومة، كما كان غير محبوب عند قبيلته، وفظاً وجشعاً، ولذلك اضطررت لفصله. كان هناك عدد من المتنافسين على وظيفته وكان يتعين عليَّ أن أذهب لهم

وأعقد مجلساً استغرق اربعة أيام».

كان الزوار مصدر ضياع لوقته وعمله، فقد وصله مرة قطار خاص فيه اربعون زائراً من أعضاء الغرفة التجارية، كما وصله أمير مقاطعة كاتسينا النيجيرية بزوجاته الثلاثة واقربائه الثمانية وخدمه الخمسة عشر في طريقهم الى الحج، وقد اضطر أن ينصب لهم خيمة كبيرة في حديقة منزله لايوائهم.

من يومياته تبرز رحلتان أكثر من الأخريات - احداهما لزيارة صديقه القديم السير علي التوم ناظر الكبابيش في شمال المديرية، والثانية في جنوب المديرية ليتعرف على رعاياه الجدد في جبال النوبة.

التقى نيوبولد علي التوم في معسكره القديم في حمرة الشيخ. كانت خيمة الشيخ منصوبة على قمة تل يطل على السهول الشمالية العارية من الأشجار وتتخللها تلال متفرقة تبعث السرور بارتفاعها للناظرين، بعد الرحلة المضنية شمالاً عبر كثبان رملية بشجيرات خفيفة.

❒❒❒

حمرة الشيخ ١٥ يناير ١٩٣٣

استقبلنا علي التوم وأسرته راكبين ومعهم ثلاثون فارساً، وسرنا ركوباً وسط طابورين مكونين من حوالى مائة حمّال. عرض عربي بسيط وجميل - الطبول والجمال والكلاب والخيل والخيم السوداء.

طغى الشيب على علي التوم ولكنه لم يفقد رشاقته أو سرعته وكان على أحسن حال. تناولنا اطراف الحديث معاً رأساً برأس لمدة ساعتين ونصف. ذكر لي أن العلاقة مع الهواوير جيدة، ومع الميدوب حسنه، ومع الكواهلة جيدة. رأيه في ناظر الكواهلة لم يكن حسناً ولكنه رفض أن يسبه أو يلعنه بل قال إنه لا يعرفه جيداً ولكنه يسمع أنه مثل كل أهله. أيضاً قال إن علاقة الكواهلة بالكبابيش الآن أحسن من أي وقت

مضى، وهناك تداخل أكثر. ذكر أن محمد سائح ناظر الميدوب (ابن جامع المذكور في الفصل الثاني) ممتاز وعنده نفوذ على اتباعه، وسرقات الميدوب قد انخفضت. ذكر أنه سامح نياما (زعيم الجبال الشمالية التي لم ينزح سكانها جنوباً) لاتهامه بالكذب. وعندما ذكرت له الورطة التي ستواجهنا عند موت نياما، علق قائلا إن النوبة يقطنون دار الكبابيش.

ثم تحول الحديث عن الإدارة الأهلية وتطورها، وشرحت له سياسة الحكومة بالنسبة للإدارة الاهلية في غرب كردفان وفي مركز بارا. استمع لي بانتباه وأدب، وأوعز لي أنه لم يتلقى مثل هذا الشرح من قبل. وأخبرني أن قبيلته تكره المقاعد والترابيز وكتب المحاكم وخلافه من متطلبات الإدارة الحديثة. وقد أخبرته أن ذلك هو من عوائد المجتمعات المستقرة.

وقد أصر على أن يستمر في ادارته بالطريقة التقليدية وتمنى أن لا توقف الحكومة دعمها له. وقال إنه لا يحتاج لتكريم اضافي (نياشين وأوسمة وخلافة) فقط أن تستمر الحكومة في دعمها له. اخبرته لا بد لنا من أن نلتقي في فترات متقاربة وقال بالطبع شرطاً، أن لا تكون زيارات خاصة أو نتيجة صدفة، وإنما يخطط لها، وقد وافقته على ذلك.

❐❐❐

حمرة الشيخ ١٦ يناير ١٩٣٣

تحادثت مع ناظر المدرسة الذي يخاف من الصحراء ولا شك هو يحتاج لحافز ليبقى هنا. قمت بدفع مبلغا له يزعم انه مساعدة لإيجار محل - في استطاعته الحصول على علاوة ترحيل من اكتوبر او نوفمبر من وإلى مقره. وظيفته مدرجة في ميزانية الحكومة وعلي التوم يساهم بمبلغ ٤٨ جنيهاً. كما أن الطلبة يحتاجون لخيمة جديدة.

ذهبت لتناول الغذاء مع علي التوم وتناولنا طعاماً شهياً مكوناً من دجاج ولحم

ضان وبصل ونوعاً من الكسترد، كله نظيف ومستساغ. تحادثنا عن نفوذ المرأة - قال إنه شيء خطأ ولا يوجد على أي حال.

أما عن قضايا القتل داخل قبيلة الكبابيش فقد فوضت شارلس دي بنصون مساعد مفتش المركز من سودري والذي يجب علي أن أتذكر لاعطائه التعليمات مكتوبة) ليُسمح لعلي التوم البت في القضايا الطبيعية للنزاع القبلي بدفع الدية بدون عقوبة سجن على شرط:

أ- أن يكون الفريقان من قبيلة الكبابيش.

ب- أن يكون الضحية ليس من الأرقاء.

ج- أن الموت ليس نتيجة قتل عمد.

د- علي التوم يحرر تقريراً شاملاً عن الحادث بأسماء الطرفين وملخص عن القضية ويرسل وكيلاً موثوقاً به حتى نستجوبه.

نمت في الصحراء لمدة ساعتين جنوب الآبار التي قمت بتفتيشها.

كان مشهد الزيارة الثانية مختلفاً جداً. هناك ايضاً سهل ولكنه مغطى بغابات كثيفة، كما كانت الجبال تحتل مكان الصدارة بحجاراتها القرانيتية العارية التي تبرز فوق المدرجات المزروعة وأكواخ أهل الجبال المتلاصقة مثل خلايا النحل.



إلى والدته تلودي، جبال النوبة، ١٥ مارس ١٩٣٣

قمت برحلة ممتعة منذ أن غادرت الأبيض قبل أسبوع وشاهدت تجمعين قبليين ممتازين كل منهم حوالى ٦٠٠٠ فرد من النوبة. كانت هناك عروض وألعاب رياضية ومصارعة ورقصات أهلية وخلافه. الطقس هنا في غاية الحرارة - ١١٥ درجة في الظل أمس، إنما منظر الجبال جميل. المواضيع الرئيسية موضوع النقاش في المركزين - تلودي وكادوقلي - هي: المبشرين والقطن المطري ومحاصيل زراعية اخرى (السمسم

والفول السوداني والتبغ) وتربية الخنازير. منسوب الأمطار هنا حوالى ٣٥ بوصة وهو ضعف ما هو الحال في الأبيض.

اليوم نسافر شمالاً، وغداً بعد ان نتفقد مركزاً تبشيرياً، نترك السيارات ونرتحل لمدة أسبوع على ظهور البغال حول بعض الجبال لنتفقد النوبة العراة في مأواهم. إنهم قوم بأجسام مكتملة، وثنيون وأشكالهم وحشية نوعاً ما.

❐❐❐

كان نيوبولد يرجو أن تساعده الرحلة في اتخاذ قرار بشأن عدد من المشاريع المزمع القيام بها لتساعد في تجميع عدد من الوحدات القبلية وإعادة ترسيم الحدود الإدارية. وقد كانت أولى زيارته إلى جبال أوتورو.

«هي جبال مكتظة بالسكان ومدرجاتها الزراعية في غاية الروعة، وبها مخازن غلال ومنازل. ويملكون عدداً قليلاً من البنادق، والقضايا المقدمة للمحاكم قليلة. الملك راتبه ثمانية جنيهات في العام ويساعده أربعة مرتبهم خمسون قرشاً. إنها تكلفة زهيدة لإدارة ٣٠,٠٠٠ نسمة... قبيلة الأوتورو قتلت بغال نورثكوت (مفتش المركز) وأكلتها، وادعت أنها توهمت أن البغال هي أبقار وحشية غبرا، علماً بأن البغال كانت بلجامها.

ثم واصلت رحلتي إلى جبال تيرا التي يمتهن سكانها السرقة منذ فجر التاريخ. وقد اصطدموا مع قوات الحكومة عام ١٩٢١م ومرتين عام ١٩٢٢م وبعدها أجبروا على النزول من قمم جبالهم للسهل. ولكنهم عادوا مرة أخرى بعد سنوات قليلة وكان لا بد من اتخاذ إجراءات حيالهم في الأعوام ١٩٢٥ و١٩٢٩ و١٩٣٠م. إن نزوعهم للسرقة كان بتشجيع «سبر» (طقوس دينية) تقوم فيه العذراوات بلطم صدر السارق بنهودهن العارية، وهذا يشجع السارق للتباهي بسرقته بينما يشعر الآخرون بالخزي ويذهبون ليسرقوا».

وقد سجل في مذكراته الحاجة لابتكار وسيلة أفضل لإرسال المؤن لشفخانه مجاورة ولإرسال كمية من الحبوب، خصماً من تعويضات ستاك (التعويض الذي دفعته الحكومة المصرية مقابل قتل السير لي ستاك عام ١٩٢٤م والذي يصرف على أعمال خيرية) لمساعدة المسنين من سكان عبري لحين حصادهم المقبل.

أدناه وصف لاحتفالات الحصاد في أندونا:

«الصويبة» - مخزن غلال صغير على شكل برج - يبلغ ارتفاعها عشر أقدام وقطرها أربع أقدام، مبنية من الطين وعليها رسومات هندسية على الجص وبحزام أسود أعلى البرج يطلى بالرصاص، وتملأ بالحبوب. يتسلّق صبيان أعلى الصويبة ممسكان بالقائمتين الخلفيتين لخنزير حيّ مخصص للطقوس والشعائر، ورأسه إلى أسفل ليتمكن من أكل الحبوب ثم يسلماه إلى آخرين ليحملوه حول الصويبة وضاربين بظهره على جنبات الصويبة كل خطوة وهم ينشدون. ويقودهم رجل يحمل سنبلة كبيرة من الذرة وفرع شجرة وحوافر خنزير على عصا. ثم يقومون بعد ذلك بقطع رأس الخنزير على طاسة ويرشّون دمه على حائط الصويبة. ثم يقوم الصبيان اللذان أعلى الصويبة بحمل الخنزير من قائمتيه الخلفيتين لينزف دمه على الحزام العلوي للصويبة، ثم يرمونه على الأرض حيث يبدأ الأطفال الصغار بضرب جثته. ثم تغرس السنبلة والعصا وفرع الشجرة في الحبوب أعلى البرج. وبعدها ينصرف الجميع».

يسجل نيوبولد في مذكراته «أن الكجور - السحرة والمستمطرين - في الجبال الشرقية، في غالب الأحيان لا أهمية كبيرة لهم، وليس لديهم نفوذ تنفيذي، وليسوا عناصر فاعلة في الإدارة، ولا يمكنهم إزعاج الإدارة كما هو الحال في الجبال الغربية. وإن وظيفتهم تنحصر في صد الجراد والاستمطار وإحداث الجنون لبعض الناس. وفي جبال أوتورو وتيرا فليس لهم أهمية تذكر، ولكنهم سحرة والناس يحتاجون لهم».

في خطابه التالي إلى كندي - شو (الذي رجع لتوه من منطقة القرعان ومشغول بالاستكشاف في تل الدويران في فلسطين) يرجع نيوبولد مرة اخرى إلى موضوع استكشاف الصحراء.

إلى كندي - شو ٣١ مار ١٩٣٣

لقد صرفت النظر نهائياً عن الصحراء الليبية، وأفضل لك أن تواصل نشر ما توصلنا له من نتائج... «فلان» لا يستطيع أو لا يرغب في إعطاء أي خلفية لما يكتبه. هو يتمتع بلمسة ميداس معكوسة، كل ذهب يلمسه يتحول إلى نفاية... أقترح أن تكتب مقالة عن جبل عوينات لمجلة العصور القديمة. بإمكانك كتابة عشرين صفحة بجانب الصور. إذا ما قمت بتقديم محاضرة في الجمعية الملكية الآسيوية لا بد أن تطلق لحيتك وتتعلم الألمانية. تقديم محاضرة هناك يعتبر إنجازاً علمياً على مستوى رفيع. هل أنت متأكد أنك لا تقصد وسط آسيا؟ على أي حال لا تتهرب منها. من الأفضل أن تلبس نظارة وتحمل ساعة جيب.

وقبل أن أنسى هل اطلعت على «أفريقيا الفرنسية» (صفحة ١٢٥، عدد فبراير ١٩٣٣) عن الحركة الفرنسية بقيادة الرائد باقنولد التابع لسلاح السنغال؟ يقولون في واحة تيغارا يقابل الناس الأقزام المجردين تماما من الذكاء، وأصابعهم تصنع العجب باليويو». بحق الجحيم ماذا يعني كل ذلك؟ وتستمر المجلة لتستشهد بمذكرة عن الحملة الليبية (الايطالية؟) وتشير إلى اجتماعاتك الودية مع رول ولورنزيني قائدي جيوش الطليان في كرن وفي منطقة بني شنقول عام ١٩٤١.

ثم عاد مرة أخرى إلى الجبال في ابريل.



إلى والدته الأبيض ٢٣ ابريل ١٩٧٣م

«لقد استمتعت بجولة بين النوبة وبدأت أن أعرفهم نوعاً ما. إنهم قوم مرحون، سود اللون ولكنهم ليسوا بزنوج، ووجوههم تدل على الذكاء. وأجسامهم قوية ويجيدون الدعابة وودودون، وفي غالب الأحيان يمشون عراة كما ولدتهم أمهاتهم. أطفالهم جذابون. نحن نحضر لنسائهم هدايا من الخرز الرخيص والملح الذي يستعملونه في

طهوهم. عددهم حوالي ٢٥٠,٠٠٠ وقد زرت نصفهم لتاريخه. أنا جاري تشجيع تربية الخنازير وقد أرسلنا لهم خنزيراً مالطياً على ظهر شاحنة، اسمه ادقار.

أنصحك بأن تبخري هذا الخطاب لأن كردفان مليئة بالأوبئة في هذا الوقت من السنة».

ثم رجع مرة أخرى في مايو إلى مجموعة جبال المورو، محاولاً ترتيب ضم مجموعات أخرى. وافق قسمان من مركز المورو على ترشيح نيوبولد أندبلو لرئاسة المجلس، وهو شاب لطيف وطويل ووالده كان الملك لغالب منطقة المورو الجديدة، ولكن الزعيم تورنيار من منطقة كين، وهو عجوز ومستقل برأيه وغريب الأطوار لم يوافق. وبعد تمنّع وفتور (سببه المرض والحسد والطمع في ما كنا نحمله على بغالنا) خفف من غلوائه، وأصبح ودوداً ووافق أن يشارك في المجلس مع اندبلو ويتعاون... وقد أهديته الكرسي السفري خاصتي وكان يرمقه بإعجاب.

في مقابلة مع المجموعة الثانية اضطر نيوبولد أن يوافق لإعادة تعيين مك كان معتقلاً في تلودي لعدم موافقته على رصف الشوارع، وعدم دفع الضرائب أو زراعة القطن. ومع ذلك فضلوه على آخر كان حليفاً للحكومة وعاقلاً وعادلاً. تلك الحادثتان كانتا مثالين للصبر غير المحدود ولذلك كان متطلباً لتحقيق تنفيذ سياسة بدون نسف الهدف. ولكنه كان أكثر توفيقاً في أم دورين حيث وافق الأربعة زعماء من قبول رئاسة العجوز توتو. وقد وصف تلك الرحلة لوالدته:



إلى والدته الأبيض ٢٥ مايو ١٩٧٣م

لقد قمت برحلة مهمة لجبال المورو جنوب جبال النوبة، أغلبها مشياً على الأقدام. وقد تسلقنا عدداً من الجبال حيث معظم القرى في أعلى الجبل، أحدهما كان على ارتفاع ٣٥٠٠ قدم مما جعلني أتصبّب عرقاً. هنا الناس بسطاء، وجذابون وغير معقدين وعراة. لديهم

مدرجات مزروعة بالحبوب والبصل والتبغ. ويربون الخنازير، ويسمنون بناتهم للزواج في أبراج صغيرة مبنية من الطين. وقد أهديناهم بعض الملح وعقود من الخرز الرخيص الذي يحبونه، وأسمعناهم موسيقى من الفونوغراف. كما يربون الدواجن وبعض الأبقار.

هطلت علينا أمطار غزيرة، ولم تكن الأمطار شمال هذه المنطقة غزيرة ولكنها كانت كافية أن تقضي على مرض الالتهاب السحائي الذي فتك بحوالى تسعين شخصاً في الأبيض. سكان الأبيض حوالى ٢٥٠٠٠ نسمة.

سأفقد ستة من مفتشي مراكز المديرية هذا الشتاء ولكن الجدد ممتازون.

❐❐❐

تبين المذكرات أدناه مدى اهتمامه بالخنازير:

أم جبرالله ١٧ مايو ١٩٣٣م

المنازل هنا جيدة بحيطان حجرية والطبقات السفلى حجارتها ضخمة. رأيت خنزيراً ضخماً وعرضت أن اشتريه مقابل عشر معزات إذا تمكنوا من إنزاله إلى أسفل الجبل، حتى أشحنه إلى تلودي. مفتش المركز (وردزورث) يفضل أن يكون تركيز تلودي والجبال الشرقية على تربية الخنازير المحلية، والجبال الغربية على تربية الخنازير المستوردة، لعمل مقارنة. سكان المورو مميزون وشعرهم لا تخطئه العين، ويبيضونه باللبن. هم طوال القامة أو أميل إلى الطول. وجوههم ذكية. لا هم وسيمون ولا بهم قبح وكذلك نساؤهم. كثيرو الأطفال ومفتولو العضلات وقليلو التقرح ولكنهم مصابون بتوسع الأوردة نسبة لتسلقهم الجبال. ولكن ليست لديهم أمراض أخرى تذكر. يملكون عدداً كبيراً من البنادق. أم جبرالله مشهورة بالعنف وحب القتال. ليس لها إدارة ولكنها على وشك.

❐❐❐

أم دورين ٢١ مايو ١٩٣٣م

الخنازير هنا ممتازة، يعلفونها بالحبوب، بعض ذكورها تخصى لتسمن أكثر (ليس للتوالد).

❐❐❐

أدناه ملخص لبعض خطاباته لوالدته:

إلى والدته الأبيض ٧ يوليو ١٩٣٣م

تلطف الطقس كثيراً، هنا نادراً ما تصل درجة الحرارة إلى ٩٧ درجة، وفي أحد الأيام كانت أقصى درجة هي ٨٧. الخضرة والعشب يغطيان كل مكان، وهو تغيير للأفضل.

هيو بوستد، قائد سلام الهجانة هنا، رجع من جبال إيفرست. لم يساعدهم الطقس ليتسلقوا اكثر من ٢٧,٠٠٠ قدم. كان لا بد له من الرجوع ولكن الآخرين سيحاولون مرة أخرى في سبتمبر.

لقد استقبلت ضيفي الثمانين هذا الأسبوع، وأتوقع أن يصل عدد ضيوفي إلى المئة قبل نهاية يوليو.

❐❐❐

إلى والدته الأبيض ٢٨ يوليو ١٩٣٣م

أمس سمعت دقات «بق بن» في اذاعة الـB.B.C وكذلك أخبار لعبة الكريكت ونشرة أخبار الساعة العاشرة هنا في الأبيض من أول جهاز راديو وصل هنا وصاحبه طبيب أسنان أرمني الجنسية.

❐❐❐

خطابه إلى كوتريل والذي كتبه على ظهر الباخرة وهو في طريق عودته من عطلته السنوية، عبارة عن مزيج من الانتقاد غير المسؤول والأفكار البناءة:

«لقد وعدتك أن أحرر لك خطاباً محترماً من الباخرة في طريق عودتي. لقد غادرنا مرسيليا امس، وباقي لنا ثمانية أيام من الرحلة والطقس لطيف، ولذلك سأبدأ.

سأتناول خطاباتك بالتسلسل كما يقول السكرتير الإداري:

خطابك بتاريخ ١٩ يناير:

لقد استمتعت بانطباعاتك عن الخرطوم.

طبعاً الخرطوم مكتظة بالبريطانيين أما الأهالي فهم مجرد دخلاء. الحاكم العام (مفي) شعر بذلك ولكنه عجز عن عمل اي شيء، (لماذا لا أدري). أعتقد نيروبي وسملا تشبهان الخرطوم، ولكني أعتقد أن القدس كانت ولا لاغوس أو أكرا تشبه الخرطوم. إن أسراب سيارات الأوستن الصغيرة التي تتجه إلى «دار الحرب» (مكاتب الحكومة بما فيها مبنى السكرتير الاداري) أشبه بأسراب النحل عندما تحط على مهبط الخلية، حتى نسبة الذكور من النحل ومن الموظفين تقريباً متساوية.

هناك ٧٠٠٠ خادم بدون عمل في سجلات مركز الخرطوم! ومئات من الأفندية عاطلين عن العمل، وهناك جيش من الحرفيين ممن تمدنوا من أهل الريف أيضاً بدون عمل، كما هناك مجموعة الموظفين المشاغبين الفضوليين.

لا يوجد علاج لهذه المشكلة. ولكن المرء لا يعجز عن إيجاد حلول للمشاكل المستعصية إذا ما رجع للمبدأ الأساسي: تخفيف تكاليف المعيشة، تخفيض الضرائب، واختيار الموظفين الأكفياء وترقيتهم استثنائياً، وعدم الحجر على الاستثمار الخاص أو شراء العقار، وعدم تباهي الحكام البريطانيين بالسلطة أو الثروة، وإنما بقوانين غير منفرة ومبنية على قرارات واضحة في المكاتب وحياة غير قابلة للإفساد خارج المكتب. وأهم من ذلك كله هو أن تكون عندنا الرغبة في تبني أهم بندين والأسراع في تطبيقهم:

أ- تبسيط وتحسين مستوى المدارس الابتدائية (ولحد ما كلية غردون أيضاً). أنا لن أدخل في تفاصيل، ولكن لدي خطط محددة لجعل التعليم المحلي أكثر واقعية، وآمل أن أضعها موضع التنفيذ في كردفان عام ١٩٣٤. لقد قمت بدراسة متعمقة لنظريات التربويين الأفارقة وتطبيقها ووجدت القليل منها مفيد وغالبها لا قيمة له. وقد قابلت بعض كبار موظفي هيئة التعليم والذين نوّروني كثيراً عن أساليب التعليم.

ب- ضم الأفندية مع الشيوخ وتوسيع الإدارة الأهلية حتى تشمل المتعلمين والفنيين. في الوقت الراهن هناك فجوة عظيمة بين الأفندية وزعماء القبائل ولا يرغب أي أحد في ردمها. من الواضح يجب علينا أن نزيل هذه الجفوة ونخفف من اختلاف هاتين المجموعتين: اختلاف في التعليم وفي الملبس، وفي المأكل، وفي المسكن، وفي وجهات النظر. يمكنهم أن يبدأوا بالتحاور بعضهم ببعض، وتحديد نقاط الالتقاء. حالياً هم مصدر نرفزة لبعضهم البعض فقط. أنا لا أؤمن بانحياز التعليم العام للزراعة أو الريف. أفضل كلمة «محلي». يجب علينا تعليم التلاميذ القراءة والكتابة والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والصحة على صعيد محلي وعلى صلة بالحاجة المحلية. ولكن لا يجب علينا أن نصر على أبناء الأفندية والتجار أن يتعلموا الزراعة، اللهم إلا في نطاق دروسهم عن الجغرافيا والاقتصاد، علماً أنهم يعرفون أكثر مما نعرف نحن عن زراعة الذرة وفقط خمسة أو عشرة في المائة من السكان يمتهنون زراعة القطن.

أنا لا أؤمن ولم أكن مؤمناً أبداً بمشروع (B) لضم قوة دفاع السودان مع الشرطة. سيولد ذلك قوة عسكرية موحدة لا تعطي فرصة لعمل نفر الشرطة العادي، وفي

ذات الوقت بوليسية تعوق العمل الحربي. ولكن قوة دفاع السودان يجب أن تكون أكثر مرونة.

أنا لا أعتقد أن تتبع مصلحة البيطرة إلى الزراعة. البيطريون والمساحون أقل كفاءة من بقية موظفي الحكومة ويحتاجون لمزيد من التفرد وليس العكس. في رأيي يجب ضم البيطرة للاقتصاد وليس للزراعة.

أداء مصلحة الأشغال العامة يتحسن ببطء. لم أوافق (B) في آرائه قط، على الأقل وافقته في أن عملها معوق وقبيح ومكلف، ولكني اختلفت معه تماماً في سياسة معالجته التي أراها مدمرة. وقد واجهت تلك المشاكل في كردفان، ورغماً عن استهجان كل من مسؤولي المديرية، فقد وافقت أن أعطي مصلحة الأشغال العامة نفوذاً ومجالاً أوسع حتى في بناء بيوت الطين شرط أن يخففوا تكاليفهم ومستوى مبانيهم وأن يستعملوا العمالة والمواد المحلية. (L) وافق وأنا في انتظار مدى نجاح الخطة.

نعم، (R) يهتم بالحدائق كثيراً، ويستخدم أعداداً كبيرة من المساجين. وأنا جاري إرسال حوالى خمسين سجيناً له كل ثلاثة شهور. ومع أن عمل المساجين غير اقتصادي وغير متقن، لكنه قانوني بالنسبة للأشغال العامة، مثل الحدائق والغابات وخلافه. صحيح أنه يقلّل من فرص عمل العاطلين، لكن الحكومة تفتقر للإمكانات المالية وعليها أن توفر بقدر الإمكان. ربما أن مثل هذا العمل يصعب عمله بتاتاً (أعلم ذلك بالنسبة للأبيض) إذا لم نستخدم المساجين، أضف لذلك - ما هو البديل لعمل المساجين؟ فتل الحبال أم الزحف على الطرقات؟ لدينا مسؤولية أدبية نحو المساجين، وأعتقد أن لهم حق السبق لضمائرنا.

خطابك بتاريخ ١٩ أبريل من ذلك العنوان القريب في فالموث:

يبدو أنك قابلت عدداً من المجانين في انجلترا وفي جنيفا.

أ) قل لي بربك ما هو اتحاد كل الشعوب؟

ب) ماذا علمت عن «العصبة»؟ أنا شخصياً ذا توجه عالمي في المبادئ. أنا لا أكره ولا احتقر «الداقوس» (عبارة تطلق لتحقير البرتغاليين والإسبان والطليان - المترجم)، كما وأن اللون لا يؤثر علي أبداً. وبالنسبة للمظهر العام، ففي رأيي أن غير البيض العاديين أوسم من البيض العاديين، وغالباً أكثر وداً. وما ينرفزني حقاً هو أن معظم أنصار «العصبة» وخصوصاً أمثال جلبرت مري وولز وغيرهما يعتبرون أن أي شكل من أشكال الوطنية أو القومية وما شابه هو ضار وغير مرغوب فيه. هذا، في رأيي شيء سخيف. نعم، إن قومية هتلر الآريانية الحمقاء شريرة وغير مرغوب فيها، ولكن كل بقية العالم، بمن فيهم الكثيرون الذين لا يكترثون البتة بـ«العصبة»، وهم وطنيون غيورون، قد أدانوا نظام هتلر. ان التطرف الوطني سيىء، ولكن حب الإنسان المتوازن لوطنه ولتاريخه الناصع، ولجمال طبيعته، ولأفضل أشعاره وملامحه وأغانيه، وتقاليده النبيلة، كل ذلك يبدو جديراً بالثناء ومتماشياً مع مبادئ العالمية المتزنة. وفي رأيي ان أسوأ أعداء «العصبة» هم بعض أصدقاؤها الأكثر عقائدية.

من السهل أن نتهكم على الإمبريالية وعلى بطء الحكومات البريطانية بتقاليدها وملفاتها وعدم مبالاتها لتطلعات رعاياها من الأجناس الأخرى وخلافه. ولكن مسؤوليات الحكومات وخصوصاً في أفريقيا هي جسيمة جداً. ماذا كان سيفعل جلبرت مري لو كان مديراً لكسلا؟ أنا افضل ونستون تشرشل - كان سيشنق القتلة ويجمع الضرائب.

يا ليتني كنت معك في جنيفا. إنه شيء مثير ويجب على كل مثقف أن يعرف شيئاً عن «العصبة». ولكني أخشى من «الشطارة» الزائدة وقلة الحكمة: عدم الثقة في ما مضى، وإهمال الخبرات القيمة والتحديث الكثير فقط من أجل التحديث.

ومع ذلك فإن فكرة «الانتداب» فكرة عظيمة ولا يمكن مهاجمتها. وحقيقة أنا أرى أن مُثل ومبادئ حكومة السودان تكاد تكون مشابهة لحكومات الانتداب، وستلبي شروط «العصبة» (ما عدا التعليم).

وإذا ما سأل لورد لوغارد: ماذا سيكون رد فعل حكومة السودان إذا ما حضر برتغالي ليفتش عملها؟ لكنت أجبت، كما أجبت أنت، لا أعلم (وحقيقة أنا لا أعلم ماذا سيكون رد فعلهم)، ولكني كنت سأضيف: «آمل أن يرحبوا به وإلا فإن هذا سيعني أن حكومة السودان تخشى من التفتيش». أهم شيء بالنسبة للمفتش هو حكمته وخبرته وليس لونه أو جنسه. عظماء الرجال هم، وكانوا غير متأثرين بالأعراق: نانسون، وسمتس، وماركوس أوريليس، وفينزيوس، وهادلين.

هل قرأت كتاب ألدوس هكسلي «رؤية أفريقيا»؟ أعتقد أنه كتاب من الطراز الأول. الشيء الوحيد الذي اختلف معه فيه هو توصيته بفرض علم الأحياء كأساس للتعليم الأولي في أفريقيا. فيما عدا ذلك فأوافقه في كل ما كتب، وأتمنى أن يزور السودان.

خطابك بتاريخ ٢٢ مايو (بخصوص تبادل الموظفين بين السودان وحكومات المستعمرات).

لقد ابتعث السودان حوالى اثني عشر من كبار موظفيه للمستعمرات خلال الخمس عشرة سنة الماضية، ولم يعد منهم إلا عدد قليل. المشكلة هي عدم التواصل بين وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات البريطانية. أنا شخصياً أعتقد أن حكومة السودان يمكن انعاشها وتجديدها دون إعارة من جهات أخرى (هذا لا يعني أن الإعارة يجب أن تلغى) بتكثيف تداول المنشورات والمستندات من «العصبة» أو وزارة المستعمرات للموظفين وبتشجيع حكومة السودان للموظفين الذين يرغبون في المعرفة ويستعملون عقولهم.

والفنيون في السودان يجب عليهم أن يكونوا في حركة دائمة، ويجب أن يتواصلوا أكثر مع بعضهم البعض، كما يجب على السكرتارية أن تقلص عملها الروتيني وتفرغ وقتاً أطول لمقابلة الناس.

نصف السودان يعيش في جهل تام لما يفعله النص الآخر. النتيجة: الخلاف والتكرار.



صورة لطبيعة أرض كردفان.



نموذج من شجرة فولا كردفانية في الخريف.



في رحلة تفقدية بالسيارة واللوري لجبال النوبة عام ١٩٣٤،
وتظهر الصورة شجرة تبلدي ضخمة.



نيوبولد في لقاء له مع أفراد من سكان جبال النوبة على رأس تلة أثناء رحلة تفقدية.

لقد أطلعت على عدة مقالات رئيسية في مجلة «الطبيعة» (Nature) عدد سبتمر. «الطبيعة» هي المجلة البريطانية العلمية الأسبوعية الرائدة. إنها واسعة المعرفة وتسعة أعشارها غير مفهوم لي - كله عن علم الطفيليات، وعلم البلينتولوجيا (علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولجية السابقة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية - المترجم)، والاقيانوغرافيا (علم المحيطات وظواهرها - المترجم)، وعلم المتفزيقيا (علم ما وراء الطبيعة) وخلافه. ولكن مقالاتهم الرئيسية مكتوبة بلغة إنجليزية واضحة. وكانت تلك المقالات تحديداً تتعلق بالحاجة للعلوم والبحث من أجل توسيع وتطبيق الأغراض الاجتماعية. بمعنى آخر: هل الصيادلة والبياطرة والأطباء والفنيون الآخرون يكتبون ويوجهون بحوثهم ونشاطهم لمصلحة الهدندوة والنوبة وسكان مدن كسلا والابيض، أم هل هم يكتبون نظريات جافة، ينقبون في المجاهر وأنابيب الاختبار، بينما يجوع الأهالي ويموتون من الأمراض.

أنا جاري تلخيص المقالات وإعادة كتابتها لتطبق في كردفان، ثم لتوزيعها لكل الموظفين البريطانيين في كردفان. لدينا ١٧ موظفاً إدارياً و٩ فنيين، وهناك مجال واسع للتعاون (وللاختلاف!).

لا تورط نفسك في علم الانتروبولجيا (علم الاجناس - المترجم). أمثال (M) و(P) في غاية البراعة، ويجمعان الكثير من البيانات المفيدة عبر العادات وما شابه، ولكنهما يعتبران الأهالي مجرد أمثلة للعرض، وفي رأيي أن تناولهما للموضوع خطأ. فهما يركزان على المسائل الجنسية أكثر مما يجب، ويهملان ذكاء الأهالي وتفردهم. ثم إنهما لا يطبقان نتائج بحثهما على المسائل الإدارية. هم أسيران للأساليب التقليدية ويطوقان أنفسهما بالمصطلحات الهجينة وتفاسير علم النفس الزائفة. أنا أجد كردفان ممتعة للغاية. في العام الماضي كنت مرتبكاً بعض الشيء وارتكبت بعض الأخطاء، وآمل هذا الموسم أن يكون أدائي أفضل.

إنها مهمة ضخمة، والمشاكل تبرز في كل الاتجاهات - الضرائب، والمحاكم، والإرساليات، وداء الكلب، وحفر الآبار، والتجنيد للجيش، ومنازعات الحدود

مع مديريتي بحر الغزال وأعالي النيل، والجراد، والمدارس - مكتبي تتراكم فيه المعضلات والمشاكل التي تنتظر الحلول، وطوال الوقت منزلي يعج بالضيوف. لقد استضفت ٩٣ شخصاً العام الماضي (كيف يتسنى للمرء أن يفكر بشكل واضح تحت هذه الظروف؟). ومع ذلك فهي مهمة مبهجة تستحق الاضطلاع بها، وهناك أكثر من مليون عربي ونوبي في انتظار الرفاهية وقضاء الحوائج من غذاء، وكساء، ودواء، وعدل، وتعليم، وترفيه. وبمجرد أن أنهي مشكلة إذا بي أُجابه بمجاعة، أو أعمال شغب، أو حماقات في جهة ما. ولا بد لي من التفكير، وإعادة التفكير والتنظيم. ولا بد من الاستغناء عن النظريات والمفاهيم لإتاحة المجال للأعمال البسيطة والفاعلة.

❐❐❐

في نوفمبر ألقي نظرة على جبال النوبة من الجو.

إلى والدته — الأبيض ٢٣ نوفمبر ١٩٣٣

سافرت بالطائرة الأسبوع الماضي إلى كادوقلي، رئاسة أحد المراكز، حوالي ١٨٠ ميلاً جنوب الأبيض، قمت بعملية استطلاع من الجو عن محصول الحبوب والقطن هذا الخريف. المساحات المزروعة عبارة عن رقع صغيرة، بين فدان وثلاثة أفدنة مبعثرة في منطقة واسعة مغطاة بالأعشاب الطويلة والغابات. وكان من السهل رؤيتهم حيث كنا نطير على ارتفاع منخفض، حوالى ٦٠٠ قدم. وكان بإمكاننا رؤية سنابل العيش بلونيها الأحمر والرمادي، ولوزة القطن بلونها الأبيض. كما شاهدنا بعض الغزلان، وشاهدنا ٦ من الزرافات يخبون تحت شمس الصباح الباكر. واستمرت جولتنا حوالى الساعتين قبل الإفطار (١٩٠ ميلاً) وجولة أخرى أصغر (حوالى ١٠٠ ميل) بعد الإفطار. كادوقلي منطقة جميلة وأمطارها تصل الى ٢٥ بوصة في العام، وفيها مزرعة تجريبية مساحتها عشرون فداناً تزرع فيها الذرة الشامية والقطن والفاصوليا والسمسم وغيرها من المحاصيل. وأيضاً فيها حديقة فواكه: التفاح، والتوت، والموز، والبابايا،

واليوسفي، وأخيراً القريب فروت، وهذه أول مرة تتم زراعة القريب فروت في كردفان. وكذلك مشتل للأشجار تمت فيه بنجاح تجربة زراعة شجر الساج الحقيقي. القطار اللعين سيغادر بعد عشر دقائق ولا بد أن أتوقف عن الكتابة لأتمكن من إرسال الخطاب.

❐❐❐

ولكن مشغولياته المكتبية لم تمكنه من السفر مرة أخرى إلا في نهاية العام عندما ذهب إلى تقلي في الجبال الشرقية. كانت تقلي إحدى المالك الهجينة التي كانت تزدهر ثم تتوارى طوال تاريخ الجزء الشمالي من حزام الامطار في أفريقيا. كانت من القوة في وقت ما أن تشن حروباً ناجحة ضد سلاطين سنار، كما ظلت شبه مستقلة خلال الحكم التركي. ثم انتعشت مرة أخرى في شكل وحدة حكومية محلية. زار نيوبولد خرائب قصور ملوكها السابقين ورئاسة مركزها المهجور وسط مجموعة من الجبال: «سهول واسعة مرتفعة، غير واضحة المعالم، جبالها قصيرة ومتفرقة وتكسو جنباتها العشب، حجارتها حمراء، وارضها صلبة يصعب المشي عليها، وفي حاجة شديدة للأمطار. وفيها آبار كثيرة ولكن الأهالي غير مهتمين بالمحافظة عليها». تاسي عاصمة أسوأ ملوكهم السابقين سمعة، حكوا له عن «قصص تقشعر لها الأبدان عن فظاعات الملك ناصر - الحرائق والتمثيل والسلخ والشنق».

الملك الحالي، آدم، اصطحبه في رحلته، وتناقشوا في أمر المدارس الجديدة، والشفخانات، ومشكلات الزواج والطلاق (والتي مع قضايا الزنا كانت غالب القضايا المقدمة للمحاكم). «لقد خفض المهر إلى جنيهين، ثم إلى جنيه واحد ولكنه ذكر انه لا يستطيع تخفيض تكاليف العزاء لأن ذلك يعتمد على عدد المعزين الذين لا بد من تقديم القهوة لهم وليس من المروءة صدهم».

السوق الرئيسي في العباسية فيه حوالي اثنا عشر دكاناً صغيراً لبيع الملابس القطنية، وسلع البقالة، والصنادل المحلية وخلافه، وجزارة ومزاد للصمغ. كان هناك حوالى

٦٠٠ شخص في يوم السوق. وكانت السلع المعروضة هي جوز النخيل، والشطة، والأواني الفخارية، والفول السوداني، والصمغ، والحبوب، والطماطم، والبصل، والقرع، والخضروات المحلية، والذرة الشامية، وجوز السنط، والقطن، وحبال التبلدي، والفواكه، والتبغ المحلي. أما السلع المستوردة فكانت تشمل البخور، والقرنفل، والشاي، والبن، والسكر، والقماش الياباني، والأحذية ذات النعل القماش، وتباع بعشرة قروش للجوز، والقار (الزفت)، والصابون، وخشب الصندل. كما كان هناك أيضاً قماش جيد منسوج محلياً من القطن المحلي الذي يتجدد نموه سنوياً بدون زراعة، وقد أدخلت زراعته الحكومة السابقة. وقد قرّر نيوبولد أن يستعمله لملابس المساجين العام التالي.

وفي فبراير قام بزيارة الجبال مرة أخرى، وحضر التجمعات القبلية في كادوقلي وتلودي حيث ناقش تطوير منطقة لقاوة في أطراف الجبال القريبة، المزمع إقامة محلج قطن فيها مما سيترتب عليه شوارع أفضل وزيادة في عدد الشرطة، ومبانٍ جديدة، وتوفير المياه والعمال وخلافه. لم يكن انطباعه حسناً بالنسبة لقبيلة الداجو (والذين نزحوا من دارفور في القرن الثامن عشر) «مستواهم رديء، ومنظرهم قذر، ومشاكسون، وكل واحد منهم يحمل عرضحالاً بشكواه. ولكن المنطقة جميلة بمراعٍ خصبة، وماء وفير ومناظر تسر الناظرين».

وبعدها الى جبل تلوشي، والذي يعتبر الأبن العاق بين الجبال، ولكن ساكنيه «ودودون» (طالما لا يطلب الزائر خدمات، أو ضرائب، أو تسليم الهاربين من العدالة)، وكلهم يغزلون القطن، والمكان مكتظ. السلطان (   ) قصير القامة ومتوتر ولكنه مخلص. وهو أحد الكجور. السكان حوالى ٨٠٠٠ الى ١٠٠٠٠نسمة. ويحبون غليونات ملورث والسجاير. السلطان ممنوع من دخول قرية «كورميد» المحرمة!

الاحتياجات:

أ) لا داعي للقلق بالنسبة للسرقات.

ب) تكرار الزيارات كما هو الحال بالنسبة للجبال الشرقية.

جـ) زيادة راتب السلطان.

د) تعيين تومرجي جديد (الحالي مجنون).

هـ) ناظر المسيرية يكثر من زيارتهم وينفتح لهم.

و) المفتش الصحي يعيد زيارته لهم.

ز) إلغاء نظام الكشافة البريطانية.

ثم رجع من هناك الى أم جبرالله في الجبال الشرقية.

«ساعة ونصف تسلقناها بيسر (١٨٠٠ - ٢٥٠٠ قدم). المناظر خلابة والطقس يميل للبرودة. وقد وجدنا عاصفة تهب أعلى الجبل. السهل الصغير الذي تقع فيه قرية «رادي»، أقرب شيء لجنات عدن رأيتها في حياتي. هي عبارة عن حوض من العشب وأشجار نخيل قزمية، ومحاط بمرتفعات صخرية مبنية عليها كل المنازل. في غاية التنسيق والنظافة، مع مناظر خلابة في جميع الاتجاهات. مئات من النوبة الودودين وأسراب من الأطفال. أسمعناهم الموسيقى من الفونوغراف وهم متحلقون حولنا بكل أدب، وكلهم عراة والابتسامة تعلو شفاههم. أستلقينا على الصخور الدافئة في الظهيرة. تعج بالصبيان مع أن كثيراً منهم ذهب الى تلودي للحصاد. بعد أن تناولنا شاي العصر تجوّلنا حول المنازل بأكوام خشبها المرصوص بتنسيق (مع أن هذا نهاية موسم جمع الأخشاب). والحبوب مكومة بعناية على حسب ألوانها في مساحات من الأرض ومزروبة بسيقان الذرة الناشفة. الخنازير بحالة جيدة. المياه بعمق ستة قدم في آبار تنشل منها الفتيات بطاسات القرع المربوطة على عصي خيزران طويلة. لا أثر لأي أمراض إلا توسّع الأوردة. كل الأولاد يعلقون قطعاً صغيرة مقوسة من عظام الأرانب الحجرية على أنوفهم وعقود من الخرز على خواصرهم. قضينا يوماً جميلاً رغم البرد والرياح الشديدة. وقد أسرعوا بإعداد راكوبتين لنا لمبيتنا. وعندما أصبحنا وجدنا حولنا أعداداً منهم يتطلعون علينا ونحن في فراشنا».

وكان الوضع في فنجر مغايراً تماماً:

«الانطباع العام هو الفقر والقذارة (الخنازير تقتات من القمامة في المناطق الاستوائية). لغتهم مختلفة ويستعملون الدهان الأصفر والأخضر. الساحات متباعدة ويكثرون من الصراخ. يهوون مصارعة الأسورة (ضرب من الملاكمة يلبس فيها الملاكمون أسورة معدنية في الرسغ والساعد)، وينحتون قوائم مقاعدهم في شكل كلاب. أفضل لهم أن يظلوا تحت إمرة العرب. لا بد من زراعة القطن حيث ليست لديهم محاصيل نقدية سوى العسل البري.

وفي تلودي:

«تدارسنا (ضمن مواضيع أخرى) مسألة السواح والزوار. وقرّرنا أن بإمكاننا منع بعض السواح والموظفين ولكن ليس غالبهم ومن المستحسن أن نخبر مفتشي المراكز أنهم غير مضطرين لمقابلة أي شخص إلا أذا أمروا بذلك تحديداً. جفري هكسورث (مفتش المركز) يقول إن الضيافة ليس مبالغاً فيها، ولكني أشك في ذلك. على أي حال هناك الكثير من المضايقات للعمل بالنسبة للزيارات».
في نهاية مارس سافر بالطائرة الى أبيّي في أقصى جنوب المديرية، ورئاسة قبيلة الدينكا النقورك، القبيلة النيلية الوحيدة التي تقطن كردفان. أولئك الدينكا، ولو أن البعض يعتبر وجودهم في مديرية شمالية امراً شاذاً، إلا أنهم كانوا على أفضل علاقة مع جيرانهم البقارة (المسيرية الحمر) يعيشون في سلام ووئام ومساواة واحترام متبادل. وتعتبر ابيي واحة سلام في بحر العرب الذي يواجه فيه العرب والنيليون بعضهم البعض في هدنة مضطربة، أو في مشاحنات من وقت لآخر. لقد تم ترحيل الدينكا الروينق من الجهة الشرقية الى مديرية أعالي النيل وبدأت المشاكل فوراً».
ثم واصلوا رحلتهم جواً نحو الجنوب على طول الطريق الذي تم شقه عبر الغابات الكثيفة من المجلد، وهي آخر نقطة حكومية في المديرية إلى الشمال، حتى وصلوا إلى الأنهر الصغيرة التي تتدفق في بحر العرب:

دائمة التعرج، وببرك ومياه لشرب الحيوانات. بحر العرب هنا مخضرّ وتكثر فيه المياه. ويكثر فيه البجع والقرنوق ذو العرف، والطائر المخوّض وخلافها. أبييَّ

واضحة المعالم من الجو ويمكن رؤية سور مطارها من البعد. وهي حارة جداً وغبارها كثيف وتكثر فيها أسراب الذباب (ولكن البعوض قليل)، ومع ذلك فإنها منطقة جميلة بأشجار متوسطة الطول وبميدان أخضر بالقرب من الاستراحة.

الساعة الخامسة عصراً - رياضة: رمي الحراب والرقص. حوالى خمسماية شخص هنا أغلبهم دينكا نقورك وبعض المسيرية (سباق الخليل - بعض الدينكا ايضاً يملكون خيولاً)، وبعض الروينق والتويج (زعيمهم يلبس سترة قصيرة ورداء)، وبعض النوير من أفراد شرطة الإدارة الأهلية التابعين لروميلي مفتش غرب النوير بمديرية أعالي النيل. كان العرض جميلاً ولكني كنت منزعجاً بالنسبة لموضوع «الزي»، بسبب الشذوذ الشديد وعدم وضع سياسية. في بحر الغزال يلبسون ما يشاؤون: الزعماء يلبسون قبعات وسترات وأردية، النوير عراة، النقورك، شرطة الإدارة الأهلية يلبسون خوذات حمراء وجبب بيضاء وحمراء، والنقورك - الزعماء يلبسون ملابس عربية، والنوبة لا سياسة معينة نحوهم الا للخدم في الجبال الشرقية. لا بد للمديرين أو حكومة السودان في وضع سياسة وإلا فلا داعي للقلق، ولنترك كل شيء للأقدار. شخصياً أنا أقول دعونا نجرّب حالة تعرية نصفية وملابس ملونة».

❑❑❑

أبييّ، ٢٦ مارس ١٩٣٤

أخذنا السيارة حوالى الساعة السابعة الى مديرية بحر العرب في أنيل ومررنا بالواركات (اكواخ للأبقار، تعلوها منصات وتشعل تحتها النيران لينام فيها الناس). تحدثنا عن المعدية وحبلها الحديدي الذي يبلغ طوله ١٥٠ ياردا. محكمة مجلس كوال أروب - رئيس الدينكا - الإحصائية توضح نسبة قليلة للغاية من حوادث العنف أو السرقات، أما قضايا المهور فإنها كثيرة، كما هو الحال أيضاً عند البقارة. المهور ترتفع الى ٣٠ ثوراً.

رئيس الدينكا عنده كاتب دينكاوي (تعلم في المجلد). كوال نفسه عنده مشكلة كيف يتصرف في الغرامات ويفضل أن يوردها للحكومة. كوال طلب أن ترحل قبيلة الروينج الى كردفان. كما اشتكى من ملوال (قبيلة دينكاوية أخرى تقطن الجنوب الغربي من المديرية ويدخلون كردفان بأبقارهم). قضينا ساعتين ونصف في محكمته. مفتشو المراكز وضعوا له خطة لتنظيم محكمته».

في أبريل رجع مرة أخرى للجبال بسبب قلقه من تدنّي تعليم الإرساليات، ولكن خطابه التالي إلى كندي - يكرّر الحديث مرة أخرى عن الصحراء الليبية.

❒❒❒

إلى الرائد و. ب. كندي - شو الأبيض ٢١ أبريل ١٩٣٤م

كان يجب عليّ أن أكتب لك من مدة طويلة، ولكني، بأمانة، لم أكتب أي خطابات خاصة، ما عدا للأسرة، منذ نوفمبر. مشاغل كردفان هذه لا تترك لي فسحة من الزمن نهاراً أو ليلاً. سأحكي لك عن كل شيء في أغسطس أو سبتمبر. حصل تطور رهيب في العشر سنوات الماضية - السيارات، والاذاعة، والطائرات، وثلاث حقائب بريدية ضخمة كل أسبوع، وجيوش من الزوار - خلال ١٩٣٣م زارنا ٢٥٢ رسمياً وسائحاً من أوروبا، ومع ذلك فقد خفضوا من إدارتنا أربعة مفتشي مراكز وتسعة مآمير و ١٢٠ رجل شرطة وأعداداً كبيرة من الكتبة (بسبب الانكماش الاقتصادي).

بوجه العموم كل شيء بخير، ولديّ موظفون أكفياء، وأترحل كثيراً بالسيارة، وعلى ظهور الحيوانات، وأحياناً على الأقدام في جبال النوبة. وقد سافرت بالطائرة ست مرات، ولكني كرهت الرحلات الجوية الآن بسبب وفاة سيريل، الطيار في سلاح الطيران الملكي، وعمره خمسة وثلاثون عاماً، والذي تحطمت طائرته بالقرب من رومبيك الأسبوع الماضي، كما توفي معه زميل آخر، أما لوريمر مساعد مفتش المركز فقد نجا ولكن بعدما تعرض لإصابات بالغة. لا أحد يدري ماذا حدث.

الحاكم العام الجديد، السير ستيوارت سايمز، زارنا ورجع، وأقمنا له احتفالات

عظيمة: عرض لسلاح الهجانة وتفتيش مدارس ومستشفيات ومحاكم أهلية. ولمدة يومين كنت أنتعل حذاء الميدان لمدة عشر ساعات متواصلة يومياً. أشعر للآن بتشوّه في قدميّ.

تجدني آسف لعدم تمكني من مصاحبتك للعراق. لم تكن هناك فرصة أرجو أن تكون استمتعت برحلتك للعراق وإيران.

هل تمكنت من زيارة البتراء؟ هل أعجبت بها؟ أنا أعجبتني جداً، وكذلك الكرك.

(B) الصغير ذهب إلى سيناء واستلف سيارة من جارفز. يا ليتني صحبته، شاب محترم. الكثيرون من أمثاله يذهبون إلى انجلترا لقيادة السيارات الرياضية إلى برايتون، أو يحملقون في عيون الفتيات في غياهب الكباريهات عند منتصف الليل.

أعيد لك مع هذا مقالتك عن العوينات. لم تذكر لي أين ستنشرها، في أي مجلة؟ على أي حال هي مقالة علمية بدرجة عالية جداً. إنها تفوق معلوماتي أو قدراتي ولا أستطيع أن أعلق عليها. أنا لم أقرأ أي شيء هام عن الآثار خلاف تصفح مجلة الآثار في السنوات الأخيرة، ولكنك، كما يقول شكسبير «سموت فوق ظل مسائي». كل ما يسعني قوله إنها لافتة للنظر، وممتعة، ومشحونة بالبيانات المضيئة وبها فهرست كافٍ وخارطة وافرة، كما وأن مادتها عن علم الطبقات لا يضاهيها إلا مادتها الببليوغرافية. لا أدري إذا كان المراقب سيجيز الملاحظة عن «القدر» بشطب المكتوب أسفله (الصورة رقم ٤)، ولكن بخلاف ذلك ليس لديّ ما أستنكره، وأتمنى أن تساعد المقالة في ترويع علماء الآثار. بأمانة، في رأيي هي مجهود مقدّر للغاية.

تهانينا لنيلك مدالية «جل التذكارية». ماذا أعطوك معها؟ فلوس أم مجرد براءة؟ هل هي من الذهب، الفضة، أم البرونز؟ هل ستلقي كلمة في حفل العشاء السنوي؟ أرجو أن لا تخذلنا. لقد آن الأوان فعلاً لمكافأتك على مجهودك الخارق في مجال علم الأحياء وفي ملفات الصحراء الليبية.

الصحراء الليبية، كما تعلم، كانت في دائرة الضوء هذا الشتاء والربيع، وربما سمعت بأننا اضطررنا لإرسال العربات والجنود والطائرات لاحتلال «ميرقا» و«العوينات» لنمنع حدوث «فاشودة» أخرى بالنسبة لمطالب الطليان. لا شك أنك ملمّ بذلك أكثر مني.

... على أي حال بطارية المدفعية رقم (٢) أرسلت من الفاشر لتحتل ميرقا، وتم ذلك في يوم ١٧ يناير. تبع ذلك سرب من طائرات «الثورنيكرفت»، بعضها «انقلب» وبعضها وصل إلى ميرقا بعد صعوبات جمة. كما قامت طائرات سلاح الطيران الملكي من القاهرة باحتلال العوينات، ثم حلّت محلّها بطارية المدفعية رقم (١) من وادي حلفا في يوم ٩ فبراير. ثم استبدلوها أيضاً بالفرقة العربية الشرقية التي رُحّلت بالشاحنات وأيضاً حلّت محلّهم في ما بعد بطارية مدفعية أخرى. وقد قام الطليان بزيارة العوينات من «واعدة» وتجددت مشكلة فاشودة مرة أخرى هنا وما زالت مستمرة. وقد حجز قاي برندرڤاست (سلاح المدفعية الملكي وقوة دفاع السودان)، في ميرقا منذ منتصف يناير إلى منتصف إبريل بدون أي كتب أو خرائط (لأنهم استعجلوا في الخروج)، ومعه المستر بوب (لاسلكي) والشاويش لاندر، والرائد هنفري ومعهم ٦٥ جندياً.

ليس هناك جديد سوى أن الحاكم العام أجرى تخفيضاً للمديريات من ١٣ إلى ٨. كردفان قد تفقد مكانتها كأكبر مديرية من ناحية السكان، ولكنها تظل أكبر مساحة إذا ما استقطعنا الصحراء الليبية من مديرية دنقلا.

هل يذهب اليهود إلى شرق الأردن؟

أنا ذاهب إلى فلسطين يوم ٢٥ يوليو أو نحو ذلك، مع جفري هكسورت. نحن نرغب في الذهاب إلى لبنان ومشاهدة بعض القلاع الصليبية. الحرارة لن تؤثر علينا. سنذهب إلى فلسطين ثم إلى أين؟ أعطني بعض المقترحات.

في مايو عاد لزيارة غرب كردفان مرة أخرى، حيث كثبان رملها التي تنمو فيه اشجار الهشاب يذكّره بالصحراء الليبية. وقد وجد إدارة قبيلة «الحمر» على ما يرام، ووافق على إنشاء محاكم جديدة، وتدارس في شأن التعليم المحلي، والتفويض المالي، ورتب للناظر تولّي أمر مكتب العوائد للمدينة وتقديم كشف حساب عن الضرائب التي تحصل عليها نيابة عن الحكومة المركزية. وقد «وافق على تطبيق تلك السياسة الإدارية دون الانتظار لتعيين الموظفين الذين سيباشروا العمل. أنا متأكد أن النتيجة ستكون مرضية وأن الموظفين سيظهرون».

بعد تفتيشه لأسواق مزادات المحاصيل الزراعية والمحاكم المختلفة، نظر بعين العطف، ولكن بدون حماس لطلب من البقارة لزراعة القطن جنوب المجلد ليرسل بالطوف من بحر العرب. ثم ذهب لزيارة جبل كاشا في أطراف جبال النوبة. وقد تجوّل عدة مرات في المستنقعات. واضطر أخيراً للمبيت في جزيرة وسط خورين فائضين ارتفع منسوب مياههما خلال ساعة فقط بحوالى قدم، مما عزله تماماً عن اليابسة. كان رأيه إيجابياً عن كاشا: «إنه جبل جيد، الوراثة فيه من ناحية الأم. المهر ثماني بقرات. الشاب الخاطب يعمل في حقول صهره ويحشّ له. التوائم دليل الحظ. الأب يلبس إسورة. كاشا تبدو صحية، كل السكان تقريباً يمشون وهم عُراة، أو رابطين قطعة قماش صغيرة على وسطهم. يدفنون موتاهم مكفنين ومتجهين نحو الجنوب، ومضطجعين برؤوسهم على سواعدهم المثنية. بعد الوفاة يتسلقون الجبل، ويذبحون خروفاً، ويصبّون الماء على الأرض... مناظر جميلة من الجبل. تسلّقت أعلاه وتحادثت مع السكان لمدة ساعة ونصف، ووزعت الحلوى للأطفال».

تبع ذلك مذكرات عن الاقتصاد الزراعي، وصعوبة التخطيط لزراعة محصول قبل أن تخمن السعر الذي ستتحصل عليه، بالإضافة لكساد المحاصيل الاستوائية من جراء الاستقرار السكاني في أوروبا، وزيادة عدد المشتغلين بالزراعة، وتطور وسائل الإنتاج الفنية ونمو الاقتصاد الوطني - كما ظن هو. هذا الاهتمام نراه واضحاً في خطابه لكوتريل متأثراً بالمخاوف من تجديد المعاناة التي تعرّض لها في القاش.

إلى فرانك كوتريل الأبيض ١١ يوليو ١٩٣٤

وجدت صعوبات كبيرة في تصنيف وفهرست خطاباتك الأخيرة. رقم واحد كان «إعادة ترتيب العالم - بعض التفكير في ذلك»؛ رقم اثنين وضعته تحت عنوان «تجمع القبائل المختلفة - جنيفا»؛ رقم ثلاثة «الآثار المترتبة بعد يوم تولي العرش»؛ رقم أربعة «رد الفعل على النقليات».

أين أنت الآن؟ في دنقلا كما سمعت.

أعتقد أنني كتبت لك رداً مطولاً وممتعاً على كل النقاط أعلاه ما عدا النقطة الأخيرة. إنه من الصعب على شخص من الأرياف مثلي أن يستمر في مراسلة شخص يقضي وقته في منادمة وزراء من ليتوانيا وتبادل المودة مع الدكاسيين (سكان غرب يوغسلافيا - المترجم). لا أدري سبباً لرجوعك للحياض (زراعة الحياض في الشمالية)، والمآمير، بعد تلك الرحلات اللازوردية.

فرانك، انك تعلم إنني لا أحب الكلام المنمّق، ولكني أكاد أن أكون قد أصبت بالخرف. لقد حاولت أن أعمل أكثر مما يجب في كردفان. وقد نجحت بعد سنة ونصف في إنجاز الكثير خصوصاً بالنسبة للحكم الأهلي: ولكنها حركة سريعة دائمة - كتابة، وطيران، ورحلات بالسيارات ومؤتمرات. هناك ثمانية عشر مفتش مركز، وعدد كبير من الارساليات، والأطباء، والجنود، ومفتشي الزراعة. لقد حاولت أن أعمل أكثر مما يجب وأنا لا أجيد التفويض. ومع ذلك فلديّ مجموعة من المساعدين الأفذاذ - ليس من بينهم أي واحد فاشل. بوستد متسلّق جبال إفرست مسؤول عن سلاح الهجانة، وغالب موظفي المكاتب ممتازون جداً. حقاً أنا في حالة طيبة، ولكني لا أنام الليل من التفكير في ما إذا كنت قمت بواجباتي كما يجب بالنسبة للمليون نسمة في المديرية.

أنا قلق جداً بالنسبة للعام القادم (١٩٣٥). أنا أشتم رائحة النقابات والتطور المادي - بينما العدالة، والفضيلة، والإخلاص، والحقيقة تعتبر أشياء هامشية تتوارى

في زوايا الميزانيات - إذا ما تحقق بعض الفائض. على الأقل هذا ما أتوهمه، ولكن لا تردد قولي هذا لأني لا أرغب في أن أعفى من منصبي في الوقت الحاضر.

جميع كبار الموظفين يزورون جبال النوبة - فلان يرغب في إنشاء طرق رئيسية لربط المدن؛ وفلان يرغب في التعاقد مع سماسرة أغاريق لبيع القطن؛ وفلان يرغب في جلب فلاتة من كانو.

لا بد أن أحرك درعي في كل الاتجاهات لحماية نفسي.

أهل النوبة ممتازون، وأمناء، ونشطاء وعراة، وضحوكون ويتحلون بتقاليد السلوك المهذب والحياة القبلية. منذ قرون قبل مجيء وزارة الزراعة كان لديهم نظام زراعي جيد للمدرجات ودوريٌّ وتربية الخنازير.

عند حضوري هنا كان العرب يحتلون معظم الأراضي مع الفلاتة والتجار. كان نصيب النوبة حوالى ١٤ في المئة. وقد تمكنت من رفع نصيبهم إلى ٤٠ في المئة في الجبال الغربية و٣٠ في المئة في الجبال الشرقية.

مفتشو مراكز جبال النوبة مجموعة جيدة ومترابطة، والارض خضراء وغنية بثمار الارض، وأنا مستعد أن أضحي بحياتي في سبيل منع النقابات، والمهندسين الاسكتلنديين، شاربي الويسكي، من أن يأتوا هنا.

أنا في غاية الارهاق، وعقلي مشوش، وليس هناك وقت لقراءة الشعر أو الاستمتاع بغروب الشمس، كما أواصل الكتابة يومياً إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً.

الحكومة، (وليس جيلان - السكرتير الإداري) أصبحوا يضايقونني بسبب الاقتصاد. لقد جاهدت من أجل القطن والصمغ وجب البطيخ والأبقار والجمال وتصدير الحبوب وخلافه، ولا أقبل أن ينعتني موظفو الإحصاء الديوانيون بالجمود أو عدم الحركة.

لقد نجحنا في تصدير ٣٠٠٠٠ طن من الحبوب لتاريخه هذا العام، و٩٠٠٠ طن من الصمغ، و١٥٠٠٠ رأس من الإبل الموسم الماضي، و٥٠٠٠ رأس من الأبقار،

و٨٠٠٠٠ قنطار كبير (٣٠٠ طن) قطناً، وكميات كبيرة من حب البطيخ والسمسم والفول السوداني والشطة. هل التعبير السائر «الأفريقي الكسول» تعبير صحيح؟ ان ما قطف من الأشجار واستخرج من الأرض تقدر قيمته بنحو ٣٠٠٠٠٠ جنيه استرليني. هل هذا جمود؟ يا إلهي! ومع ذلك يقولون هذا ضئيل، ويجب علينا أن «نكثف» و«نحفز» و«نستغل».

أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم. وقد قمت بهجوم مباشر مطالباً بالمستشفيات، والمدارس، والمحاكم الاهلية، وزراعيين من الأهالي وتمرجية وما شابه.

عندي خمسة مساعدي حكماء و١٠٠ تمرجي من النوبة، وأنا جاري إدارة مدرسة صغيرة لـ٣٠ من أبناء الزعماء، بنفسي وعلى أسس اخلاقية.

سيكون الشتاء القادم فترة شد وجذب. لقد كتبت في خطاب رسمي قبل فترة وجيزة: «سأضطر لتخفيض وتيرة النمو الاقتصادي ما لم أتحصل على مدارس توفر النمو الأدبي جنباً بجنب مع التنمية الاقتصادية. (لا يمكننا أن نعمل ما أمرنا الله به وما يأمرنا الشيطان به في نفس الوقت). أصبحت أدخل كلمة «مستقيم» و«أخلاقي» في معظم خطاباتي. الاخلاق ليست أشياء جانبية، أو تافهة، أو خرافة. إن إدارتنا مبنية على العدل والرأفة والتطور الديموقراطي المرتب والحكيم، والقائم على شخصيات وعادات الأهالي، والويل لمن يرغب أن ينحدر بنا إلى القاع.

حقاً، لا بد لي أن آوي إلى فراشي. مزق هذا الخطاب. انه هراء. ربما استعيد سلامة عقلي على منحدرات جبل الشيخ (أضخم جبل في سوريا، أيضاً يسمى «جبل الثلج» - المترجم).

بعض ما ذكره كان فعلاً هراء. وقد أكد ذلك في خطاب كتبه نفس اليوم يقول فيه إنه «متحيز وسريع الغضب، وعلى حافة الجنون من الإرهاق وتشوش الفكر، أضف لذلك فإن هتلر يسدد اصابات أكثر من الاستراليين ضد الانجليز في لعبة الكركيت».

لم تكن الحكومة تجهل القيم الاخلاقية، كما لم يكن نيوبولد جاهلاً بقيمة الاقتصاد، ولكنه كان دائماً يقدم الاخلاق على النفعية، وكان دائماً يحكم على المسائل بمدى فائدتها وليس لاعتبارات يراها الآخرون من جهات أخرى. كما وأن الرجال الذين يعملون في الأمور الانسانية لا ينجحون كثيراً إذا لم يتسلحوا بالإيمان. «لا بد أن يكون إيمانك بدينك قوي» هكذا قال السودانيون لغردون، إذا أردت أن تكسب احترام وثقة الشعب الذي يتمسك بدينه بقوة ويعلم بما جاء به القرآن الكريم، والذي يقول في سورة البقرة:

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (الآية ٦٢).

كان أول تدوين له في كتاب الصلوات هو اقتباس من مقدمة تي. ي. لورانس لكتاب داوتي «الصحراء العربية»:

«يقولون انه بدأ فخوراً فقط لكونه مسيحياً، ولكنه لم يعترض أبداً على ديانتهم... وقد جعلهم أميل لقبول بني جلدته الآخرين لأنهم وجدوه محترماً وفاضلاً».

كان هناك مؤتمر في الشتاء اللاحق مع إحدى الإرساليات التي كانت تعمل في جبال النوبة، والذي سجل فيه ما يلي:

«الحكومة تقر بأن هدف الارسالية هو تغيير الاهالي وتشجيع إقامة كنيسة أهلية محكومة ذاتياً، ومدعومة ذاتياً، وتمتد وتتكاثر ذاتياً. وتقر الإرسالية بأن من متطلبات الكنيسة القوية أن يكون الشعب متعلماً، ولذلك فإن التعليم هو من أساسيات التغيير».

«إن تطوير منطقة جبال النوبة المتواصل يتطلب برامج تعليمية متطورة، كما أن تعزيز تطور النوبة الاجتماعي والأخلاقي لا بد أن يواكب ازدهارهم المتحسِّن».

«إن حكومة الهند تصدر سنوياً كتيباً مختصراً اسمه «التقرير عن التطور الأخلاقي

والمادي لشعب الهند». أرجو ملاحظة الأخلاقي والمادي. أي حكومة مستعمرة يجب أن يكون أساسها الوصاية، أي، يجب أن تكون حكومة انتداب. ان المقياس والأسمى والنهائي لسياستنا يجب أن يكون رفاهية أهل السودان. ولو أن حكومة السودان قد تعهدت بأن لا تستعمل سلطاتها للتنصير أو لهدم الاسلام، فيجب أن لا ننسى أن كبار موظفيها وفنييها هم بريطانيون وبالتالي هم مسيحيون، ولذلك كل إدارتها تُستمد ويجب أن تُستمد من تعاليم المسيحية. هذا هو إرث غردون الذي أورثه للسودان.

أما عن الاسلام، فموقفنا هو، حالياً، إنه دين شمال السودان (مثلاً شمال خط عرض ١٢). وبقدر ما هو الدين الذي يؤمن به بصدق تقريباً كل سكان شمال السودان، فسنستمد منه أقصى ما يمكن في إدارتنا التعليمية وفي المحاكم، وبقدر ما هو دين من مبادئه المحبة، والرأفة، والإحسان، والصحة، والصلاة، وعبادة الله كما جاء من القرآن الكريم وكما يوعظ بها في المساجد، فبالطبع سنشجع تطبيق تلك المبادئ للتعليم العربي والقضاء العربي.

ان الحكومة وموظفيها، رسمياً، لا دين لهم. نحن حكومة علمانية ندير جهازاً علمانياً، وكل مساعدتنا للجماعات الدينية هي، ولا بد أن تكون، مساعدات علمانية، سأستشهد بما قاله السير هارولد ماكمايكل في كتابه «السودان الانجليزي - المصري» الصفحتين ١٠٣ - ١٠٤.

«إن السياسة التي وضعها اللورد كرومر بالنسبة للإرساليات وكان يكررها دوماً، كانت سياسة ملتزمة «بالحياد الصارم والمتسامح». يجب أن يفهم أن الهداية لا تمثل أي جزء من برنامج الحكومة البريطانية... العمل الإرسالي برمته يقوم به قطاع خاص. ودور الحكومة ينحصر في تأمين التسامح لكل المعتقدات، وممارسة الرقابة على مجهودات الإرساليات مما يضمن عدم اتباع أي أساليب غير تلك المشروعة وغير البغيضة في تنصير من هم غير مسيحيين الى الدين المسيحي».

في رأي نيوبولد، إن الإنسان البدائي (أو أي انسان بوجه العموم) لا يمكن تصليحه لدرجة النضج دون خلفية دينية نوعاً ما. وإنما يجب أن يهيأ مبدئياً ليدرك

قصور دينه، ويشعر بالحاجة أن يتعلم ديناً اسمى، وأن لا يُعمد بجهالته. هذا هو لب الجدل بين الهداية والتعليم، والذي قاد عدداً من المبشرين المسيحيين والاداريين المسيحيين للخلاف.

وفي المحاضرة نفسها أكد على ضرورة التفهم والتعاون مع الإدارة المحلية والأنظمة الاجتماعية. «الحكم غير المباشر ليس حكماً استبدادياً، إنه حكم ذاتي عن طريق ديموقراطية الأقلية - الملك في مجلسه - ليس بالضرورة مجلس الكبار ولا - لاحقاً - النواب المتعلمين». وأيضاً «أساس عمل الإرساليات هو تعرفهم واتصالهم بالنوبة بكل أعمارهم وطبقاتهم». وقد استشهد بخطاب القس إدوين سمث في خطابه الرئاسي للجمعية الملكية للانثروبولوجيا عام ١٩٣٣.

في ١٩٣٥ نجده في اجتماع سري مع الشيخ علي التوم في شمال كردفان. تدارسوا موضوع التجمعات المحلية ومشاكل الحدود والتعليم وتقليص مركزية السلطة القبلية. وقد سأل الرجل العجوز نيوبولد والحزن بادٍ عليه: «هل نحن محقون في أن نستمر في بداوتنا وترحالنا؟ إن بلادنا لا تنتج أي شيء ونحن نعيش على جمالنا». ورد عليه نيوبولد: «نعم إنكم تعيشون وفق بيئتكم، ووفق قوانين الاقتصاد ونظامكم الاجتماعي».

ويقوم بتلخيص أعماله ومشاكله مرة أخرى في خطاب بتاريخ ١٦ فبراير:

إلى فرانك كوتريل — الأبيض ١٦ ديسمبر ١٩٣٥

كردفان تنبض بالحياة، وتفيض بالاحتمالات السياسية والاقتصادية - مديرية عظيمة للمثاليين، وسكانها طيبون، وإدارتها الأهلية واسعة، ومستشفياتها جيدة، ومدارسها في توسع وازدياد. كل ما أرومه هو مزيد من الوقت لأفكر، ولأقرأ، ولأقوم بزيارات. لدينا صفحة بيضاء هنا، نحن جارين الكتابة فيها بجد - في المدن والصحارى، والحقول. شخصياً أوافقك على رأيك عن الإسلام، فالإسلام، قاعدة

طيبة لفعل الخير، والحب الأسري، والسيطرة على الذات، ولكن الإسلام دين ساكن ونصراؤه غير ورعين. كما وأنه ليس أسطورياً، وهذه مشكلته. فهو لا يترك شيئاً للخيال، ولا يلهم.

ما نحتاجه هو مزيد من التعليم الأولي. أهم المسؤولين في البلاد هما قريفث وبيكون (مدير بخت الرضا ومساعده الذي أصبح في ما بعد مديراً للتعليم). هما مثاليان وأيديهما مطلوقة لحد كبير.

الاقتصاد لا بأس به طالما كان وصيفاً للثقافة والراحة والتعليم. بخلاف ذلك سيكون جحيماً.

إن مصلحتك (ليست جميعاً - ولكن غالبها) ومصلحة المالية، يطالبون بالاستغلال وزيادة في السلع المصدرة. أنا أنادي بالتصدير ولكن بدون مبالغة - فقط للحصول على غذاء أفضل للأطفال ومزيد من المدارس والمستشفيات، وليس للمجد والشهرة.

لا يمكنك وضع السودان في صندوق زجاجي، أو الاعتماد على المقايضة أو خلافه، ولكن في إمكانك أن تبطل شرور الازدهار المادي بالتعليم الجيد المبني على أسس دينية، كما تمكنك من نشر أو توزيع أرباحك.

بالنسبة للحكم غير المباشر، فالكتاب الحجة يكلف شلناً واحداً، ويمكنك طلبه من وكلاء التاج للمستعمرات في ٤ ملبانك، لندن س. و. أ. كاتبه هو السير دونالد كاميرون، واسمه «مبادىء الحكم الأهلي وتطبيقه» هو جيد للغاية.

أما بالنسبة لعملنا هنا، فأنا أحاول بناء نظارات في مناطق العرب بموظفين متعلمين، ومحاكم عادلة، وملكية للفلاحين، وتطور معتدل في زراعة المحاصيل، وتربية الماشية، والحرف اليدوية، وزيادة المدارس الأولية وسط القبائل، واستعارة الموظفين المحترمين للعمل في الإدارة الأهلية وخلافه، وكذلك تسلسل إداري من الأقليات الخيرة والديموقراطية القائمة على روابط القرابة والتجاور لحد ما، والعديد من الأطفال المبتسمين.

أما بالنسب لجبال النوبة فكان لا بد لي من كتابة مذكرة اقتصادية... مرفق لك نسخة منها، أنا أقوم بعقد مؤتمر اقتصادي زراعي سنوياً في دلامي من اجل التعاون المشترك. المؤتمر الثاني سيكون الأسبوع القادم. هذه المذكرة هي مسودة للنقاش.

ثم هناك الإرساليات. اجتمعت مع سكرتارية الإرساليات وأخبرتهم عن أهدافنا. وقد أتفقوا على التخلص من الكثير من معتقداتهم البالية، وتمكنا من التوصل إلى سياسة منطقية لتنصير النوبة مبنية على أسس أهلية وأن نجاحها يتوقف على مدى إيمانهم وإيماننا بها.

كل تلك الأعمال محفوفة بالخطر، وغير مقنعة. ولكني أحلف لك بأننا جارين تحقيق شيء ما هنا. وقد قمت حتى بكتابة بعض الدعاء لكنيستنا بالأبيض. أنا لا أستحي من أن أصلي لهؤلاء الناس، أو لنفسي، أو لمصلحة الأشغال العامة. إذا كان لنا انتداب، أو تفويض فلنمارسه.

ومهما كان إرهاقي وقنوطي، فأنا أعلم بأن الناس طيبون، وجديرون، كما أعلم أن رصيدنا من التقاليد، والآداب، والثقافة، والطيبة، (وليس الإحسان) والذي نراه في كل أبرشية (وحدة إقليمية إنجليزية - المترجم) في إنجلترا، يمكن أن يعصر أو أن يوجه بعض قطرات الإيمان والجهد على هذه البلاد الجافة والعطشى.

ومرة أخرى مع بليك (Blake):

مدوني بقوسي الذهبي المجمر!
أحضروا لي سهامي التواقة!
سلموني رمحي، وانقشع يا سحاب!
جهزوا لي مركبتي الحربية النارية!
فحسامي لن يبيت في يدي
ولن أتوقف عن حربي الذهنية.
إلى أن يتم لنا بناء بيت المقدس
في أرض انجلترا الخضراء الجميلة.

«أنا بدين، وأصلع، وكثير التردد، وتحتي عدد من مفتشي المراكز مستعدون لعمل كل ما في وسعهم لرعاياهم، ولدينا تقاليد راسخة. وبما أن الرغبة تفشل أحياناً، وتصبح مكافحة الجراد مرهقة، إلا أننا نشعر أحياناً بالقوة والأهمية. وحتى هنا في الأبيض، بملاهيها، وقيلها وقالها، وأنانيتها فإننا نلمح وجوه المليون من قاطني كردفان الذين هم في حاجة لمساعدتنا.

لقد سعدت بمقابلة الحاكم العام لمدة ساعة ونصف تحادثنا فيها عن المثالية وعن الوصاية. قال لي إن العاطفة تعوق التطور، وأن الحكم المحلي هو عادة عذراً لعدم العمل. أخبرته: «أوافقك، ولكن ذلك ينطبق على الأغبياء والأوغاد والكسالى، والذين يخربون أي سياسة. هل أنت مثالي أم لا؟ الناس يعتقدون بأنه لا يوجد أي دافع ثقافي أو أخلاقي في سعيك لتحقيق الازدهار المادي. فهل لديك أم لا؟

كانت إجابته بنعم «ولكني أكره التأثر بالعاطفة، ولذلك لا أحب أن أعلنها». قلت له أنا لا أتحرَّج من إعلانها، وسأعلن المثالية في كردفان. قال لي «لا مانع».

على أي حال فهذا هو الوضع - عليك أن تبحث عن عقيدة وتتمسك بها. عقيدتي هي: «أن أوفر أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس، الاطفال الابرياء، صداقة القبائل بعضها بعضاً، الوحدة الأسرية، ثيران سمينة، ومحاصيل ناضحة، ومياه وفيرة وعذبة، ومفتشي مراكز متعاطفين، وفنيين مستنيرين، لا أسرار، ثقة في الشيوخ وفي الأفندية وثقة بالله. وسأثير المشاكل مع أي إنسان يحاول منع هذه الأشياء أو يسخر منها.

لقد بدأت هنا بكثير من التقسيمات، كما لاحظت أنت، والآن بعد سنتين أنا جاري الدمج.

على اي حال يا فرانك لا تنزعج أبداً، ولا تعطي فرصة لدنقلا لتقتل روحك. لا بد أن يكون هناك أطفال وضحك في بعض الأركان.

يقول بيكون: «قد نتحدث كما يحلو لنا عن الزنبق، وعن الأسود الهائجة، والنسور المحلِّقة فوق الحقول الذهبية والفضية، ولكن لو كانت الشعارات والرموز (التي

تنقش على دروع النبالة) يمليها العقل، فمحراث في حقل منزرع سيكون أنبل وأقدم سلاح».

هذا البلد قائم على الفلاح وليس على المستثمر. وقد سبق أن قال تولستوي عن مفتش مركز روسي «فقط عندما شعر أنه متناغم مع الفلاح بعدئذ بدأ في توجيهه».

هل كانت شركة أقطان كسلا متناغمة مع الهدندوة؟

لا. وقد فشلت رغم أنف ليفربول والخرطوم. القوة ليست دائماً على حق، وأنا أعلم أن العمل الصالح سينجح إذا توافر له بعض الأعوان. ولكن، كما تقول، لا بد لنا أن نعرف الشيء الذي نرومه. أعتقد أنني أعرف ما أرغب فيه وكذلك أنت. إذاً دعنا نعلنها داوية من أعلى المنابر.

الفصل الرابع

كردفان - سنوات الإبداع

١٩٣٥ - ١٩٣٨م

إن إدارة مديرية، أو مركز، في بلد كالسودان هو عمل ممتع بشكل غريب. أما الأحداث الخارجية مهما كانت خطورتها فغالباً ما تتوارى كخلفية. ومع ان عامي ١٩٣٥ و١٩٣٦ شهدا حادثتين في غاية الأهمية بالنسبة للسودان، إلا إنهما لم يردا أبداً في ما تركه لنا نيوبولد من مذكرات ورسائل. ولكن في رأيي أن الإسقاط سببه أساساً ضياع الرسائل. كان اهتمام نيوبولد الأساسي، بالطبع، لمديريته، ولكن ما عثر عليه من رسائله ومذكراته كان ضئيلاً جداً بينما كانت الحادثتان مثار نقاش وقتها.

تلك الحادثتان كانتا: الغزو الايطالي للحبشة، والاتفاقية الانجليزية - المصرية بشأن السودان عام ١٩٣٦. الأولى نصبت عدواً سياسياً قوياً على طول حدود السودان الشرقية. والثانية أعادت النفوذ المصري الذي كا ن معطلاً منذ عام ١٩٢٤، كما حرّك الشعور الوطني السوداني باعثاً فيه حيوية نشطة.

في كردفان، نجح نيوبولد في معركته لتطوير منطقة النوبة لمصلحة أهلها بخطة مبرمجة، كما كان متوقعاً له أن ينجح.

وفي خلال السنوات التي تلت تم تطبيق القرارات التي اتخذت في مؤتمر دلامي عام ١٩٣٥. وقد قادت خططه لتطوير الحكم المحلي والخدمات الاجتماعية، وصداقته مع مارجري برهام - والتي بدأت في ذلك الوقت - للتعرف على نظريات وتطبيق الحكم الاستعماري في جهات أخرى، لإعداده لتبوؤ منصب السكرتير الإداري عام

١٩٣٩. وهذا قاد أيضاً لتلاشي الاهتمام الزائد بالمسائل المحلية مقارنة بالمسائل العالمية، خصوصاً عندما تفاقمت ضغوط الأحداث عندما اتجه العالم للحرب. فقد كان ذهنه مشغولاً بمحيط أوسع وهو يجول عبر مديريته، محاولاً إقناع سكان شرق كردفان لقطع الأشجار من أراضيهم وزراعتها بمحاصيل أقل عائداً من القطن، ومتملقاً أحياناً، ومجبراً أحياناً أخرى متمردي النوبة لأخذ مرضاهم المصابين بالسحائي الى المحاجر الصحية، ومستمعاً لأساطير القبائل وحكاياتهم عن مفتشي المراكز السابقين (ومن بينهم هو وكانوا يسمونه نيوبر)، ومسجلاً لعادات أو راسماً بالقلم لأشكال بعض الشخصيات التي التقاها «فلان الذي يشبه الجنايني المستأجر، والذي يقولون عنه إنه ذكي، وفلان غير الجذاب والذي يقهقه ولكنهم يحبونه، وفلان الذي يوافق على كل شيء». الأخير يذكرني بوصف ثرنق (Thring) لأحد مساعدي أساتذته: «إنه مثل عباية مبتلة، تتكرمش حيثما قذفتها».

وقد بعث برسالة تهنئة لكندي - شو بمناسبة خطوبته في يوليو، وتمنى لو كان في إمكانه أن يحذو حذوه، «لكنني بدين وأصلع وقد بلغت الأربعين). وفي عام ١٩٣٦ توفي أخوه الأكبر والذي «علم بنهايته قبلنا، وتعامل معها بمنطق، وكان يقيس وزنه باستمرار، وقد رتب أموره بهدوء، واستمر في قراءة سجلاته العلمية والتعليق في هوامش كتبه إلى النهاية». وأثناء عطلته قام بزيارة جزيرة أران بإيرلندا ليبحث عن الآثار المحلية ويدرس نظام الحكم المحلي الإيرلندي. وقد خلص إلى: «إن نوبتنا أحسن حالاً من مزارعي إيرلندا. أنا لم أشاهد الفيلم ولكني أخبرت أن أران تشبه جبال النوبة أو العكس. القرية الرئيسية تمدنت بعض الشيء، وفتياتها يلبسن الطرح والأحذية ذات العقب (كعب) العالي. ولكن على العموم فإن مستوى تحضر الجزر أشبه بدرجة تحضر منطقة «عيال بخيت» في النهود «هواء ساكت وحجر». وقد وجد أيضاً الزمن ليدرس سلالة الخيول في منطقة الغابة الجديدة. الحرب الأهلية الإسبانية سببت له الاكتئاب الشديد - «صحيفة التايمز تعطي وصفاً دقيقاً وقاتماً عن الأحوال البائسة والمستقبل المظلم. لم أكن أتصور أن الإسبان لهم مثل ذلك النشاط.

كنت أعتقد أنهم فقط يجلسون ويقولون «غداً؟»... بيفربروك وروذرمير (أصحاب صحف بريطانية كبرى - المترجم) قد يعتقدون بأن الامبراطورية في تدهور شديد، وأن حكامنا عاجزون، ولكن سكان «نوفنت» (قرية صديقه كندي - شو) وسكان «إيست قرنستد»، (قرية نيوبولد)؛ وسكان الأبيض في إمكانهم أن يعملوا ويأكلوا، ويناموا، ويترحلوا دون أن يقتلهم القناصة، أو أن يوضعوا في معسكرات الاعتقال، أو يضطروا لتحية تمثاليَ موزلي أو ماكسون (قادة الحزب الفاشي في بريطانيا - المترجم)، طبعاً من الصعب أن تدير ثورة تحتاج لحشد جموع غفيرة في بلد ممطر».

خلال شتاء ١٩٣٦ - ١٩٣٧ زارت مارجري برهام الأبيض ضمن زياراتها التي كانت تقوم بها لدراسة حكومات المستعمرات. والصداقة التي نتجت بينهما أوجدت له لأول مرة الفرصة لمراسلة شخصية خارج جهاز خدمته وبلده، والتي كانت مع ذلك خبيرة في مشكلات البلاد الشبيهة. كان يراسلها دون قيود، كما كان نقدها ومقترحاتها تحفزه دائماً. بالإضافة لذلك فقد عرفته برئيسها، لورد لوغارد - أكبر حجة في تاريخ الحكومات الأفريقية ومستودع الخبرة الإدارية.

أول رسالة منه لها كانت عندما غادرت الأبيض الى مديرية النيل الأزرق والتي اعتذر فيها عن تبلد إحساسه نوعا ما خلال زيارتها.

«نحن لا نجد الوقت الكافي للدراسة والتأمل أو التوثيق تحت هذا النظام الذي يطالب بالتجديد. وتجديني آسفاً لعدم ترابط وعمق معلوماتي. استلمت برقية منذرة من واد مدني بعد مغادرتك، يسألونني إذا كنت تلعبين «البردج» (لعبة كوتشينه اشبه بالوست - المترجم)، وقد جاوبتهم بأنك تفضلين السم على البردج وأنك في حاجة لوقت طويل من الراحة لوحدك خصوصاً قبل وبعد العشاء للقراءة والكتابة. أرجو أن يكونوا منحوك ذلك.

كوبيت (صحافي وسياسي وكاتب انجليزي ١٧٦٣ - ١٨٣٥ - المترجم) وصف لندن بـ: «الورم العظيم». الخرطوم أيضاً كذلك، ولكني آمل أن تكوني استوعبتي نزعتها، كما أرغب في معرفة رأيك عن مشروع الجزيرة.

من الوقاحة أن أقترح عليك أي نقاط لمقالتك عن السودان، ولكن - بما أنك ذكرتي أن العلاقة بين مفتشي المراكز والأهالي ودية، وبما أن بعضنا أكثر رغبة في المحافظة على ذلك من الأهداف غير المجدية الأخرى - فقد تساعدينا اذا ما ألحيتي بأن لا تتخذ أي خطوة مهما كانت منطقية، إذا كانت ستعرض هذه الحالة السعيدة للخطر».

ذهب نيوبولد الى شرق كردفان في يناير ١٩٣٧ ليساعد في تأسيس إدارة الجوامعة، والتي ستصبح مثالاً لبقية السودان وتزود المجلس الاستشاري لشمال السودان بأحد أعضائه الأكثر حكمة واستنارة (الشيخ يحيى أحمد عمر)، والتي حرمت وفاته المفاجئة في عام ١٩٤٨، المجلس التشريعي المستقبلي من احتمال بروز قائد متمكن وحلقة وصل بين المدينة والريف.

وقد حضر اجتماع المحكمة واستمع للناظر - والد يحيى يعطي شرحاً واضحاً لمبادئ حيازة أراضي القبائل. ثم تجول في المركز مسجلا أنه قضى ليلة في استراحة ضخمة بها سجاد وأشياء أخرى مثل ما يوجد في الكنائس. الأرض منبسطة وشبه رعوية، والماء على عمق ١٢٠ إلى ١٤٠ قدماً، والجمال لم تشرب منذ شهرين بسبب برودة الطقس».

في فبراير كتب لكوتريل والذي كان جاري، الاستقالة من مصلحة الزراعة:

«كنت أعلم أنك لست مرتاحاً، ولكني كنت أتمنى أن تجد لك مكاناً ووظيفة في هذا البلد تعطيك مجالاً للعمل البناء والأفكار البناءة. ولكني أدرك الصعوبات التي تواجهك، وبكل صدق، أنا لا أعتقد في مثل هذه الظروف هناك جدوى من بقائك.

إنني أشعر بأنني مكره ومنهك - عندي وظيفة جيدة هنا، ولكنها متعبة للغاية - حلول وسط أبدية بين المبادئ والتطبيق. أنا لست متطرفاً، ولم أكن يوماً ما، والحلول الوسط هي التي تسيّر الحياة ولكن يجب أن تكون حلولاً وسطاً بالنسبة للتطبيق أو التفسير أو خلافه، ولكن ليس بالنسبة للأساسيات. أنا لا أعتقد أن هذه الحكومة سيئة، إنها أفضل من معظم حكوماتنا الاستعمارية، والناس هنا على الأقل يأكلون ما

فيه الكفاية، ويدفعون ضرائب قليلة، ويعيشون احراراً. وقضينا على تجارة الرقيق، وأطعمنا الجوعى. لقد تسببنا في أضرار ايضاً، لكن كفة الخير الذي فعلناه كانت أرجح.

لا تسيء الظن بنا، فبيننا كثيرون يرغبون في مساعدة الناس هنا، وكثيرون منا ينجحون في عمل ذلك. أنا أعلم بوجود كسالى، وأنانيين، وباحثين عن الثراء، ومع ذلك اعتقد بأنها حكومة ليست سيئة بوجه عام، علماً بأن لا كمال لأي حكومة. لم نغير طبيعة الأرض خارج منطقة الجزيرة، وقد كافحنا الأوبئة، وعلمنا القبائل المتحاربة السلام والصداقة، وبسطنا الأمن في الدروب للأطفال، وبدأنا في تأسيس المدارس. ولكن التطور الحديث يعقِّد العمل، وأنا دائماً على عجل، والعجلة تولّد الأحكام الخاطئة والتفكير الخطير والقراءة السطحية والأفعال الاعتباطية، أو، وهذا أسوأ، الإسقاط الاعتباطي. الخطوط الجوية، والسجون، واعمال السحرة، والطرق، والقطن، والشرطة، والمدارس، والضرائب، والجريمة، وسياسة القبائل - يا لها من خلطة عجيبة

أحياناً، عندما أقضي يوماً طويلاً في عمل مضن، أو أرهق نفسي في محاولة لتحسين التعليم أو الصحة، أشعر أحياناً باليأس عندما أقرأ (كما حدث قريباً في مجلة تايم وتايد) أن اسم الرجل الأبيض في افريقيا في الحضيض.

يتبقى لي من خدمتي ست سنوات وأنا أرغب في البقاء هنا. ليس فقط لأتحصل على معاشي، ولكن لأن عندي المجال والحرية أن أنجز، ولكنه عمل مرهق للغاية.

وخلال مايو استمر معه الشعور بالإحباط:

❐❐❐

إلى كندي - شو تلودي ٢ مايو ١٩٣٧

في هذا الوقت من السنة تثور الهبائب في الشوارع، وتجف صهاريج المياه، وتهمد الرغبة، ويذهب كبار الموظفين لقضاء العطل الطويلة (أرجو أن تكون قد استبينت

صورة «الكهنة» الإنجيلية). على أي حال، وبعد شهرين كاملين دون انقطاع من العمل المتواصل في المكتب، قمت برحلة إلى الجبال الشرقية ومكثت مع الشاب قوين بل، مساعد مفتش المركز هناك. سنتسلق هذا المساء جبل لافوفا (الذي شهد آخر حملة عسكرية عام ١٩٣٠ - نأمل أن تكون الأخيرة)، وسنقضي الليل في استراحة جميلة في القمة مع النوبة.

وبعد أن أقوم بزيارة كادوقلي والتي بها الآن تسعة موظفين بريطانيين، يجب أن أرجع للأبيض سريعاً لحضور احتفالات تتويج الملك - أعلام وأبواق وسبق صبيان و«يعيش جلالة الملك جورج».

❐❐❐

٩ يونيو -

انعدمت الرغبة تماماً لمواصلة هذا الخطاب. آسف. عندما عدت للأبيض انغمست في احتفالات الولاء، ثم في الملفات التافهة عن تسويق الصمغ وخلافه. كما ذهبت في رحلة إلى شرق كردفان، وحينها أمطرت السماء وعم الرخاء. عمل المكتب خفيف والطقس بارد والبجع تطلق صيحات العشق في حديقتي. يمكنني أن أذهب للعطلة في أي وقت أشاء، حيث تم موريسون (نائبه) سيرجع غداً، في الواقع سأغادر في أول يوليو. كان بودي أن أمر عليك في طريقي، لكن والدتي متوعكة بعض الشيء. هي أحسن كثيراً الآن، ويقولون إنها ستعيش لعمر «أخضر» مديد، (لماذا أخضر؟ أليس ذلك لون المرض؟) ولكنها الآن تتناول افطارها في سريرها وعليها أن ترتاح في سريرها كل عصرية. هي تكره ذلك (مع أني ذكرت لها أن الشابات هنا في السودان يفضلن ذلك). ولكنها لا تدرك (ولا أنا) أنها الآن في عامها الخامس والسبعين. ولذلك لا ارغب في ان اكون بعيداً عن الأخبار. هي تقول إنها بصحة جيدة ولكنها غاضبة لأنهم منعوها من الانحناء. وكيف سيتسنى لها الاعتناء بحديقتها دون أن تنحني؟ لا بد لنا من رفع أحواض الزهور أو ربط الخص في ركائز طويلة!

الطليان يمورون داخل وحول قمبيلا وماجي ويطالبون بمرتفع بوما. القائد العام في ماجي (حسب تقارير الاستخبارات) أكثر قسوة من الأمهرا، وقد منعه المارشال قرازياني من حمل مسدس (لأنه يطلق النار على أي من الأهالي يعترض طريقه) يعيش الدوتشي (موسليني) حامي الاسلام!

كتاب مارجري برهام الجديد عن الادارة الأهلية في نيجيريا (مطبعة جامعة أكسفورد) رائع. وقد أهدتني نسخة موفرة على ١٧½ شلن، لأنني راجعت لها بعض المواد. والآن اتشوق لقراءة مقالتها عن السودان.

ستعين حكومة السودان خبيرا للآثار والانثروبولوجيا. من المحتمل أن يحظى آركل بالوظيفة. وصلنا هنا جون سمث (خبير الغابات ثم مدير مصلحة الزراعة لاحقاً) وقد بدا عليه الكبر ولكن نشاطه لم يقل، وهو جاري زيارة غابات الهشاب والكتابة - أعتقد تحفة أدبية عن الصمغ. أنا معجب بجون سمث، لقد أصبح من أنصار الإدارة الأهلية. لا بد لك أن تتعرف على بعض موظفي إدارتنا الأهلية، ليست مثل نيجيريا، ولكن خليط من شيوخ القبائل والافندية (النوع المحلي الافضل). شرق كردفان كلها إدارة أهلية واحدة وتشمل ١٨٠٠٠٠ نسمة، وقد تم إنعاش مملكة تقلي وبها ١٠٠٠٠٠ نسمة.

❒❒❒

إلى أ. ج. آركل — الأبيض ٢٩ أكتوبر ١٩٣٧

أرجو أن تكون وظيفتك تابعة لوزارة التعليم ليس فقط لأن كوكس (مدير التعليم) شخص ممتاز وذكي، وانما لأنها يجب أن تكون كذلك. من الصعب تقييم (أ) الصلة بين فائدة الآثار وعلم الأجناس في السودان و(ب) والصلة بين السرعة في اكمال تدريبك لأيّ منهما. أنا كموظف أرى أن علم الأجناس أهم، ولكني كدوغلاس نيوبولد أضع الآثار أولاً. في الواقع أعتقد بالنسبة لحاجة عملك الآنية يجب أن تضع الآثار أولاً. هناك الكثير المفروض عمله بالنسبة للإشراف على المتاحف في الخرطوم وفي الشمالية،

يمكنك ترك عمل الانتروبولوجيا إلى إفانز - ريتشارد (أستاذ في علم الأجناس بجامعة أكسفورد)، ونادل (استاذ علم الأجناس بجامعة كانبرا - أستراليا) وحالياً هما يعملان في السودان، ولذلك أرى ان تركز في رحلتك الدراسية على الحفريات وعمل المتاحف.

أعتقد أفضل لقب لوظيفتك هو «خبير الحكومة في علم الأجناس والآثار»، ولو أنه طويل الا أنه من ناحية الدعاية والمعهد الأفريقي والمعهد الملكي لعلم الأجناس لا بد من ذكر علم الأجناس في اللقب. للأسف ليست هناك كلمة مركبة تفي بالغرض. أما إذا كان اللقب غير مناسب فخبير علم الأجناس يكفي، حيث إن علم الأجناس يشمل علم الآثار. تذكر إذا أوهمت للناس أنك مدير متحف أو صائن للموارد الطبيعية فقط فهذا لن يؤهلك لأن تشارك في اجتماعات الإدارة الأهلية، أو العمال، أو الإرساليات وخلافه. وكخبير حكومة لعلم الأجناس ستكون إضافة لمجموعة كبار الموظفين الصغيرة في الخرطوم الذين يمثلون العقلية الأهلية ويواجهون الفنيين. ستكون مثل الجواد المقاد بحبلين يمسك أحدهما السكرتير الإداري، والآخر مدير التعليم، وهذا شيء مفيد في المناطق الجبلية.

❐❐❐

إلى أ.ج. آركل — الأبيض ١١ نوفمبر ١٩٧٣

أنا سعيد أنك عرضت لكتاب مارجري برهام «الادارة الأهلية في نيجيريا» في «السودان في رسائل ومدوّنات». كان لا بد من عرضه، وقد أعجبتني وجهة نظرك، وعندي ملاحظة أو اثنتان بسيطتان سأتركهما لك هنا.

من الصعب معرفة كيف سترتب تدريبك في علمي الأجناس والآثار. أقترح عليك أن تستشير كوكس، فرغم أي شيء فإن وظيفتك هي كمفتش حكومي. لا يتوقع منك أن تكون خبيراً متخصصاً في علم الأجناس أو مكتشفاً ولكن يجب عليك

الإلمام بهما وغربلة المقترحات وتقييم طلبات المقدمين وحفظ الآثار وبوجه العموم إحياء العلمين.

□□□

إلى كندي - شو الأبيض ٢٧ يناير ١٩٣٨

خطابك الطويل بتاريخ ٤ ديسمبر كان مذهلاً نوعاً ما، وبختم «السكرتير الأول». لم أشعر بأي حسد - لأني كسول وهاوٍ - عندما سبقتني كمكتشف وعالم آثار، ولكني أشك أن غشاء مخي الغليظ سيظل سليما اذا ما سبقتني لوظيفة السكرتير الاداري، ولو أن فلسطين بحاكمها ماكمايكل وأنت سكرتيرها الأول لا بد من أن تظفر باللبن والعسل أخيراً. أرجو أن تكون قد دبجت مذكرات ضافية.

لم أعين سكرتيراً إدارياً بعد، ولو انهم أخطروني بأن ذلك سيتم في عام ١٩٣٩. سأذهب للخرطوم في نوفمبر القادم كنائب للسكرتير الإداري لأتدرب تحت جيلان، أما يوان كامبل، المحظوظ، سيصبح مديراً لكردفان. على أي حال فقد قضيت خمس سنوات جميلة هنا مع مساعدين أكفياء وأمطار جيدة، واكتسبت كرشاً ووسام «قائد لجماعة الامبراطورية البريطانية» ولذلك لم تكن سنوات بائسة. أعتقد تكفيني سنتان هنا وبعدها أتقاعد في كوخ صغير في قرية بارفورد سنت ماقرز لأقرأ وأكتب وأزرع الخص والكروم.

□□□

إلى فرانك كوتريل الأبيض ٣٠ مارس ١٩٣٨

تهانينا بمناسبة تعيينك مفتش مركز. لا أدري أي مركز هو ولكني سأحاول أن أعرف. أنا سعيد جداً برجوعك...

أنا مبتهج لنجاحك في كورس المستعمرات وكورس العربي. لا بد أن تكون الآن في غاية التأهيل. لم تكن عندي أي مشاكل مؤخراً، حيث ليس لدينا مشاكل مقيمين،

او حدود أو نقابات - ويمكننا أن نتقدم بخطى ثابتة ورزينة في تفويض السلطات الإدارية، والمالية والقضائية من المدن والريف. وبالإمكان رسم سياسات تنمية اقتصادية إقليمية بهدفين محددين فقط:

أ) رفاهية الأهالي.

ب) التمكن من سداد القرض.

أنا لا أدعي أن كل شيء الآن هو لبن على عسل، ولكننا أنجزنا اثني عشر اتحاداً قبلياً مهماً في الخمس سنوات الماضية، ولدينا ثلاث ميزانيات ادارة أهلية (٦٠٠٠ و ١٣٠٠٠ و١٩٠٠٠ جنيه). وهناك خمسة نظار عموم يحكمون خمس وحدات قوامها أكثر من نصف مليون نسمة . مراكز بارا، ورشاد، وشرق كردفان، كل منهما الآن وحدة إدارية أهلية. وعندي الآن خمسة موظفين من خريجي كلية غردون داخل الإدارة الأهلية. قانون الحكم المحلي للمجالس البلدية أوشك أن يصدر، وقوانين الحكم المحلي قد تم نشرها، كما وأن مسودة مذكرة مالية عن الإدارة الأهلية تناقش الآن (لقد دخلت في خلاف في هذا الموضوع). هبوط أسعار القطن تلوح في الأفق، وسيسبب ذلك تخفيضاً في مستوى المعيشة، ولكن في رأيي إن ذلك لن يؤثر علينا كثيراً هنا. مديرية كردفان صدّرت ما قيمته ٧٥٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٣٧ من اثنتي عشرة سلعة رئيسية (توزيع البيض على السلال!) - الصمغ، والقطن المطري، والحبوب، والسمسم، والفول السوداني، والأبقار والجمال وحب البطيخ، والجلود والسمن وخلافها - المحاصيل الغذائية مؤمنة. تقرير دي لاوور عن التعليم تمت الموافقة عليه، وسيكلف ١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني في العام مما يرفع الصرف على التعليم إلى مستوى الصرف على الخدمات الصحية (٢٨٠٠٠٠ جنيه). مصر خفضت ٢٥٠٠٠٠ جنيه من دعمها البالغ ٧٥٠٠٠٠ جنيه. ولكن عندنا احتياطي جيد، حوالى ٨,٥ مليون جنيه إلى نهاية ١٩٣٨. كان الفائض العام الماضي قياسياً، ولكن ما زالت التزامات ديوننا عالية (حوالى مليون جنيه في العام) بالاضافة لالتزامات الاشغال العامة.

إلى مارجري برهام (وهي في زيارة ثانية للسودان)　　　الأبيض ١١ مارس ١٩٣٨

لن أتفادى مسؤولياتي. شكوكي الوحيدة كانت هل يمكنني أن أتعرف على كردفان وأحبها وأحب أهلها، وهل عندي النشاط الكافي؟ أوَليس أفضل لي أن أعمل المزيد لمساعدة المليون ونصف من السكان هنا بدلاً من الذهاب إلى الخرطوم المزعجة حيث لن أتمكن من مساعدة أي أحد على الإطلاق. السكرتير المالي يستغرب من انتقادي للمذكرة المالية، ويقول إنها مالية وليست سياسية، ويقول انها تحت الطبع ويأمل أن أقبلها. ولكنه كان كريماً واخرها. لقد اسعدتينا بزيارتك وأنت دائماً تساعديني على التفكير، نحن لا نفكر ما فيه الكفاية. لقد زاد نشاطي منذ وصولك ولكنه نشاط مشاكس - ضد السكرتير المالي في ما يختص بتمويل الإدارة الأهلية، وضد مصلحة الزراعة في ما يختص بحال الاحتياط، وأمور صغيرة أخرى.

نعي ريد (مدير النيل الأبيض) لعلي التوم كان ممتازاً للغاية. ريد كان صديقاً شخصياً لعلي التوم وكان يعرفه أحسن منا كلنا. ما كنت أرغب أن أكون عاطفياً في حالة نشرها في «السودان هيرالد». الحمد لله أن عملية التوالي كانت مرتبة.

قد اضطر لمغادرة إنجلترا في أول يوليو. هل في امكاني الحضور لقضاء ثلاثة أيام في المدرسة (مدرسة صيفية للدراسات الادارية الاستعمارية في جامعة اكسفورد كانت مارجري برهام نائبة رئيستها). الوقت غير مناسب ولكن حسناً فعلت بانشائها.

مشروع الجزيرة يمثل لغزاً بالنسبة لي، قرأت قليلاً عنه وأعرف أقل، لقد تسبب في ان يغادر آخر اثنين من مديري مديرية النيل الأزرق البلاد نهائياً، ولا أدري كيف سيحتمل مايال البقاء فيها طويلا مع مشاكل معدته.

أعتقد أنك اطلعتي على المرفق الخاص بالمحميات (من جنوب أفريقيا). لم أدرك أننا تعهدنا بأن نأخذ موافقتهم للتحول قبل أن نعمل أي شيء. كنت اعتقد أننا تعهدنا فقط بالمشاورة، أنا سعيد بذلك.

إلى مارجري برهام ايست قرنستد ١ يونيو ١٩٣٨

ارفق كل مسودة مقدمتي للمذكرة المالية للادارة الأهلية. وأعتذر لوضع النبرة على «خصوصيتنا». كان ذلك بموجب تعليمات. لقد أعطوني فرصة كتابة خمسماية كلمة فقط. وكان همي أن تعلن الحكومة أنها مقتنعة باللامركزية المالية. والمديرون في إمكانهم تفادي الرقابة الحكومية بأساليب تكتيكية بمجرد اشتداد ساعد إداراتهم الاهلية.

بالإشارة للمقالة القصيرة في صحيفة الجمعية الأفريقية الملكية الدورية لكاتبها س.م. هور - رثغن عن معهد جنوب أفريقيا للعلاقات العرقية، هل تعرفين أي شيء عن هذا الموضوع وعن نشرتهم «العلاقات العرقية»؟ لا تذكر المقالة أي شيء عن العلاقات الاجتماعية، ويبدو لي انها معنية اساسا بالضغط على الحكومة بطريقة غير مباشرة لتكون أكثر أنسانية وأن تنشىء مجالس للرفاهية مختلطة.



إلى مارجري برهام إيست قرنستد ١٣ يوليو ١٩٣٨

أملي أن يضع مكتب السكرتير الاداري خطة لإنشاء ملتقى ثقافي. لا أرى سبباً لعدم عملهم ذلك، بالرغم من عراقيل غير المتحمسين إذا تمكنا من أخذ تعهد من الحكومة لمنحنا موقعا مناسبا ومساهمتهم بـ٥٠ في المئة من تكاليف البناء ومباركتهم العامة للمشروع، فيمكن للجنة صغيرة أن تقوم بوضع خطة ما.

بدأ الاقتصاديون يتحدثون عن الكساد ويقولون بأن المستقبل سيكون مظلماً نسبة لتدني أسعار القطن والصمغ. ولكن هناك العديد من البرامج التي يمكن تخفيض ميزانياتها لتوفير التحويل اللازم للمشاريع المهمة.

كنت أعمل في الحديقة بهمة، أقطع النباتات الضارة، وأعرق وأرتاح لمدة عشرة أيام بين كل مهمة. أيضاً آخر يومين كنت أصنّف في كتب الأسرة، بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ كتاب. إنها عملية قذرة حيث غالب الكتب في الرفوف السفلى وفي أركان مظلمة،

خليط عجيب حيث اخواني واخواتي كانوا شغوفين بشتى العلوم: الاحصاء، وعلم الحشرات، والإجهاد الصناعي، وعلم الآثار، والتعليم الثانوي وخلافه. وقد رميت حوالى ٦٠٠ كتاب وآمل أن أبيع أو أهدي حوالى ٢٠٠ كتاب. بعض الكتب ممتع مثل إدارة الفيليبين التي كان عمي السكرتير الأول لتافت (الرئيس الأميركي)، وكذلك مادة ضخمة عن محاكم التفتيش الإسبانية في المكسيك حيث كان جدي هناك وكان متفقّهاً في اللغة الإسبانية، كما كان مسجلاً للمحاكم.

سأذهب إلى لندن بين ٢٠ و٢٤ وأرجع هنا لعطلة نهاية الأسبوع، ثم إلى قاعة مارقريت في اكسفورد (مقر المدرسة الصيفية التي تعلم فيها مارجري برهام)، حيث سأجلس مثل جماليل (عالم وأستاذ عاش في القرن الأول المسيحي، وناصر حواريّي المسيح، وعلم القديس بطرس، وكان مشهوراً بالعلم وبالتحصيل، وكل هذا مذكور في الإنجيل - المترجم). ستبدأي تعليمك بشخصيات مهمة!



إلى مارجري برهام — إيست قرنستد ١٦ يونيو ١٩٣٨

لا تنزعجي من كمية المرفقات.

(١) مذكرتك عن الملتقى الثقافي - أعيدها قد تحتاجين لها كنسخة إضافية - لقد أخذت صورة لنفسي.

(٢) مذكرة ماكدونالد عن خفاض النساء - أعيدها لك. قد طبعت صورة منها لمفتشي المراكز في كردفان، ولكني أتوقع أن أستلم نسخة رسمياً.

(٣) قائمة بادارات الحكم الأهلي في كردفان وفق المراكز، قد تساعد نوعاً ما. مليئة بالأرقام وجافة بعض الشيء، ولكني مستعد للإجابة على الأسئلة.

(٤) مذكرة من السكرتير الإداري عن مساعدي المآمير - يمكنك

الاحتفاظ بها - أنا ما زلت أكره الخطة.

قام الحاكم العام بحذف الفقرة الأولى من المسودة الخاصة

بـ (أ) العبء الكبير الملقى على عاتق موظفي الإدارة نسبة لتوسع النشاط الإداري (في رأي هو محق في ذلك).

(ب) الحاجة للبحث المتأني خلال السنوات القليلة القادمة في أنجع السبل لتحقيق تفويض وحدات الحكومة المحلية. ولكني ألاحظ أن مشروع نواب المآمير يشار إليه كتجربة. أعتقد أن الفقرة الأولى كتبها الحاكم بنفسه. اجد صعوبة في فهم «استبدال مفتشي مراكز بريطانيين بآخرين سودانيين بصفة مؤقتة».

أحدهم سوف يرسل إلى شرق كردفان، على أي حال هذا ليس من اختصاصي الآن. علمت أن السكرتير الاداري يزمع في تعيين عشرة نواب مآمير سودانيين في السنوات القليلة القادمة، أي ١٠٪ من جملة موظفي المراكز.

مقترحات كوكس عن التعليم قبلت - هل أخبرتك بذلك؟ انا سعيد بذلك لأن كرستوفر كوكس المسكين قد عانى كثيراً هذا الصيف، وقد انهك تماماً. الحاكم العام قدم المقترحات للمجلس كـ: «أهم مقترحات قدمت للمجلس خلال فترته كحاكم عام». ستكلف ١٥٠٠٠٠ جنيه في عام ١٩٤٦ مقارنة بمصروفات ١٩٣٦، ومتكررة. كذلك ستشمل نصف مليون جنيه مصروفات رأسمالية. المدرسة الثانوية المعروفة بكلية غردون سترحل وتنقسم إلى مدرستين.

لا ادري ماذا ترغبين لي أن أقوله في ندوة السودان. ولكنني رأيت أن أعرض لمدة عشر دقائق لمديرية كردفان، ادارتها الأهلية، وضرائبها وتنظيماتها العامة، وفي خمس دقائق أذكر مشاكلنا الرئيسية خلال الخمس سنوات الماضية - ومنع الأفندية، الزراعة، التعليم، العلاقة مع المصالح المختلفة، ثم أتلقى الأسئلة.

إلى مارجري برهام　　　　　　　　إيستن قرنستد ٤ يوليو ١٩٣٨

لقد حزنت جداً لمغادرة المدرسة. كان هناك الكثير الذي يبقيني وخصوصاً محاضرتيك الاثنين، والانتاج الفلاحي، ودونالد كامرون. ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. كيف كانت محاضرتك يوم السبت؟ لا بد لك أن تخلدي للراحة، وتأخذي قسطاً من النوم، وتخففي من عملك يا مارجري، وإلا فستنهارين. تذكري الكتب التي يجب عليك كتابتها.

لقد كنت مكتئباً نوعاً ما طوال عطلتي هذه بسبب نقلي من كردفان، ومغادرة كوكس وخلافه، ولكن تلك الأيام الأربعة في المدرسة كانت مبهجة، خصوصاً صغار مفتشي المراكز من البلدان الأفريقية الأخرى الذين قابلتهم هناك بروحهم التبشيرية، وسأجتهد لمواصلتهم.

لا تخفضي حجم المدرسة كثيراً. في رأيي ليس أقل من ٨٠ ولا أكثر من ١٢٠. إذا كانت صحبة الزوجات تسبب مشكلة لماذا لا تحددي للحكومات حصصاً واتركي القرار لهم. بوجه العموم أنا لا أحبذ اصطحاب الزوجات. أعتقد أن الترتيبات كانت ممتازة. انا آسف لعدم تقديمي مساعدة أكبر، ولكني أعتقد أن كبار الموظفين - ولو أن مشاركتهم مرحب بها - لا يجب عليهم ان يظهروا كرؤساء اللجان وخلافه حتى لا يغزو التسلل الهرمي للوظائف، المدرسة الديموقراطية. وقد كان واضحاً عدم وجود مندوبين ساميين من أفريقيا أو مفتشي مديريات (وواحد فقط من خارج أفريقيا - نقري زمبلان).

❒❒❒

إلى مارجري برهام　　　　　　　　الأبيض ١ أغسطس ١٩٣٨

لقد رجعت منذ أسبوعين. كل شيء جميل هنا - الطقس معتدل، خضرة، وسماء زرقاء، وسحب بيضاء، وكل الريف مكسو بسجادة من العشب الأخضر والأزهار

الغريبة، والروائح العبقة، وبرك المياه، ومالك الحزين الأبيض، والبجع بألوانه الزاهية - تغيير شامل للطبيعة من الصحراء الجافة بشجيرات الشوك التي استقبلتك عند حضورك هنا سابقاً.

عندي من العمل ما يكفيني وليس أكثر، والزمن للتفكير والمطالعة، أول مرة أشعر فيها بالراحة منذ خمس سنوات - شيء بديع! يا ليتك تتمكنين من الحضور. عندي موظف جديد صغير تحت التدريب اسمه رامزي، شاب في غاية اللطف ويجيد ركوب الخيل، ونركب سوياً لمسافات بعيدة على خيولنا كل عصر. امس قطعنا ١٢ ميلاً وأول أمس ١٥ ميلاً، وفي العطلات نرسل إفطارنا بعربة تسبقنا ونركب جيادنا إلى منطقة خضراء، ونتجاذب أطراف الحديث مع الأهالي - جو شاعري للغاية.

هل أخذتي عطلتك بعد؟ لا أحب أن أتخيلك منكبة فوق المستندات السودانية تلخصين وتحاولين الإمساك بخيوط السياسة أو بومضات المثالية من مجموعة كتابات غير مهضومة وغامضة.

انا متأكد من أن المدرسة كانت ناجحة. أرجو أن لا تكون سخرية إيفانز - برتشارد موجهة لكل الإدارة... لقد رأيت بروك الصغير (والذي سيصبح سلطان ساروك في ما بعد) ولكني لم أجد الوقت لأتعرف عليه. كان منهمكاً في الدراسة وقد رأيته يسجل كل ما يقال في كل محاضرة.

❐❐❐

إلى مارجري برهام الأبيض ١٠ أغسطس ١٩٣٨

لقد استغربت بعض التعليقات في التقرير السنوي لعام ١٩٣٧ عن مصلحة الزراعة النيجيرية في ما يتعلق بـ(أ) التعاون مع الخدمة الادارية والذي كما يبدو كان جيداً (أفضل من مصالح أخرى - لم تذكر)، و(ب) الزراعة المختلطة والتي تطورت كثيراً.

أنا متأكد أننا خسرنا لعدم اشراك المصالح الأخرى في أمر الحكم الأهلي - حقيقة هم كانوا يسخرون، ولو أنهم لم يمنعوا رسمياً إلا أننا لم نطلعهم عليها ولم يتلقوا تعليمات من جهات عليا انها جزء اساسي من الحكم المحلي يجب دراسته والمساعدة فيه. أنا جاري طباعة ماية نسخة من خارطة الحكم الأهلي في كردفان لأرسلها للست وعشرين مصلحة مع ملخص عن الحكم الأهلي (النظارات، والمكوكيات، والصلاحيات وخلافه) حتى تكون لديهم معلومات على الأقل. طبعاً يفترض أن يكونوا ملمين بذلك، وبعضهم يعلم ولكنهم يحتاجون للتلقين.

الأمطار هنا جيدة ولكن لدينا نقص كبير في الموظفين، لدينا فقط ٢ مفتشي مراكز مؤهلين وأربعة تحت التدريب، ولذلك لا أحد يضايقني.

أخيراً تحصلت على معلم تبشيري شاب للنوبة - ذكي ومثقف ومتعاون ويحب النوبة (من باركنج وخريج اكسفورد).

أرجو أن تحثي لوغارد لإصدار طبعته الجديدة لكتابه «الانتداب المزدوج» طالما هو بصحة جيدة. لقد أعجبت بمقالة جون هاريس عن المحميات في «تايم وتايد».

❐❐❐

إلى مارجري برهام — الأبيض ١١ أغسطس ١٩٣٨

أنا مرسل لك بظرف منفصل بعض النشرات المطبوعة الجميلة من مصلحة الاقتصاد والتجارة (بالتعاون مع مصلحة البيطرة ومصلحة الزراعة) عن الأبقار والسمسم، والفول السوداني وقطن طوكر، والدوم. إنها جديرة بالثناء (صدرت في مايو ١٩٣٨) لأن حكومة السودان كانت مشهورة بشدة البخل والإهمال بالنسبة لطباعة المنشورات والمستندات. ولكن من الملاحظ عدم ذكر أي شيء عن الحبوب، او الجمال، (هل لأن الأهالي يعرفون أكثر من الفنيين؟)، ولكن في النية إدراجهم في المستقبل مع ثلاثين صنفاً آخر.

أملي ان تطالبي في كتابك بإضافة مذكرات سياسية أو عن الادارة الأهلية... لدينا مذكرات مطبوعة أخرى عن الجراد وشمع النحل والآثار وخلافه، وفي رأيي من المفترض أن تكون الإدارة الأهلية على الأقل في أهمية شمع النحل (أم لا؟).

❐❐❐

وقد كتب رسمياً لمدير مصلحة الاقتصاد والتجارة في نفس الوقت يقترح مجلات عن الحبوب والجمال:

«بالنسبة لنشرة الدوم أقترح اذا ما تمت مراجعتها (أ) تضمين رسومات للدوم تظهر الطبقات الثلاث (لقد نسيت أسماءهما العلمية)، (ب) ان تجارة كسلا - تهاميام - دورديب كان سببها المباشر هو بناء خطط سكك حديد كسلا عام ١٩٢٤ و(ج) إعطاء بعض البيانات عن تقرير التأجيم (فرع من علم الجراحة يعنى بزراعة الغابات والاهتمام بها - المترجم). لغابات البحر الأحمر التي أعدها السيد/ كندي - شو في عام ١٩٢٦ على ما أعتقد، خصوصا في ما يختص بالتجديد والانتاج المتوقع لكل خور من أميال الغابات.

كذلك لدي مقتطف لطيف يمكن أن يكون مقدمة (كمقدمتكم لنشرة السمسم). إنها من كتاب قوستاف ناختيقال عن التبستي عندما وجد الأهالي في أيام المجاعة يكسرون جوزة الدوم للأكل، يقول فيها:

"يستمع الإنسان، في سكون الليل، لضرب الحجارة الممل على اللحاء القاسي الذي يحتاج كسره لصبر ومعاناة، مما ينبئ بأن ما يؤلم هو شجاعة الناس في معاناتهم لمقاومة الجوع".

❐❐❐

إلى و.ب. كندي – شو الأبيض ١٣ أغسطس ١٩٣٨

هل عدت مرة اخرى للمدينة المقدسة (القدس)؟ مكمايكل يبدو أنه يمر بوقت عصيب في فلسطين، وقد استغاث بنا لنرسل له بعض مفتشي المراكز من السودان من ذوي خدمة بين ٥ و١٠ سنوات. أي نوع من الناس ترغبون؟ أشداء، ديبلوماسيين - مستعربين؟

شارلس دي بنصون وانا – هو في مدني وانا في الخرطوم الشتاء القادم – ننوي أن نطهر أرواحنا من عقابيل التجارة، بركوب الجمال في بطن الحجر في أبريل القادم أثناء رحلتنا لإنجلترا في العطلة. سوف ننزل من القطار في محطة (نمرة ٦) ونركب الجمال البشارية لمسافة ٧٠ ميلاً غرباً إلى جبل كرور (٤٠٠٠ قدم) والذي يبدو أن لا أحد زاره منذ عام ١٨٩٧م (مثلثات تالبوت)، ونتسلق الجزء المكسو بالعشب (وأنا أتصبب عرقاً). سنبحث عن التصاوير الحجرية والمشغولات الذهبية وخلافه. ثم نقفل عائدين – طاهرون وبمزاج معتدل – ثم نلبس بدلنا السكروته مرة أخرى ونواصل رحلتنا لإنجلترا. أتوقع أن يكون الطقس حاراً جداً في أبريل، وقد لا نجد الجمال، ولكنها تسوى المحاولة وبالنسبة لي ستكون الرحلة الأخيرة.

لقد وقعت من مدخنة في جبل كردفان الأسبوع الماضي عندما كنت أتسلق مع رامزي الصغير – أجد متدرب – (فقط ثلاثة وعشرين عاماً، وأنا أربعة وأربعين اليوم، يا الهي!) وقد أدميت حوضي عندما كنت أتدحرج إلى أسفل المنحدر، ولكني لم أُصب باضرار بالغة سوى أني أشعر كمن جلد خمس عشرة جلدة.

الأمطار غزيرة هنا وكل شيء أخضر، وخط السكة حديد من الابيض للخرطوم مقطوع – الحمد لله لا حفلات ولا لبس رسمياً. لقد نقص وزني ١٤ رطلاً وآمل ان أنزل إلى ١٥٤ رطلاً (٧٠ كيلوغراماً) قريباً. أقوم بالتجديف في الفولة في مركب صنعه أحد البمباشية.

سأذهب إلى الخرطوم (مثل ديك وتنجتون ولكن بدون قطة) في نهاية أكتوبر - باقٍ فقط شهران ونصف من السعادة.

يوان كامبل والذي سيتولى كردفان مني في الخريف أصيب في حادث سير بالقرب من هاونسلو، وكسر حنكه وساقه. الله يعلم متى سيتمكن من العودة.

جوادي العجوز «دود» عمره الآن ٢٢ عاماً بدأ يذوي، وهذه مصيبة.

عرضت الحكومة البريطانية ان تبني ثكنات القتال بنفسها على أن تدفع مصر ٥ ملايين جنيه. رفضت مصر وقالت إنها مسؤولة بموجب الاتفاقية، والكرامة تقتضي تنفيذ المشروع بواسطة مصلحة الاشغال العامة المصرية. مصلحة الأشغال العامة المصرية قالت إن التكاليف ستبلغ ١٣ مليون جنيه، لذلك اضطر محمد محمود (رئيس الوزراء) أن يستجدي الحكومة البريطانية للمساعدة، أعتقد أن البريطانيين الآن يدفعون نصف التكاليف. لقد اخبرني بذلك (فلان باشا) وقال: «لماذا نحوِّل الحامية البريطانية اصلاً؟ هم مرتاحون في القاهرة ويلازمون أنديتهم ومقاهيهم ويندر أن نراهم في الطرقات، وهم أناس غير مؤذيين، ونحتاج لهم لمواجهة موسليني». قلت له هل يمكنك ترديد قولك هذا في المجلس؟ قال «بالطبع لا»).



إلى الكولونيل ف. س. ك. شو الأبيض ١١ أغسطس ١٩٣٨

تم تعيين قائد لقوة دفاع السودان اسمه الميجور جنرال بلات، وكذلك تم تعيين اللواء ستون، والذي كان سابقاً ملحقاً عسكرياً في روما، كرئيس للأركان. أنا جاري، في وقت راحتي كتابة تاريخ سلاح الهجانة قبل أن تنقرض الجمال بسبب الغازات المنبعثة من عوادم العربات.

أنا بصحة جيدة والأوضاع هنا مريحة في فترة الخريف بالرغم من الجراد ونقص الموظفين. المديرية بوجه العموم يديرها شبان في سن الرابعة وعشرين ولكنهم يؤدون

واجبهم خير أداء. أشعر بتقدم العمر (مع أني قد بلغت الرابعة والأربعين فقط الأسبوع الماضي)، لأن زوج والدة أحد الموظفلين عندي كان قد التحق بمدرستي في أبنغهام نفس العام الذي تخرجت فيه أنا.

ليست لدي أخبار تذكر عن البحر الأحمر ولكن أرجو أن يكون أوهاج وأهله في حالة طيبة. يبدو ان الهدندوة لم يطرأ عليهم تغيير في حياتهم، على حسب التقارير، ارجو أن تدوم حالتهم هذه.

❐❐❐

إلى يوان كامبل (في المستشفى) الأبيض ١٥/ ٩/ ١٩٣٨

الاخبار اليوم وامس مساء كانت سيئة بالنسبة لتشكسلوفاكيا، وتتضاءل أمامها مشكلاتنا المحلية هنا في كردفان. أرجو أن لا تضيع كل جهودنا في السودان بسبب حرب عالمية. سمعت أن تشمبرلين (رئيس وزراء بريطانيا) قد سافر جواً إلى برلين اليوم، أعتقد أنها خطوة حكيمة. أنا لا أحب سياسة تشرشل على الأقل خلال العام الماضي، ولكن سترينا الأيام ما هو خافياً.

سأذهب إلى النهود غداً في رحلة وداع. لقد زرتها أول مرة عام ١٩٢٠. يا ليتني أستعيد «السنوات التي أكلها الجراد». ولكنني قضيت وقتاً ممتعاً، ومهما يحصل في الخرطوم (التي أخشى أن أفشل بها) فلا شيء سيحرمني متعة الست سنوات الخضراء التي قضيتها في كردفان محاطاً بقوم ودودين بسحنهم السوداء أو البنية وموظفين متجانسين وأمطار غزيرة وتجارة رائجة.

أرجو أن تتماثل للشفاء قريباً، ولكن لا تستعجل. إقرأ وتأمل. أقترح عليك قراءة ماركوس أورليوس، فهو خير معين عند المرض. وإذا ما شعرت بالكآبة والوهن في الهزيع المتأخر من الليل فتذكر إيفلن والأطفال، وأيضاً كلمات رالف لويس ستيفنسون:

«انهضي أيتها الروح، واحمي ذلك الحصن الطيني
فان جسمك الآن أصبح محاصراً».

وكذلك خطبة باري عن الشجاعة في جامعة سنت أندروز واستشهاده بالأبيات التالية:

«استمروا في القتال يا رجالي
هكذا قال السير أندرو بارتون
لقد أصبح بجرح ولكني لم أذبح
سأرتاح قليلاً، وربما انزف لفترة
ولكنني سأنهض بعد ذلك وأواصل القتال».

❒❒❒

إلى و . ب. كندي – شو الأبيض ٢٠ سبتمبر ١٩٣٨

خطابك الثالث في شهر واحد سأبروزه وأعلقه على جدار مكتب كبير الأوصياء على الغابات، ما كنت أتصور أن الزواج يطهر لهذا الحد. فكيف سيكون مصيري أنا؟

قوين بل و أ. ي. س. شارلز تم اختيارهما للعمل في فلسطين وسيكونان في القدس (على الأقل قوين بل) يوم ١٥ أكتوبر. أنا حزين لرحيلهما، فهما من أفضل رجالنا، ولكنهما متحمسان وواجبنا أن نبعث أفضل رجالنا أو لا نرسل أي أحد. ماكمايكل في إمكانه الحصول على موظفين غير أكفاء من أي مكان ولذلك ليس هناك ما يدعوه ليطلب منا أن نمده بموظفين من السودان مع أنه لدينا هنا أيضاً موظفون غير أكفاء.

قوين بل معي هنا في كردفان هذا العام، ولذلك سأضطر للقيام بكل شيء بمفردي، أو أستعين بأحد المتدربين الجدد الذي سيلخبط لي كل الملفات ويحيل لي كل كبيرة وصغيرة. ولذلك، حتى هنا أنا أساهم حسب قدرتي في أمر فلسطين. ان مشاكل

فلسطين من حسن حظ أولئك الدكتاتوريين. لا يمكن لنا أن نعلن عن تقرير المصير عندما نحجب يومياً أعداداً من السكان الأصليين، الفلسطينيين فقط لأنهم يرغبون في أن يكونوا أغلبية في بلدهم. يبدو أن موسليني رفع علم نفير الإسلام درجة أعلى.

المواطنون هنا غير مكترثين لما يحدث في فلسطين، ولكن ذلك الحال سيتغير قريباً. أنا لا أدرك لماذا لم تقبل حكومة بريطانيا مشروع كست (Cust) للتقسيم. من المستغرب له أن حكومة محافظين جارية تبديد أصولنا الاستراتيجية كل يوم وتباشر سياسة في حقيقتها انعزالية.

❒❒❒

إلى مارجري برهام الأبيض ٢٣ سبتمبر ١٩٣٨

يا له من خطاب رائع، وقد سعدت باستلامه. أعتقد سأحتفظ بخطاباتك في ملف (للأسف لم يفعل ذلك) وعندما تصبحين أول وزيرة للخارجية، سأنشرها واشتري بثمنها كوخاً في دورست...

لقد اجتمعت مع أفندية المؤتمر وأجرينا مناقشات مفيدة، وأنا متفائل في القادة الجدد، ولو أن الغالبية ما زالت جاهلة وجشعة ومطلقة العنان لأهوائها. أعتقد أن عدد عضويتهم قد انخفض وقد يكون ذلك سبب حاجتهم للمال. موظفونا الجدد تحت التمرين بميولهم اليسارية على علاقة طيبة معهم، ويتحدثون معهم دون تخوف عكس حالتنا نحن كبار الموظفين، وفي أجواء غير رسمية.

النقاش مع المتعلمين أظهر تراجعاً ساذجاً منهم بالنسبة للإدارة الأهلية - من التشكك إلى الإيمان بها - عندما تعرفوا على طبيعتها، الشيء الذي لم نمكنهم نحن من التعرف عليه. وعندما غيرت أنا التسمية من الإدارة الأهلية إلى الحكم الذاتي المحلي، وعندما (أيضاً) أقنعتهم بأنها ستكون إقليمية وليست قبلية محضة. مجموعات من طلبة كلية غردون يجوبون أنحاء السودان الآن، واثنان منهم حضرا لنا هنا وزارا إدارات

شمال وغرب كردفان الأهلية وقد انبهرا عندما رَأَيا أن الإدارات بها كتبة وسجلات محاكم ومحاسبون وخلافه. كانت الحكومة مقترة جداً بنشر أي شيء يتعلق بسياساتها عن الإدارة الأهلية نظرياً أو عملياً، وحتى الموظفون البريطانيون في المصالح يعلمون القليل عنها.

أتوقع أن أغادر إلى الفاشر جواً، ثم بالسيارة إلى الميدوب الأسبوع القادم لاجتماع الميدوب والكبابيش، ولأودع الكبابيش، الأسبوع الماضي ودعت النهود والتي دخلتها على ظهر جمل قبل ثماني عشرة سنة تحديداً.

كيف حال لوغارد وإلى أي حد وصل في مراجعته لكتابه «الانتداب المزدوج؟». سأذهب للخرطوم بعد ستة أسابيع، شيء مقزز!

❒❒❒

إلى مارجري برهام الأبيض ٢٥ أكتوبر ١٩٣٩

أرفق لك مع هذا نسخاً مختلفة من المذكرات، ولكن تلك عن الإدارة الأهلية لتقلي، وهي الأمتع، لم تكتمل بعد وسأرسلها لك لاحقاً وقد تجدينها ذات فائدة. لامبن (مفتش مركز شرق الجبال، وفي ما بعد مدير مديرية دارفور) يعتقد أنها مملكة باطلة. أعتقد أنني أرسلت لك يوميات كردفان عن سبتمبر ولكنها ليست ذات نفع كبير، ولكن مثل «أوتوليكس» (Autolycus - شخصية يونانية أسطورية مشهورة بالسرقة - المترجم) فأنتِ تلتقطين الفتات وتصنعين منه الكعك.

سررت باستلام خطابك بتاريخ ٧- ١٣ أكتوبر. أنا معجب بعنوانك بمقاطعه المفردة: بوندز فارم، شير، ڤلفورد - ويذكرني بالأبقار والجدران المكسوة لنصفها بالخشب.

أوضاع فلسطين سيئة للغاية، ولكني آمل بوصول هذا لك تكون خطة ماكما يكل - العراق - سوريا قد نشرت والتي تنبأت بها «التايمز». عندما كنت في إنجلترا في

عطلتي الاخيرة لم تكن الأمور واضحة لي لما يجب علينا عمله، كما كان موقف تشرشل المنحاز لليهود والمبني على المثالية الواقعية والمقنع، مربكاً بالنسبة لي. ولكني متأكد الآن. ستكون بالتأكيد أغلبية عربية دائمة تشمل شرق الأردن وربما جزءاً من سوريا (أو الجزء الأكبر من سوريا) وستكون دولة عربية مستقلة أو شبه مستقلة في معاهدة معنا مثل مصر والعراق وأفغانستان. يجب حماية اليهود كأقلية شبه مستقلة داخل الدولة بحدود إقليمية، وإذا لم تتعهد الدول العربية بحسن معاملتهم فسنضطر لخلق دولة يهودية صغيرة مثل أندورا. ليت الفرصة تسنح لي لمقابلة ماكمايكل، هل يا ترى معه أي شخص يمكنه الاستئناس برأيه؟ مكمايكل يفتقد المرونة لحد ما.

لم نسمع هنا في كردفان بالأزمة (ميونخ)، ولو أن الخرطوم كانت قلقة نسبة لعدم وجود قائد لسلاح الطيران. أنا أشعر بالاشمئزاز من آثار الكارثة، و«التايمز» كانت في الواقع مقرفة منذ منتصف سبتمبر، ومخادعة في أخبارها المتحيزة، وافتتاحياتها المغرورة. الموضوع تم تغطيته والتعليق عليه من قبل «تايم وتايد» و«النيوستيتسمان» وخصوصاً «تايم وتايد». لقد كان بالفعل استسلاماً معيباً جداً وغير حكيم، ولا مبرر له أخلاقياً أو مادياً. لا بد لنا من مواجهة النازية والفاشية يوماً ما، فالأسد لن ينام بجانب الحمل. وهذا لا يعني أنه لا مفر من الحرب. هل برهن شمبرلين أنه تفادى الحرب؟ أنا أشك في ذلك. الحرب كريهة، ولكن هل هي دائماً شر؟ لانزبري (قائد في حزب العمل البريطاني ١٨٥٩ - ١٩٤٠ - المترجم)، وابنة أختك قد يقولان نعم، وأنا أشيد بإيمانهما، ولكن ذلك الرفض للحرب يعني حرمان آخرين من إرادتهم الحرة ومن ضمائرهم. قد يعترض شخص ما على السلم المخزي كحالة ضمير، بينما يعترض آخر على الحرب أيضاً كمسألة ضمير. لقد فقدنا الآن حدوداً قيمة (بوهيميا) - ١٠٠٠ طائرة، وجيش ضخم وكفؤ وديموقراطي، ودولة صديقة. قمعت ألمانيا المعارضة الداخلية، وربحت ٤٠٠٠٠٠ جندي، وكميات ضخمة من المواد الخام، وهيبة عظيمة. نحن نسمي ذلك سلاماً، وأنا سعيد بذلك. أنا أشعر بالارتياح المخزي لأنه لن تكون حرب، ولكني لا أستطيع أن أزيل من مخيلتي المشهد المألوف للطوابير

الكئيبة للاجئين وهم يتعثرون بملابسهم الرثة وهم يحملون قدورهم ومقاليهم البخسة على عربات تجرها البغال أو الحمير أو عربات اليد، بدون وطن، وبعضهم بدون أهل، وبدون أسماء وبدون مأوى. وجل تفكيرهم ينحصر في كيف يهربون من سياط النازيين والعقارب. وفي كل الصور التي تنشرها المحلات البريطانية يظهر تشمبرلين وجميع أعضاء مجلس الوزراء كلهم ودائماً مبتسمين بألق ولا يظهر عليهم أي قلق أو إجهاد. أنا أمقت وألعن هذه الفاشية والـ٥ في المئة من تلك الحكومة القومية ببراعتها في سياسة الكذب والتضليل والتزييف.

نعم لقد سمعت بمجلة «الامبراطورية» ولقد اشتركت فيها منذ البداية. أرغب جداً في أن أكتب لهم، ولكنني جبان وسأقع في مشاكل وأفقد معاشي. الأعداد الصادرة لتاريخه كانت مخيبة للآمال، ليس من عدم إلمام وإنما لأنها مشخصنة بطريقة لا تترك انطباعاً قوياً. كما وأن أغلب كتاباتها عبارة عن ترويج للفضائح بالرغم من نفيها لذلك في عددها الثاني. ليس هناك الكثير من النقد البناء الذي يفيد مفتشي المراكز وخلافهم. أنا مهموم الآن بمعضلات «الزواج القسري» في هيبان بجبال النوبة. «الامبراطورية» كتبت حوالى نصف عمود عن هذا الموضوع في عدد أكتوبر، وكان موضوعاً غير محبوك وبأسلوب رديء. كيف ترين «الرأي العالمي» ومن يكتبه؟ للأسف ليس هناك تحليل نقدي مطلع شهري عن المستعمرات.

ما هي المصادر التي تطالعينها عن ما قبل فترة التركية في السودان؟ بروس، مفيد، وكذلك براون الذي قضى عاماً في الفاشر (أعتقد عام ١٧٩٥)، وكذلك بركهارت الذي تبعه بعد خمس عشرة سنة. نعم، سلاطين كان محقاً، في رأيي. غلطة غردون الوحيدة في حكمه على الناس كان تصرفه نحو سلاطين الذي اعتنق الإسلام ليس خوفاً، وإنما لتحقيق هدفه بطريقة أفضل. ولكن غردون كان إنجيلياً أكثر مما يجب.

إلى مارجري برهام الأبيض ١٠ نوفمبر ١٩٣٨

مرفقاً مع هذا مزيداً من المعلومات لشهيتك التي لا تشبع. إذا لم تجدي فيها ما يفيد فأهمليها، وأغلبها خاص بالإدارة الأهلية والتجميعات. لا بد لي من مغادرة كردفان، لأنني أصبحت كالوعاظ.

وصلنا هنا أمس أول قاض سوداني خريج مدرسة الحقوق، وقد دعيته للشاي وأخبرته أن يقرأ كتاباتك. قالَ لي إنه يستعجب كون أهم خبيرتين في شؤون الإدارة الأهلية هما امرأتين، وعلق أن أمام المرأة السودانية مشواراً طويلاً لتصل لمثل تلك المرتبة.

يا ليتك كنت هنا. لا أدري لأي مدى أنا أخدع نفسي بالنسبة لإنجازنا في كردفان أو لأي مدى اكتسبنا قبول المواطنين لسياساتنا. ليتني أستطيع التجول متخفياً بين الناس مثل هارون الرشيد لأستمع لما يقولونه.

غداً يوم الهدنة، وعليّ أن ألقي خطبة الكنيسة، وسأذكر فيها ما قاله بيركليس في خطبته في جنازة موتى الاثينيين - «خذوا هؤلاء كمثال لكم، ومثلهم تذكروا أن الازدهار والنجاح لا يتحققان إلا للأحرار، وأن الحرية هي في الواقع ملكاً لأولئك الذين يملكون الشجاعة للدفاع عنها». نصيحة شجاعة للحكومة القومية (البريطانية)!

هل أخبرتك بأن نائب الملك لشرق أفريقيا الإيطالية طلب من موسليني أن يعدل سياسته في الحبشة ويرسل مفتشي مراكز شبان ممن يتسلحون بالعلم والإنسانية ليقيموا علاقات تعاونية مع الأهالي؟ بعضهم قد وصل بالفعل. جحافل المتمردين بدأت تظهر وتتحرك بعد موسم الأمطار، وقد حققوا نجاحات عديدة.

كتب الشاب قوين بل من فلسطين يقول إن المتمردين(؟) يسيطرون على مساحات أكبر (أو كانوا قبل شهر) مما يعرف، وهو يمقت نظام الغرامات الادارية (والتي أيضاً يفرضها المتمردون مما يرغم سكان القرى البؤساء من دفع اتاوات للطرفين)، ويقول

ان اغلب مفتشي المراكز لا يتكلمون اللغة العربية. يا ليتهم يفصحون عن خططهم قبل أن يصل الموظفون لمواقعهم. لقد أعدت قراءة تقرير المفوضية بالكامل. إنه تقرير جيد ما عدا الجزء الخامس الخاص بالتقسيم والذي أراه خطأ في شكله ذاك.

❐❐❐

إلى مارجري برهام   الأبيض ١٣ نوفمبر ١٩٣٨

مرفق مع هذا نسخة من منشور عن إدارة كردفان الأهلية وقد وزعناه لكل الموظفين في المصالح.

مسألة الحكم المحلي هذه في الحقيقة تقلقني. في رأيي أن قانون الحكم المحلي للمناطق الريفية والذي سيطبق قريباً، يسير في الاتجاه الخطأ. هم جارين فرض قوانيين وأوامر متعددة على المراكز ويسمونها حكماً محلياً. وستصبح الإدارات الأهلية مجرد وكلاء تنفيذين لسلطة الحكومة المركزية، ولن يترك لهم خيار التصرف. هذه صورة قاتمة وأعترف أنها حدسية من جانبي، وربما تنجح ولكني أتساءل. أعتقد لديك القانون.

ما يقلقني هو:

(i) هذا هو أول قانون خاص بالسلطة الأهلية تقريباً في السودان. ولذلك فهو معلم. انه دستور للحكم المحلي، وتشريع للادارات الأهلية، وخلافه وخلافه.

(ii) كانت كردفان دائماً سبّاقة في تنظيم الإدارات الأهلية، وبها أكبر الوحدات الأهلية، وخطت خطوات في تجميع الوحدات (على الأقل مقارنة مع بقية السودان) ولكن:

(iii) عندما أفحص مسودة اللوائح وخلافه، فإني لا أرى كيف يمكن تعيين أي إدارة أهلية في كردفان بسلطة محلية تحت قانون الحكم المحلي. لا أحد من الرؤساء، أو موظفيهم أو المجالس يستطيع فهم ثلث النظم أو الأوامر الدائمة، والتي نقلت بحذافيرها من قوانين سابقة يجري الآن إلغاؤها. ولذلك سيصبح مفتشو المراكز هم السلطات المحلية، في تضامن أو تشاور مع رؤساء الإدارات الأهلية. ولكن

ذلك سيكون اتحاداً خادعاً، وسيظل حكماً بيروقراطياً بدون أي مساحة إدارية تذكر للسلطات الأهلية، والذين سيصبحون مجرد وكلاء فقط لتنفيذ الأوامر المفروضة عليهم من أعلى.

في خطابك طلبتي مني أن «أطيل التفكير في ما ذكرته لك عن بناء حكومات مديريات». يا ليتني كنت أعرف كيف أشرع في عمل ذلك. ماذا تقصدين تحديداً بحكومات مديريات قوية؟ هل هو تفويض إضافي من الخرطوم مثل السلطات المحلية البريطانية؟ أو شكلاً من أشكال مجالس الإدارات الأهلية؟ أو مؤتمرات الأمراء؟ أنا من أنصار الحكومات المحلية، ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني لا أرى أي فرصة لهم لتولي المسؤولية أو التصرف بحرية طالما نحن نحافظ على معايرنا البيروقراطية والفنية. يمكننا عمل واجهة، قد عملت أنا نفسي ذلك في بعض المراكز، ولكن ليس أكثر من ذلك. إن سياستنا نحو الأهالي ليست تحت سيطرة جهازنا الإداري، ولكنها مفروضة علينا من وقت لآخر لاعتبارات مالية، وتجارة خارجية ودبلوماسية (مصر مثلاً).

أتمنى أن أتعرف على عمل قوانين الإدارة الأهلية في نيجيريا وفي تنقانيقا. لقد قضيت أنا وكنقدون (نائب مدير مديرية أعالي النيل والذي أصبح مديراً لها لاحقاً) صبحية كاملة اليوم ندرس قوانين الحكم المحلي، وفي النهاية كنا في حيرة من أمرنا ولم نصل إلى أي قرار في ما يجب عمله، أو أي سلطة تعنين، أو أي نظم نقبل وهلم جرّاً. أعتقد أنك في غاية المشغولية الآن ولن تتمكني من المساعدة، ولكن لا تهتمي الآن، يمكننا مناقشة الأمر في عطلتي القادمة.

❐❐❐

وقد علقت مارجري برهام على ذلك كما يلي يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٨:

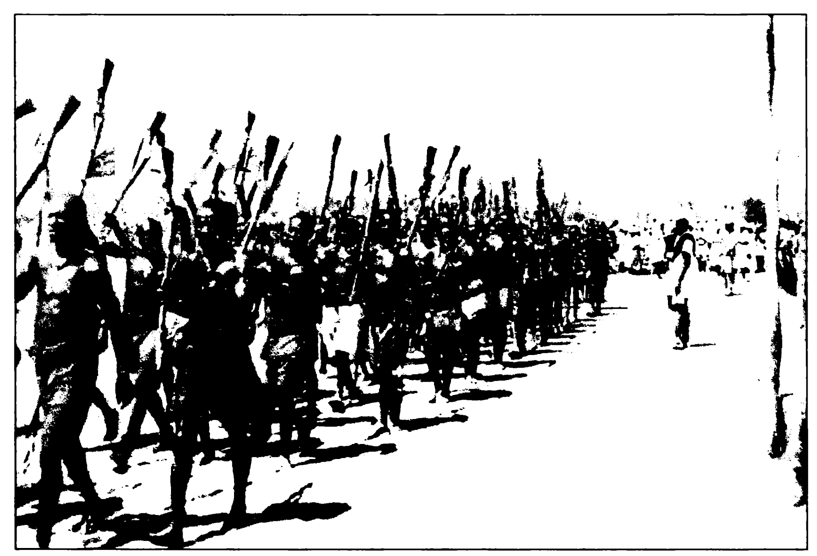
بالنسبة لنقلي، كما تعلم، فإن ما ذكره لامين هو نفس الشيء الذي كنت أشعر به، ليس فقط لمركزه، وإنما بالنسبة لكافة كردفان. أنا أتفهّم تماماً الحاجة لوحدات كبيرة والخطورة خاصة بالنسبة لتفتيت القبائل العربية. ولكن، مع أني دائماً أشعر

بعدم كفايتي في إبداء أي رأي بالنسبة للعرب، أرى أن المبدأ العام هو أنه يجب بناء الفدرالية من وحدات متينة وليس من وحدات ضعيفة. ألا توافقني، من خبرتك في الإدارة المحلية، إن جدوى وفوائد الفدرالية مبدئياً ربما تجدي في نواحٍ مفيدة معينة. ما يقلقني في كردفان هو - أرجو أن تصحح لي معلوماتي إذا ما أسأت الفهم - إقصاء أو إخضاع النظارات القديمة ذات الوحدات الصغيرة. كنت أشعر طول الوقت بأن ذلك سيولد مرارات وحزازات على الأقل عند أسرة الناظر، إن لم يكن لدى القبيلة بأسرها. ولكن لو نجح (مفتش مركز شرق كردفان ولاحقاً مدير مديرية أعالي النيل) وآخرون أكدوا لي أن الوضع ليس كذلك. ولكن، كما تعلم، فإني لم أتفهم أبداً أهمية القبائل العربية حتى ولو بالقدر الذي أتفهم فيه وحدة البانتيو. وبالطبع ليس هناك قياس تقريبي - متى وكيف يشجع قيام فدرالية، وما هي الضغوط الرسمية التي يجب أن تمارس - هذه أمور يصعب الحكم فيها بالنسبة لكل حالة. أيضاً، متى ما نضجت الفكرة على الورق، فإن أي فدرالية غير مكتملة، ولكن بدعم قوي من مفتش المركز، قد تتطور تدريجياً، بحكم العادة، إلى شيء مهم. هنا تظهر الحاجة إلى «هارون الرشيد» ممثلاً في خبير في علم الأجناس. في إمكان مفتش المركز ملاحظة الأعراض الواضحة فقط، والتي قد لا تظهر إلا بعد تطوّر الحالة. ولكي تتفادى حكومة السودان الخطأ الأكبر، وخصوصاً في كردفان، يجب أن تتحلى بعقلية متجاوبة مبدئياً تمكّنها من مراقبة الأعراض قبل أن يراقبها آخرون في أماكن أخرى، وأن لا تضطر أن تفرض علاجاً قاسياً في الحال.

❐❐❐

نيوبولد أرسل المذكرة أعلاه إلى يوان كامبل بالتعليق الآتي:

«الزمن كفيل ليظهر لنا النتيجة، ولكن هناك الكثير في ما ذكرته صحيح. ولكني ما زلت أرى بالنسبة لما يحدث خارج كردفان لا بد لنا من الإسراع، ولكن الله هو العليم».



تظاهرة بالبنادق لمجموعة من سكان جبال النوبة.



ثلاث فتيات من سكان جبال النوبة يحملن البصل إلى السوق.



رئاسة مديرية كردفان في الأبيض أثناء فترة الخريف. وتظهر الصورة من جدار الطابق الأعلى بعض الثقوب التي أحدثها رصاص جيش المهدي عام ١٨٨٢.



نموذج لحوض أبيار في غرب السودان.

إلى يوان كامبل الخرطوم ٢١ يناير ١٩٣٩

مرفق مسودة موسعة من مذكراتي بالانجليزية لاغلب ما ذكرته في خطبتي باللغة العربية في حفلة الشاي التي أقيمت لوداعي في نادي الأفندية بالأبيض. طبعاً لم أستعمل نفس الكلمات حيث لغتي العربية ليست جيدة، كما وأنني كنت أرتجل - ولكني حاولت أن أوصل مغزى كلامي للمستمعين، وأغلب كلامي كان حرفياً.

مقتطفات من خطبة وداع دوغلاس نيوبولد التي ألقاها في نادي الأفندية بالأبيض عام ١٩٣٨ (الحضور حوالى ١٥٠ شخصاً).

«لقد كنت سعيداً في خدمتي في كردفان لمدة تسع سنوات: ١٩٢٠ - ١٩٢٣ و١٩٣٢ - ١٩٣٨. هذه المديرية هي صورة مصغرة من السودان - بها عرب ونوبة، ومدن وريف، ومناظر مختلفة من صحراء جرداء في الشمال، إلى جبال النوبة، إلى الغابات الخضراء الزاهية في منطقة بحر العرب جنوباً. بها أكبر سوق للصمغ في أفريقيا وبها حوانيت صغيرة في القرى. وبها سكك حديدية وجمال. مساحة مرة ونصف مساحة ايطاليا، وتوفّر العمل والهوايات للعديد من المتعلمين السودانيين والمصالح الحكومية في الإدارة والتعليم والزراعة والصحة والهندسة والبيطرة وخلافه. إنها مكان عظيم للشراكة المهنية ولأعضاء الطاقم الإداري بالمديرية. بدون هذه الشراكة لم يكن في مقدوري عمل أي شيء. يستحيل لشخص واحد أن يحكم مديرية بمفرده.

أين توجد روح أو جوهر السودان؟ لا يمكن أن توجد في مكان واحد، أو مؤسسة واحدة، أو مديرية واحدة. انها ليست حبيسة مديرية واحدة، أو في كلية غردون، أو في مخيمات العرب، أو في جبال النوبة، أو في سوق أم درمان. إنها متواجدة في جميع تلك الأماكن. إنها منتشرة كالغبار وبألوان مختلفة. ليس لفرد واحد، ولا لحزب واحد، ولا قبيلة واحدة، أن تدعي احتكارها لملكيتها. كل من يحب السودان بوسعه أن يشارك فيها.

كلنا نتحدث عن التعليم منذ صدور تقرير دي لاوور. هل كلكم تعون ما تعنون بالتعليم؟ إن التعليم مثل كل شيء جبّار، يملك احتمالات الخير والشر. فالتعليم يجلب الحكمة، والصبر، والاحترام، والثقافة، والتعرف على الناس، وعلى العلوم، ولكنه

أحياناً يجلب الكبر، والتعصب، والغرور، والبرم، والطموح الأناني. ولكن من كل تلك النقائص، فأنا من أنصار التعليم بإخلاص، وأنا متأكد أنكم كذلك. ولكن يجب علينا أن نتأكد أن التعليم يجب أن يبنى على الأخلاق وعلى تقديم الخدمات، وليس لمجرد كسب المال أو النفوذ. كما لا يجب علينا أن ننظر للتعليم كأنه لوح الأساتذة والفلاسفة، أو أكسير الحياة. لا يمكن قراءة الحكمة من السبورة، ولكننا نتعلمها من الحياة.

في إمكان الأساتذة التحكّم في اللغات والعلوم، ولكنهم في أغلب الأحيان يفشلون في التحكّم على زوجاتهم، أو على الأقل على أعصابهم. الكلية أو المدرسة هي مثل مصنع العملة التي تنتج في أغلب الأحيان عملة جميلة لامعة، ولكن في بعض الأحيان إن العملة معيوبة بسبب الاستعجال، أو باستعمال مواد رديئة. ليس كل خريج بالضرورة شخص نافع.

أرجو أن أقدم لكم بصراحة بعض النصائح. لا تحتقروا مواطنيكم الأميين. كان ابونا آدم مزارعاً، ورواتبكم تتحصل من ثمار الأرض. وعندما تنتقدون الحكومة، يجب أن يكون نقدكم بناء، وغير مشخصن، وليس هداماً، أو خبيثاً. تذكروا أن الديموقراطية تبنى على التعاون بغض النظر عن السن، أو الجنس، أو الطبقة، أو الشطارة.

عليكم بالوفاء بديونكم، لأن الشخص المدين هو شخص مكبل بالقيود، وإذا فشلتم في إدارة أموالكم بنجاح، فمن سيأمنكم لإدارة أموال الآخرين؟

أنا لا أقول هذه الأشياء لأثبّط من هممكم، ولكن لتقويتكم إن السودانيين المتعلمين في إمكانهم الاضطلاع بمهام مهمة في السودان، وهم الآن يقومون بذلك في كردفان، مثل الثلاثة سودانيين في درجة (S) (طبيب، ونائب مأمور وزراعي) في هذه المديرية. لقد قضينا أربع سنوات رضية، السنوات القادمة قد تكون ماحلة وصعبة وأرجو أن يساعد تعليمكم في مواجهتها.

وليبارك الله فيكم جميعاً».

آخر سنة سلام
١٩٣٩م

قضيتان ملحّتان كانتا تجابهان نيوبولد كسكرتير إداري مختار (تحت التعيين) - الأولى كانت تتطلّب منه أن يكمل معلوماته عن السودان بقدر الإمكان، والثانية كانت تتطلّب منه أن يتغلب على كراهيته لجو الخرطوم. القضية الثانية لازمته طول حياته بوتيرة متقلّبة من وقت لآخر. ولكنه بدأ فوراً في التصدي للقضية الأولى.

كما هو الحال بالنسبة للمساحات الكبيرة في أفريقيا، لم يكن متجانساً. وقد أثر اختلاف اقاليمه على الموظفين البريطانيين الذين خدموا فيها. أولئك الذين خدموا في الغرب (كردفان ودارفور)، أو في الشرق (كسلا)، أو في الجنوب (الاستوائية وبحر الغزال، وأعالي السنيل)، كان لكل منهم خصائصه، وولاؤه، وتوجساته وغيرته. أما الذين خدموا في الشمال والوسط فقد كانوا أقل محدودية وأكثر انعتاقاً نوعاً ما. وكان الشمال والوسط يمدان السودان بأغلب الكوادر المتعلمة، وعليه فقد كان في إمكان موظف السكرتارية البريطاني تدبير أموره دون معرفة مباشرة عن الشرق أو الغرب طالما كان له بعض الإلمام بالأقاليم الأخرى، (مما لا ينكر أن بعض الموظفين البريطانيين لم تكن لديهم أي خبرة عن السودان خارج الخرطوم).

خَبِرَ نيوبولد الشرق والغرب، ولكنه كان يعلم جيداً أنه لن ينال ثقة بارونات الحنوب (الإداريون البريطانيون الذين اختاروا العمل بعقود بصفة مستديمة في المديريات الجنوبية كمفتشي مراكز) إلا اذا حاول تفهم مشاكلهم على الطبيعة. كما

كان يعلم أيضاً انه لن يتفهّم الخلفية العقلية لطبقة المتعلمين السودانيين إلا إذا تجاوز معاقلهم في ضواحي مدينة أم درمان السكنية الجديدة الى القرى النهرية الواقعة على ضفاف مجرى النيل الرئيسي حيث جذورهم. النهر هو الشريان الرئيسي للبلاد، وهو أساس اقتصادها، ومركز تقاليدها التاريخية، ومهد أهل الفكر فيها. فأبناء التجار ومزارعو النهر حادِّي الذكاء الذين احتكروا المدارس وملأوا وظائف الخدمة المدنية قد تم رفدهم الآن بأبناء مزارعي الجزيرة الأثرياء. وعلى أكتافهم مجتمعين يرتكز الآن مستقبل السودان السياسي. وعلى افتراض أن المناطق القريبة يمكن زيارتها لاحقاً حسب التساهيل، فقد ركّز خلال فترته القصيرة كنائب للسكرتير الإداري مبدئياً على تحديد معرفته بأسلوب عمل السكرتارية وعلى الاطلاع على آخر التطورات السياسية والعلاقات الخارجية، وثانياً، وبعد زيارة سريعة الى الجزيرة، ليطوف مناطق الجنوب والشمال البعيدة والتي زارها عابراً من شمال كردفان.

لم يتعود نيوبولد على أسلوب السكرتارية الصارم والمضجر. وقد قاد ذلك أيضاً لنرفزة كل المعنيين حيث كان نيوبولد يمقت أن لا يجد كل شيء في متناول يده، وكان يتوقع من مساعديه نفس القدر من البذل والتوثيق الهائل والعرض الواضح الذي كان هو معروف به.

كان أول ما استرعى انتباهه عند عودته للسكرتارية هو الزيادة الكبيرة في عدد موظفي الحكومة المركزية، النتيجة الحتمية لعملية التركيز التي كانت تنمو بدون توقف، بينما كانت رئاسة المديريات التنفيذية وموظفو إدارة المراكز في تقلّص. السبب في ذلك كان التخصيص والسودنة والتنمية العامة. أما محاولة الاعتماد على جهاز إداري بموظفين أقل كان سيعود الى شلل كل الجهاز الحكومي.

كان من الممكن تفويض المديريات (وكانت هناك مجموعة في السودان تفضل تقسيم الحكومة إلى أربعة أجزاء إقليمية، كل منها بمجلسها على غرار النمط النيجري). ولكن ذلك يمكن تطبيقه في الشؤون المالية وأعمال المصالح الحكومية، ولكن ليس في الشؤون السياسية أو شؤون العمال أو التنمية الاقتصادية.

كتب نيوبولد ضمن مذكرة الى السكرتير الإداري الآتي:

«لقد سبق لي العمل في هذا المكتب كنائب لمساعد السكرتير الإداري (للإدارة) - ولقد ثبت أثناء عطل الآخرين، كنائب لمساعد السكرتير الإداري (لشؤون الموظفين) - من ١٩٢٣ الى ١٩٢٥ - وعند عودتي الآن بعد ثلاثة عشر عاماً، أشعر مثل الذي يزور كنيسة القرية الصغيرة فيجدها أصبحت كاتدرائية مضخمة وبطاقم مكتمل من الكهنة، كل واحد منهم بمقعده الخاص، وبأجنحة متعددة ومتداخلة، وحتى بمصلّى خاص بالسيدات.

ومنذ عام ١٩٢٤ قام مكتب السكرتير الإداري بتولي سكرتارية القصر التي كانت تحت التكوين، والتي أصبحت الآن مكتباً منفصلاً، ومصلحة الاستخبارات، ومكتب مراقبة الصيد، وجزء كبير من مصلحة المعارف والصحة (مثلاً الإرساليات)، وسكرتارية التنمية الاقتصادية - كما أصبحت السكرتارية حلقة وصل بين الحاكم العام والمجلس وعدد كبير من المصالح، كما استولد قسم للطيران قد حان فطامه الآن. كما اضطلع نشاط دبلوماسي ضخم نتج من الاتفاقية المصرية ومن غزو إيطاليا للحبشة.

«كل ذلك تمخض عن تغييرات شملت:

أ- زيادة كبيرة في الموظفين. في عام ١٩٢٤ كان المكتب يتكوّن من سكرتير إداري، ومساعد للسكرتير الإداري، ونائبين لمساعد السكرتير الإداري ككادر سياسي، بالإضافة الى الباشكاتب وحوالى خمسة كتبة بريطانيين. وقد تغيرت النسبة الآن بزيادة الكادر السياسي وتخفيض كادر الكتبة.

ب- كان المكتب ينقسم الى قسمين: إدارة وشؤون موظفين. كان نائب مساعد السكرتير الإداري لشؤون الإدارة لا يؤبه له، كما كان يتعامل مع كل شيء ما عدا شؤون الموظفين.

جـ- تم تحوّل كبير في الاهتمام بالشؤون الداخلية إلى الشؤون الخارجية.

د- تغيير عجيب في وتيرة السرعة. فقد زادت الأعباء الإدارية في الخرطوم والأقاليم بشكل ملحوظ مما تطلّب سرعة اتخاذ القرار من القمة، بينما كان في الماضي يمر على مرحلتين أو ثلاث. كذلك لم تكن لدينا مذكرات متداولة بين المصالح - كانت ملفاتنا موحّدة ولم نحتج لأن نقسم اهتمامنا بقراءة ملفين في وقت واحد. أنا متفهّم لضرورة المذكرات بين المصالح، ولكن يجب أن تكون مختصرة وإلا ستشل تفكيرنا وتولد فينا روح الروتين بدلاً من روح التنفيذ. أصبح هناك تخوّف من المبادأة وركون للسلامة.

هـ- مع زيادة عدد الموظفين والبيرقراطية انعدم العنصر الشخصي وأصبح الموظفون يعرفون بألقابهم (نائب مساعد السكرتير الإداري للشؤون الإدارية، وخلافه). في عام ١٩٢٤ كنا نرفع المذكرات لرؤسائنا - ما عدا كبار الموظفين - فقط بالأحرف الأولى لأسماؤهم ولم يحتج العالم الخارجي لدليل تلفونات قبل الإتصال.

في رأيي أغلب التغييرات كانت في الحجم وليست في الكيف سوى اخضاعنا للإدارة الداخلية لاعتبارات خارجية وملهية.

أيضاً ضعف التفويض - كان عمر نائبي مساعد السكرتير الإداري في حدود ٣٠ الى ٣١ عاماً في عام ١٩٢٤، وكانا يتخذان قرارات لا يتخذها للآن إلا نائب السكرتير الإداري والذي عمره فوق الـ٤٤ سنة، أو مساعدي السكرتير الإداري وعمريهما ٤١ و٣٨ سنة. كانت مجموعة نواب مساعدي السكرتير الإداري في ذلك الوقت تقريباً كلها تنفيذية، والآن ربما ٥٠ في المئة منهم كتبة، ولو انه من الصعب تحديد الفاصل بين الاثنتين».

كان نيوبولد قلقاً من الإرهاصات التي تدل على تقاعد الحاكم العام سير استيوارت سايمز، وكان نيوبولد مهموماً بمن سيخلفه. وفي خطاب أرسله الى لوغارد، بعد أن عرض لعدد من المرشحين أضاف:

«لقد وصلنا الآن الى مرحلة حرجة. لقد بدأنا الخوض في بحر التعليم العالي، والحكم المحلي، وتطوير الزراعة، كما نظمنا المصالح الحكومية المختلفة وأعدنا تنظيمها. كما عدلنا الوظائف والكوادر والمرتبات حديثاً بطريقة معقّدة ولكن غير متشابكة. وقد تم البدء في مشروع ثقافي لا نعرف بعد مصير مستقبله. كما تم تقنين الحكم المحلي، وتعيين مدير جديد للزراعة نشط وربما رافض للتقاليد القديمة. للأسف الشديد سيغادرنا كوكس، مدير التعليم، بعد أن انتهى من ترتيب نظام التعليم الشامل وتوسيع تقرير دي لاوار. نتوقع مشاكل في الحدود، وفي التجارة والري مع جيراننا الجدد (الطليان) والمتوترين.

كل هذا يشير، إذا ما دعت الحاجة للتغيير (الحاكم العام) من اختيار رجل يتمكن من مواصلة العمل بدراية بالقواعد المتبعة. وقطعاً لا نرغب فيه أن يكون مجرداً أو مشغولاً بالوظيفة. لا نرغب في شخص طموح أو إداري متطرف - فليذهب أولئك الى كينيا أو ترينداد أو سيلان (سيرلانكا - المترجم). نحن نرغب في شخص عاقل وحكيم ومتفتح ذهنياً ومن الجناح اليساري المحافظ، وذو خبرة بالسياسة والدبلوماسية، ليتمكن ليعقد لنا علاقات جيدة مع مصر وإيطاليا، ووزارة المالية البريطانية (لتمويل الديون) ومع وزارة الحربية (للدفاع)، ويتربع على كرسي الدبلوماسية ويترك لمساعيده التنفيذيين الفرصة لاستيعاب التغييرات التي طرأت في الخمس سنوات الماضية - (في القوانين وفي بروز حركة الخريجين) - وتطبيق خطط توسيع التعليم والحكم الذاتي المحلي».

قام نيوبولد برحلة للشمالية مطلع فبراير بدأها بزيارة مدينة عطبرة، رئاسة السكك الحديدية - تلك المدينة المعزولة عن بقية البلاد بانشغالها بحياتها المصلحية حيث لا فرار للفرد فيها من رتبته أو أقدميته، وحيث لا يجد راحته خارج مهنته أو مصطلحاتها.

ومن عطبرة أخذ القطار الصحراوي الى كريمة عند منحنى النيل شمال الشلال الخامس حيث مديرية دنقلا القديمة، المعزولة في منطقة منحدفة بسبب سكك حديد حلفا، والمحرومة من خدمة شبابها الذكور بسبب قلة الأراضي الزراعية، والذين

يمدون الشرق الأوسط بالخدم ويحولون سنوياً بين ٦٠ و٧٠ ألف جنيه لذويهم عن طريق البريد.

كان من رأي نيوبولد أن التوسع في مشاريع الطلمبات غير مجدٍ في حل تلك المشكلة حيث رمال الصحراء كانت تصل الى ضفاف النهر، وليس هناك طمي إضافي ليمكن من زراعة محاصيل أكثر. كان الأمل الوحيد هو تطوير زراعة الأحواض في المنخفضات البعيدة من النهر وتوصيل المياه اليها عن طريق قنوات اصطناعية. كان أكبر تلك الأحواض هو حوض كريمة الذي يبلغ طوله ٣٤ ميلاً وعرضه أربعة أميال والذي اتضح أنه ذو خصوبة محدودة، الى أن ظهر فيه بعض العشب «التقلي» والذي كان صالحاً للعلف وأيضاً كان مخصباً للأرض لتمكين زراعة القمح والشعير واللوبيا والفاصوليا والحمص والعشب الغني والأشجار الطويلة، وكذلك يساعد في تسمين الحيوانات.

لكن خطط نيوبولد لزيادة الرقعة الغنية بالطمي شمالاً وتطوير مشاريع شبيهة في أماكن أخرى أحبطت بسبب الحرب، وبتواتر فيضانات منخفضة للنيل مما سبب مشاكل أخرى اعاقت تنفيذها.

كان نيوبولد سعيداً وهو ينظر لعظمة الماضي بمنظار خبير للآثار من جبل آمون الديني خلف كريمة نفسها، والتمثال الغرانيتي العظيم في مروي للملك ترهاقا الذي حارب الأشوريين، والذي أتى ذكره في الإنجيل في الكتاب الثاني للملوك في صورة «ISAIAH»، والتمثال الضخم المسيحي لأمير ملوك جزيرة ارقو غير المعروفين. وكذلك المبنى الضخم من اللبن (دوفافس) شمال كرمة والذي تمكن من الصمود أمام الأعاصير لأكثر من ٤٠٠٠ عاماً.

كانت الرحلة النهرية من مروي إلى دنقلا ما زالت تحتفظ بسحرها الذي حرم خزان أسوان السواح من الاستمتاع به جنوب جزيرة «PHILAE». فضفاف النهر تصطف فيها حدائق النخيل، بينما تعلو كثبان الرمل الأحمر الذهبي في أعلاها. المدن والقرى، من وقت لآخر، تبدو جميلة وبألوان زاهية ومزخرفة بمخلفات كنائس

مملكة المقرة (٦٠٠-١٣٠٠م) في القرون الوسطى، ومكاتب المجلس البلدي الحجرية في أوائل القرن العشرين. مدينة كورتي والتي شهدت واقعة ١٨٢٠ التي دمّر فيها جيش محمد علي الشايقية إحدى تلك المدن المعنية. وقد بدأت حملة أنقاذ غردون من هنا عام ١٨٨٥م، وكذلك الخندق بقلعتها المتداعية منذ القرن السادس عشر، وبشوارعها الضيقة المنحدرة، وجدارها البحري المتين، وشارعها المزدان بأشجار اللبخ (Fleus).

في هذه المنطقة يجب وضع مشاريع الطلمبات في شكل متوازٍ مع القناة الرئيسية في شريط طويل وبعرض صغير وغير اقتصادي. يبلغ مشروع الغابة ٧ أميال وعرضه نصف ميل، ومشروع الكلود طوله ٢٠ ميلاً وعرضه ميل واحد. وقد حجزت الباخرة هنا بسبب الرياح الرأسية واضطر نيوبولد ورفاقه للخوض عبر المحاصيل والخيران وأحجار الثعالب لمسافة ثلاثة أميال عند الغروب والرياح الشديدة الى أن يصلوا إلى الباخرة في السابعة مساء. المكان مليء بالثعالب، وقد ذكّره ذلك بصيد «الجبهون» في رواية كيلبنغ «صغار الثغالب»، والتي بناها على مجموعة الثعالب التي استوردها الكولونيل ت.اي. هكمست، أول مدير لمديرية دنقلا عام ١٨٩٩.

وقد لخّص انطباعاته عن رحلته تلك بالمذكرات الآتية:

«كان تعداد سكان دنقلا في النظام السابق حوالى ٣٠٠٠٠٠ نسمة، وقد كان الفقد في المهدية بسبب الحروب والمجاعات ١٩٠٠٠٠. وكان عدد السكان في عام ١٩٠٣، ١١٠٠٠٠، وفي عام ١٩٣٨، ٢٠٠٠٠٠. ومن المشكوك فيه أن تستعيد دنقلا سكانها الـ٣٠٠٠٠٠ السابقة بدون تنمية لمشاريع الأحواض وكذلك لمشاريع الطلمبات. تقريباً أكثر من نصف رجال المديرية ينزحون الى مصر أو الى بقية أرجاء السودان في أي وقت من الأوقات، (على سبيل المثال فان أرقام مروي لعام ١٩٣٧ كانت ٩١٠٥ مقيمين و١١٩٨٠ نازح). ولكن السكان يتكاثرون باستمرار ويمثلون حوالى ١٠٠٠ شخص لكل ميل مربع مزروع وهي نسبة كثافة عالية جداً لسكان مناطق ريفية، وهو السبب الرئيسي لأغلب مشاكلهم، وخصوصاً الحاجة الماسة لاقتناء الارض. وذلك

النهم للأراضي لن يُشبع إلا بتطوير زراعة الحياض. حوض كرمة، مثلاً، يماثل ثلاثة أضعاف المساحة المزروعة على ضفاف النهر في منطقة مروي.

«إن حمى النزوح عند الشايقية (كجنود، أو شرطة، أو موظفين، أو تجار) والدناقلة (كتجار وخدم)، قوية، وربما لن نتمكن من استدعاء الأعداد الصغيرة من المثبطين خارج المنطقة، ولكننا، على الأقل، (إذا ما أعدنا زراعة الأحواض) قد نتمكن من استبقاء الشباب الأقوياء من النزوح، خصوصاً لأن التعليم الأولي في المديريات البعيدة من النهر يسبب تنافساً حاداً خارج المنطقة.

مديرية دنقلاً القديمة تبدو في حالة صحية جيدة. فقد انخفضت اصابات البلهارسيا من ١٨ في المئة الى ٣ في المئة الآن وأصبحت لا تشكّل وهناً لعمال السواقي. والعجيب أن حالات الملاريا قد ارتفعت، ولو أنها انخفضت من ٧٠ في المئة قبل ١٢ سنة الى ٣٠ في المئة الآن. أما مرض السل فهو في ارتفاع في دنقلا. والناس هنا لا يأكلون الأسماك لأنهم يعتقدون أنها ضارة، ولولا ذلك لتحسّنت صحتهم. وهنا تتاح الفرصة لإضافة مقرر في الطهو في مدارس البنات.

كما وأن دنقلا خالية من الجرائم بشكل ملحوظ. وسجن دنقلا عادة لا يتجاوز نزلاؤه على الـ١٥ الى ٢٥ سجيناً من عدد سكان يربو على ٨٨٠٠٠ نسمة. في عام ١٩٣٨ سجلت ثلاث عشرة حالة سرقة فقط في كل المركز.

يبدو أن مشروع ضم دنقلا ومروي الذي أجيز أخيراً، أمراً سليماً من حيث المبدأ، ولكن من ناحية عملية فالحجج له وعليه متعادلة. المزارعون أصحاب الأراضي الواقعة على النيل يعيشون حياة مستقلة، وهم معتادون على توافر الخدمات الحكومية (قضاة، ومآمير، ومساحين وأسواق)، كما وان مقابلاتهم مع المسؤولين شخصية وليست عن طريق وسطاء في السلم الوظيفي كما هو الحال في الوحدات القبلية.

بوجه العموم فإن المديرية الشمالية كانت تدار في الماضي بطريقة مكثفة ولكن

جيدة، بطريقة مباشرة وأشبه بالنظام المصري. وقد تم تخفيض التكاليف الرأسية قبل عملية الضم في أول يناير ١٩٣٥ عندما اختفت تسعة مراكز».

لم تكن تلك الرحلة مثمرة من ناحية عملية نسبة لظروف الحرب. ولم يكن بوسعه عمل شيء لدنقلا سوى ان يحثهم على تكوين الجمعيات التعاونية استعداداً للزمن التي تتوافر فيه المعدات مرة أخرى. أما رحلته في مارس للاستوائية فقد كانت خطوة أولى من سلسلة أحداث اخرجت جنوب السودان في غضون عشر سنوات من العزلة الإستوائية البدائية الى رحاب المجلس التشريعي.

لقد تعرضت حكومة السودان لنقد لاذع داخلياً وخارجياً في ما يتعلق بسياستها - أو كما يجزم البعض عدم سياستها - تجاه جنوب السودان. فالجنوب متخلّف اقتصادياً واجتماعياً لحد بعيد مقارنة بالشمال، وفقير وأهله عراة (وهذا بالذات يعتبر أمراً مهيناً في نظر الساميين). كما وأن أغلبية سكانه وثنيون مع نسبة ضئيلة من المسيحيين، ومدارسهم قليلة، وهم شبه معزولون. فهم بعيدون عن العالم حيث تقف الحبشة حائلاً بينهم وبين البحر، ولذلك فليس في مقدورهم المنافسة في أسواق الصادر.

وبعد قرون من المعاناة من الحكومات الشمالية وتجار الرقيق الشماليين، يمكننا أن نصنّف سكان جنوب السودان إلى أولئك الذين يفرون بمجرد أن يروا غريباً، وأولئك الذين يقتلونه بالحراب.

لم تتمكن الحكومة الجديدة من كسب ثقة سكان الجنوب أو حتى إخضاعهم إلا بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال. ومن البديهي بالطبع أن يطالب أولئك الرجال الذين تمكنوا من كسب ثقة الجنوبيين أن يكافئوا الجنوب بالمنافع المادية من مدارس ومستشفيات؛ وكانوا مستائين من التقتير المالي للحكومة المركزية. كما من البديهي أيضاً بالطبع، أن لا تتمكن الحكومة المركزية من توفير القليل من أموال الشمال للجنوب عندما كانت الحاجة للشمال ملحة للغاية.

قامت الإرساليات المسيحية التي توغلت داخل الجنوب منذ أيام الحكم التركي

السابق قبل الحكومة الحالية، ثم رجعوا لمعاودة نشاطهم في ما بعد، بتغطية الفجوة لحد ما. لقد وفرت للجنوبيين ليس فقط الهداية، بل التعليم والصحة - الشيء الذي لم يكن في مقدورهم أن يتحصلوا عليه لسنوات طويلة. كانت الإعانات المالية التي تدفع للإرساليات في نظر الحكومة استثماراً مفيداً. أما الذين كانوا ينتقدون مستوى التعليم فعليهم أن يتذكروا ان البديل كان عدم توفير تعليم بتاتاً.

إن تواجد سكان في الجنوب معادين للشمال، ومبشرين هدفهم الأساسي التبشير، وحكومة مركزية تنظر للتاجر الشمالي كشخص مستغل (أو مستعمر بالمفهوم السياسي الجاري) للـ«همجي الوديع» - كل ذلك كان لا بد أن يتمخض عن فرقة بين الشمال والجنوب وتأجيج للعواطف في الطرفين كلما تطور الوعي السياسي.

لم يتمكن نيوبولد من التصدي لتلك المشاكل نسبة لظروف الحرب الا في آخر سنة من حياته، وقد ترك القرار النهائي لخلفه. ولكن يوميات زيارته للجنوب عام ١٩٣٨ توضح نيته في التعرف في وقت مبكر على المشاكل التي كانت له خبرة مباشرة عنها في جبال النوبة.

سافر نيوبولد إلى جوبا عاصمة الاستوائية في مارس، وفوراً استوقفه، كما هو الحال بالنسبة لكل الزوار من الشمال، التباين بين صحارى الشمال بقرى عربها غير المنسقة، وبين الخضرة والتنسيق في وسط افريقيا - الشوارع المعبدة بحوافها المشذبة وقنواتها الجانبية، ومنازل الموظفين المبنية من الحجر والطوب، وطرقها الجيدة المشجرة بأشجار ضخمة والتي ما زالت الأفيال تقضي حاجتها بينها.

إن أهم مشكلات الإقليم كما بدت لنيوبولد هي بعد المسافات لترحيل المنتجات للموانئ النهرية، والكفاح المتواصل ضد سوء التغذية والأمراض، والحاجة لتحسين التعليم.

وقد قدّر أن بالإمكان تحسين أداء خدمة بواخر نهر الجور ببحر الغزال، وأيضاً تمكين بعض المناطق النائية من الاعتماد على ذاتها، مثل منطقة الأزاندي التي تتقاسم

المستنقعات مع الكونغو البلجيكي وغرب أفريقيا الاستوائية. من بين المشاكل التي كانت تقلقه صيانة التربة، وملكية الأراضي، وتطوير المحاصيل الغذائية الأكثر إنتاجاً ومنفعة غذائية، والمخاطر الناتجة من زراعة مساحات طويلة وضيقة ومتلاصقة والتي تشكل كثافة للسكان على الطرق مما يفاقم مرض النوم، ولكنه أعجب بالمحاجر الصحية لمعالجة مرض النوم من «سورس يوبو» و«لي رانقو» - خصوصاً لتخطيطها ولرفضهم رصد الحالات لأغراض إحصائية.

وقد وقف على المراحل المتأخرة من وباء مرض السحائي الذي شمل ثلاثة مراكز وكيف تم استئصاله «بعقار M+B٦٩٣ الخارق والذي خفض نسبة الوفيات من ٧٥ في المئة الى ٥ في المئة. وقد تذكرت المناظر البشعة لقرى جبال النوبة المصابة عام ١٩٣٤، والتي توفي فيها مئات الأطفال نسبة لعدم توافر العلاج... كانت محاجر رومبيك عبارة عن أروقة لملاجئ مكشوفة كل واحدة منها تسع شخصين، المريض ومرافق له من أقربائه، وكلهم في طور النقاهة. وقد سررت جداً بمنظر طفل دينكاوي في حالة مرضية خطيرة وفاقد للحركة، يفيق أمام أعيننا ويتمطى جيداً ثم يبتسم».

عندما شاهد التلاميذ الجنوبيين في جويا وصفهم كالآتي: «لهم رؤوس ووجوه حسنة، وهم أكثر توازناً في مشيهم وأقل خجلاً من نظرائهم في الشمال. إلا أن الموظفين الجنوبيين لهم بعض الميزات والعيوب الغريبة: عقولهم غير عقول العرب وغير قابلة للتحليل ولكن ذات دهاء مشوش». كان يرى أن تتوسع مدرسة تدريب الكتبة في جوبا لتصبح كلية مهنية، والاستفادة من مدارس يوغندا الثانوية للتعليم العالي لخريجي مدارس الإرساليات. كان يتحفظ من ابداء الرأي عن التعليم التبشيري برمته، وقد وصف أحد نظار المدارس التبشيرية كمبشر ممتاز وذي توجه راديكالي نحو الحكومة ونحو زملائه.

رجع نيوبولد الى مكتبه في أبريل وكتب خطاباً إلى مارجري برهام في مايو ١٩٣٩ يقول:

«لا أتذكر متى كان آخر خطاب مني لك. لقد استمتعت جداً برحلتي الإستوائية

وتعلمت منها الكثير. كان عالماً جديداً بالنسبة لي، ولكني لست مؤهلاً لإبداء رأيي. يبدو لي أن مرض النوم وترحيل المحاصيل هما المعضلتان الرئيستان اللتان تتطلبان العلاج السريع. عشمي أن يستفيدوا من كلية مكرري في يوغندا. لقد زرت عدداً من الإرساليات في الجنوب - كاثوليكية وبروتستانت - ومدرستين في المرحلة الوسطى. يجب علينا تسريع تعليم اللغة الإنجليزية والتعليم الثانوي في جنوب السودان.

تمت كل الترتيبات لقيام دار للثقافة - بارك الحاكم العام الدستور - وكتب السكرتير الإداري، سير أنقس جيلان، إلى لورد لويد، ولكن الأخير أبدى تعاطفه فقط وطلب أن نمده بتفاصيل عن المساعدات الممكنة محلياً قبل أن يتقدم للمجلس البريطاني، وقد كتب له جيلان مرة أخرى. المشكلة الرئيسية هي أمين المكتبة. وفي رأيي لا بد أن نقنع بشخص محلي - ليست لدينا الموارد المالية لتوظيف إنجليزي من انجلترا أو بابتعاث سوداني متعلم لإنجلترا ثم نعينه كموظف مستديم (وماذا سيكون مستقبله إذا وجدناه؟) أعتقد ان لا بد لنا من انتداب أحد موظفي الحكومة (سوداني) لعام أو عامين الى أن يتضح لنا الموقف المالي.

الطقس حار جداً، حوالي ١١٥ درجة فهرنهايت ظهراً، كما وأن مشاكل الدفاع وقضايا الحدود مع إيطاليا منعتني من (أ) الراحة، و(ب) أي عمل إداري داخلي خلاف الروتين - اضطررنا أن ننفق أكثر من ٤٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني على المستودعات الحربية (الغذاء والبترول وقطع الغيار للسيارات، ومؤن أخرى) يا له من ضياع!».

كان مشروع دار الثقافة من المشاريع المحببة للسكرتير الإداري؛ وكان يفترض أن يشمل منتدى إجتماعي، ومكتبة وقاعة محاضرات ووسائل ترفيهية أخرى تمكن السودانيين والإنجليز وأفراد الجاليات الأخرى (والتي كان لكل منها نادٍ قومي خاص بها) من الإجتماع والإختلاط وتبادل الآراء. كانت مارجري برهام داعمة للمشروع ولكن آخرين ومن بينهم الحاكم العام نفسه كانوا متشككين في بادىء الأمر من جدوى الاستعجال للتنفيذ قبل الحصول على الموقع المناسب وسهولة الوصول إليه. وكانوا يخشون، إن لم يزود الدار بالألعاب الرياضية المختلفة وما شابهها، ان لا

يجذب الفرد الإنجليزي العادي الذي يقسم وقته بين مكتبه وبيته وناديه الرياضي.

وكما هو الحال دائماً، فقد اتضح أن الرأيين صائبان. لقد نجح مشروع الدار بالرغم من انزواء موقعه وانعدام وسائله الترفيهية والانشغال بالحرب (وعدم استلطاف الإنجليز لأسمه)، ولكن في ذات الوقت لم يتمكن حتى الآن، كما كان يتوقع له مؤسسوه أن يكون مركزاً لتبادل الأفكار والمجاملات بين الجاليات المختلفة.

كان يجد صعوبة في تفهّم مدى شغف الموظف الإنجليزي العادي بعلاقاته الاجتماعية، وأحياناً كان ينتقد بشدة نمط الحياة في الخرطوم.

❒❒❒

إلى و. ب. كندي – شو الخرطوم ١٠ مايو ١٩٣٩

آسف لعدم تمكني من السفر إلى قبرص ومن عدم الكتابة، ولكن هذا المكان أقرب ما يمكن أن يتخيله الإنسان عن الجحيم، خليط من الحرارة والضوضاء والقمصان المبتلة عرقاً، وكثرة الناس. ربما من الضرورة لمهمتنا الإمبراطورية، أن نتجمع في قطعان مثل الأبقار المسمنة والمعدة للذبح، متدبجين بالملابس ومزروبين في حدائق بعضنا البعض، نتعاطى تلك المشروبات الكحولية القاتلة، ونتحدث هراء محضاً مع أناس لا نعرفهم. يسمون ذلك «آداباً اجتماعية»، أو «عقد صلات اجتماعية» أو «حسن جوار». يبدو لي أن ذلك شيء مكلف ومبلي لبدل السهرة الثمينة. للمعلومية عندي هذا المساء دعوة للمشروبات، وبعدها دعوة للعشاء. الآن الساعة الرابعة عصراً ودرجة الحرارة ١١٣ وقد تنخفض إلى ٩٥ عند موعد العشاء حيث سيكون الحديث:

- نعم يا سيدة بيرتوسل، لقد كان يوماً حاراً.
- لا بد أنها الرطوبة في الهواء.
- ما أروع النيل!
- نعم، لا أدري ما يرغب فيه هتلر (قليلاً من السمك؟ لا؟)
- يبدو أنه يطالبنا دائماً بالمزيد، اليس كذلك؟

- لا أنا أفضل سفينة خطوط البيبي عن خط الهندرسن.
- هل تعرفين السيدة بقنز؟ لا؟ طبعاً لا تعرفينها، لقد نسيت أن زوجها كان في درجة أدنى.

وهلم جرّاً.

❐❐❐

يوم ١٨ مايو

كان الطقس حاراً لا يطاق ولذلك لم أتمكن من مواصلة الكتابة، ولذلك تركتها لمدة أسبوع سافر فيه كل من الحاكم العام والسكرتير الإداري والقائد العام في رحلات داخلية وتركوني أرعى حضانة الرضع.

هذه الأزمة مستنزفة - تخزين المواد الغذائية، والتحوط ضد الغارات الجوية، ورفض العروض المقدمة للمساعدة من قدامى الضباط المخلصين المكفوفين، ومحاولة محاربة مدننا من القصف بالقنابل بدون أي مدافع مضادة للطائرات.

سأكون سعيداً إذا تمكنت من الذهاب إلى سكس. يا ليتني كنت في الأبيض. انا أمقت عمل السكرتارية: الملفات التي لا تنتهي عن السواح الذين يصطادون البجع المحمي، وتجارة الفستق مع تركيا، واليهودي النمساوي الذي يعمل في السكك الحديدية والذي لن يتمكن من الحصول على جواز سفر، ومستشار الري المصري الذي لا يرد على الخطابات، والخبير الاقتصادي المصري الذي لا يكف عن كتابة الخطابات.

وأسوأ من كل ذلك اللجان. أنا عضو في حوالى عشرين لجنة:

- هيئة الطرق والمواصلات.
- الأشغال العامة.
- التغذية (التي لا تشمل البيرة).
- الآثار والمتاحف.

- توحيد مساكن الآهالي.
- إدارة الاقتصاد.
- تقصي الحقائق عن الرسوم المدرسية.

وخلافه، وخلافه.

ثم هناك التلفون... عندي ثلاثة تلفونات.

الحل الفلسطيني أعلن اليوم. أأنا على درجة من الإرهاق الذهني لا تمكنني أن أقرر إن كان الحل جيداً أم لا. يبدو معقولاً، ولكن هل سيحارب الرجعيون؟ قد تغير عليكم في المتحف عصابات من فتيات تل أبيب المسترجلات لابسي الأردية القصيرة الخضراء. سآخذ القطار للاسكندرية يوم ٢٣ ثم أسافر بالطائرة. أنا راغب في الذهاب لفلسطين ولكن والدتي مريضة وتتوقع رجوعي سريعاً، ولذلك لن أتمكن من إضاعة الوقت في الطريق.

هل أخبرتك بأني قمت بجولة هائلة في الاستوائية؟ عندما تصل إلى منطقة بها ارسالية كاثوليكية إذا وصلت بسيارة محترمة، يعتقد الأطفال أنك المطران يركعون على ركبهم ويرفعون أيديهم تضرعاً. ولكنهم عندما رأوا رجلاً سميناً في سترة الأحراش، وأصلع الرأس، ويقرأ ملفات عن أعمال السحر وعن الكسافا أصابهم الإحباط.

الأشجار هنا عجيبة الشكل، ومحطة كاقلو النباتية مدهشة - أشجار البان، وزيت النخيل، والكلور والماهوقني وأخريات كلها بارتفاع ٨٠ إلى ١٠٠ قدم. الطرق المعبدة بالحجر الحديدي، وكباري العقيد كلها جيدة جداً. كل شيء مثير وأخضر ووثني، تستحق الزيارة ولكني لا أحب أن أقيم هناك، فهي أفريقية أكثر مما يجب، ومتعددة الأجناس واللغات. الاستوائية مديرية رائعة الآن. جوبا تبعد حوالي ٩٥٠ ميلاً بالطريق من كافياكنجي.

كذلك قمت برحلة إلى مروي ودنقلا بالسيارة وبالباخرة وزرت مشاريع

الطلمبات، والمعابد، وحياض الري. اعتقد أنني كتبت لك عنها. عشرة أيام مريحة وطقس بارد والناس يتكلمون العربية ويكرهون التغيير، وما زال طيف جاكسون يرتاد الضبطيات المتداعية.

لا جديد يذكر هنا، وعلى أي حال فهذا خطاب طويل وقد أكون كررت بعض الأشياء. هل تذكر أدروب من سنكات الذي كان يرعى جمالي؟ لقد حل علينا هذا العام أول زيارة له للخرطوم، لزيارة السيد علي الميرغني ولزيارتي ولزيارة فيل حديقة الحيوان. لقد أخذته لزيارة كل المعالم بما فيها الكاتدرائية، بحلق حوله وقال: «والله بيت مش بطال، أنا سمعت أن الترك يصلوا».

هذا البرم بحياة الخرطوم الاجتماعية يعكسه خطاب كتبه بعد عشرة أيام من على ظهر باخرة نيلية، بعد زيارة مالك محمد سايح، ناظر الميدوب ومالك محمدين آدم سابي، ناظر قبيلة الزغاوة المجاورة للميدوب، في طريق عودتهما من مكة بعد أن أديا فريضة الحج.

❐❐❐

إلى الرائد قاي مور (M.C.) – مفتش مركز شمال دارفور ٢٥ مايو ١٩٣٩

رجع سايح من مكة وسافر للميدوب. اتمنى أن يكون قد استمتع بتجربة مكة. ألن يكون من المفيد لنا نحن الموظفين أن نذهب في رحلة حج مرة أو مرتين خلال العشرين سنة التي نقضيها في الخدمة؟ رحلة حج تكون شاقة، كلها عرق وقروح وبثور وعطش، وفي ذات الوقت مغامرة، في محاولة لبلوغ غاياتنا. ولكن ما هي غاياتنا؟ الحصول على معاش، أو وسام شرف، أو وظيفة دائمة، أو منزل واسع، أو خلافه؟ الخرطوم تثير الأعصاب، بها ٢٨٧ زوجة لا يلهمون الا سلبياً ويحبطون أزواجهم. العزابة أقلية. ولكن حتى الخرطوم فيها ما يعوض ولو أنه نادر وسريع الزوال، مثل غروب الشمس على النيل، أو الزيارات الخاطفة من اناس مثل سائح أو سايس جمالي، الهدندوي الذي حلّ عليّ بسيفه وبدون استئذان وأخذني بالحضن

أمام عمال حديقتي المصعوقين. كذلك، بين حين وآخر يتمكن المرء من استعمال نفوذه ليرفع بعض الظلم، أو يكافئ رجلاً مسناً مسكيناً، أو يمنع العلماء والمحامين من ارتكاب خطأ أو فظاعة، خلاف ذلك، فهي مكان رديء ومزعج، وسخيف وتتسم بالرياء وعدم الوقار، وتعج بالموظفين المتسلقين، والحفلات غير المجدية. ومع ذلك تجد هنا وهناك رجلاً صبوراً وحكيماً يعمل في خدمة الناس دون ادعاء أو تطفل.

سايح ومحمدين تناولا معي الشاي في طريقهما إلى مكة، وتحادثنا كثيراً، وأخذتهما لمشاهدة الحديقة والإسطبلات. لقد أعطيت سايح خيمتي عند عودته حيث كان يرغب في شراء واحدة. إنها ليست كبيرة كالتي كان يرغب فيها، وقديمة أيضاً، ولكنها قوية ومقاومة للمياه، وقد أصلحتها. الجديدة كانت ستكلفه كثيراً حوالى عشرين جنيهاً، ولا بد أنه أفلس بعد أن دفع مصروفات السفر ورسوم المطوفين في مكة. لقد كان آسراً كالعادة. يا ليتني كنت فاضلاً مثله. أعتقد انه كان راضياً عن حجته. لم يذكر لي الكثير عنها وربما حكى لك عنها أكثر.

لا بد أنك علمت بأننا سنعيد لك ولفرد ثسيقر. لقد أرسل مقالاته عن قبيلة التبستي لصحيفة التايمز اللندنية، ولكني أشك أن تنشر لأنها طويلة ولا تحتوي على جديد. لقد أعجبت بها وحسدته على قوة تحمله الجسماني. الخرطوم تسبب لي الضمور الجسدي شيئاً فشيئاً. وصفك لولفرد ثسيقر صحيح جداً. لقد تفهم الآن أنه غير ملائم لهذا العمل، ولكن عدم ملاءمته فقط في خدمة الحكومة ونسبة لتشبثه بإفراط لبعض الفضائل الدارسة، وليس لأي نقائص أو عيوب، فهو شخص شجاع وأخرق وجذاب.

نعم - انا أؤمن حقاً بالله، لا بتعصب أو عن إيمان راسخ، انما لأنني أكره الفوضى، ولا أعتقد أن لا يكون هناك شيء قبل أو بعد هذه الحياة. كما ولا أعتقد أن الأخلاق والفضيلة - كما نعرفها - بين البشر وبين الدول ترتكز فقط على المنطق، أو المصالح أو الدعاية - لا بد أنها مستمدة من الروح الإلهية في الإنسان. تلك الروح التي تمثل ذلك الخلاف السحيق والدائم بين الخير والشر، والصالح والطالح. أنا لا أصدق أن

أناساً مثل والدتي هم مجرد خلطة كيماوية للحم وعظام وخلايا مخ. كما لا أصدق أن كل الكنائس والمساجد، وكل الصلوات، ورحلات الحج كلها بدون طائل أو هدف. وكما ذكرت أنت عن زيارة سايح للحج - «أن تسافر لغرض سام، وما هو اسمى من أن تزور المولى عز وجل نفسه؟». أنا دائماً أتمنى أن تجد المسيحية يوماً ما، رجلاً أو اثنين ليخبروا الوثنيين السعداء عن سعادة المسيح وأتباعه. ربما يساعد ذلك سكان جبال النوبة والدينكا والزاندي (ثلاثة أجناس مشهود لها بالرجولة - خصوصاً الاثنين الأولين)، في بلورة نواة مكونة من ثلاثة أديان - الإسلام والمسيحية والطبيعة - الاسلام ببساطته السمحة وركائزه الخمس، والمسيح بلطفه ورحمته، وعبادة الجمال في الطبيعة.

اعتقد يتوجب على كل النظار أداء فريضة الحج، ذلك سيعطيهم مسحة من الورع، كما يجب على الملوك عدم التفرغ للدنيا فقط وإلا سيصطدمون مع البابا أو فقهاء المسلمين، كما يجب عليهم أن يتزينوا ببعض الطهر. كيف كان أثر الحج على محمدين؟ إنه ظريف ولاذع وداعر.

هناك وصف مختصر ولكنه رائع عن الأفواج الغفيرة من الحجيج وهم يتدفقون على مكة، في كتاب ويڤل «حاج إلى مكة»، في محاولته لتحليل الأثر العظيم لمدينة مكة والكعبة. ويقول: «قد تبدو كحماس غوغائي، ولكن لا بد من أن يكون هناك شيء آخر وراء ذلك». ويقول كذلك إن المسيحية قد فقدت هدفها وليس لها شيء يقارن بحجيج المسلمين سوى، بصورة مصغرة، حجيج المسيحيين إلى لوردز (مدينة صغيرة في جنوب غرب فرنسا يحج لها المسيحيون الكاثوليك في أغسطس من كل عام، ويصل عدد الحجيج في العام إلى حوالى ٨٠٠٠٠٠ شخص - المترجم).

أما بالنسبة لأوروبا - فقوة الأحداث، وليس لحكمة فطرية متأصلة، أجبرت الحكومة أن تشكل، ببطء وتشنج وتذمر، جبهة مناهضة للعدوان. إن اتفاقية ميونخ تظل خطأً مريعاً، ونحن محظوظون أن نحظى بتلك الشهور القليلة (على حساب الشيك البؤساء) لبناء جيوشنا وأسلحتنا وأحلافنا. ألمانيا تكاد تكون محاصرة الآن،

بالرغم من مقالات التايمز المحبطة، ولا بد لها أن تغير أسلوبها أو تقوم بعمل متهور لفك الحصار. أعتقد أن أحوالها الداخلية من أسوأ الأوضاع - نقص في الشحوم والمواد الخام. ما جرى في ألبانيا ما زال يكتنفه الغموض. زوق (رئيس البانيا - المترجم) لم يقدم أي تفسير أو احتجاج أو نكران لتصريحات إيطاليا. إنه أمر عجيب، ولكنه تسبب في قطيعة نهائية بين موسليني والرأي العام الإسلامي إن كان ذلك في القاهرة أو أم درمان أو القدس.

هل سبق لي شكرك لإرسالك لي كتاب «صحوة العرب» للكاتب جورج أنطونيوس؟ آسف إن لم أفعل. كنت تواقاً لقراءته وقد وجدته جيداً. كنت أعرف أنطونيوس ولكن معرفة سطحية. الفصول الأولى عن فلسطين التركية كانت ممتعة بوجه الخصوص. أتمنى أن يكتب أحدهم عن اليمن والحجاز وعسير في فترة ما قبل الحرب.

تسوية قضية فلسطين تبدو مرضية للعرب وتبرهن على نفوذ ملوك العرب، وقد حازت شرق الأردن أيضاً على حرية أوسع في إدارة شؤونها الداخلية.

أين ومتى ستكون عطلتك؟ أنا في طريقي الآن لقضاء عطلتي. الجو حار جداً والنيل هادئ وأملس، وصخور الجبال الرملية غير واضحة من السديم. يرتعد جسدي كلما أتذكر معاناة الرقيق وهم يساقون تحت شمس مايو الحارقة إلى أسيوط. الآن درجة الحرارة ١١٧، وحتى بالمراوح والثلج والحرية يتصبب العدد القليل من ركاب هذه الباخرة، عرقاً ويستشيطون غضباً. وأنا سعيد جداً بزيارتي إلى سايح من اردر (على جبل الميدوب). ولكني كنت أتمنى أن اصطحبه بمفردي خلال الجبال بدون قضايا ديات تشغله. ولكنت تحادثت معه حول نار التدفئة تحت الخلود الأبدي، وعماذا تفكر الجمال، وعن هل يتذكر هو جده وماذا يرغب في أن يكون ابنه الصغير. سايح له سحر آسر، ربما كانت عيونه، أو تلك الابتسامة البطيئة المحببة للنفس، أو مجرد ذلك الاحترام الدارس الذي يتسم بالوقار، أو العوامل الثلاثة معاً. على أي حال هذا ما أشعر به. فهو يجبرني على التواضع بنظرته الواضحة وقوله الصادق. أرجو أن

تبلغه تمنياتي الحارة بالسعادة له ولابنه، ذلك المخلوق الصغير المسكين ولكن بحمد الله المولود في الميدوب وليس في مورافيا.

أرجو أن تكتب لي مرة أخرى يا قاي عن أخبارك وفلسفتك...

كان ذلك بعد آخر عطلة له في فترة السلم التي كانت سبقت الحرب الوشيكة، والتي ستعني أن كسلا سيحتلها آكلو المثلوجات (الطليانة - المترجم) وستقصف الخرطوم.

وقد كتب إلى لورد لوغارد عن استخدام الاذاعة والسينما لأغراض تعليمية في أفريقيا، وإلى آركل عن منشورات الحكومة الثقافية متمنياً لو وجد الوقت لكتابة تاريخ البجار، وواعداً نفسه أنه بعد ثلاث سنوات سيستقر في منزل ريفي في مقاطعة دورست في جنوب غرب إنجلترا، بمعاش ووقت فراغ كبير للتفرغ لكتابة ذلك التاريخ.

وقد سافر جواً إلى الخرطوم يوم ٢٥ أغسطس ١٩٣٩، مجرد أيام قبل إعلان الحرب ضد المانيا، ليستلم مهامه كسكرتير إداري.

ومن هنا ولاحقاً ستروى القصة أساساً بلسانه هو.

الفصل السادس

الحرب مع ألمانيا

سبتمبر ١٩٣٩ - مايو ١٩٤٠ م

خطاب مرسل إلى مديري المديريات الخرطوم ٤ سبتمبر ١٩٣٩

لم أتوقع أن يقطع إعلان الحرب أمس أول خطاباتي الشهرية لكم. إلى الآن لم تدخل إيطاليا الحرب - الأسرة المالكة والشعب يبدو أنهم ضد الدخول في الحرب - ولكن الخطر لم ينقشع بأي حال، ترتيباتنا التحوطية وتخطيطنا الدفاعي لا بد أن ينبني على ذلك الاحتمال. لقد تلقينا تعليمات متكررة من الحكومة البريطانية لتفادي أي نوع من الصدام أو التحرش مع ايطاليا.

سأبرقكم اليوم رسالة صاحب الفخامة الحاكم العام الشخصية إلى أهل السودان، وهي مرسلة في ذات الوقت إلى الصحف مع رسالة جلالة الملك الموجهة للامبراطورية والتي أذيعت اليوم.

في اجتماع مجلس الحاكم العام بتاريخ ٢٩ أغسطس الماضي، قمنا بإجازة عدة قوانين لتسري طوال فترة الحرب وهي:

١- قانون الدفاع عن السودان، ١٩٣٩.

٢- قانون التحفظ على ممتلكات العدو، ١٩٣٩.

٣- قانون المتاجرة مع العدو، ١٩٣٩.

٤- قانون الجمارك (سلطات حربية)، ١٩٣٩

٥- قانون قوة دفاع السودان، ١٩٣٩.

٦- قانون الشرطة (تعديل)، ١٩٣٩.

النظم الخاصة بالبند الأول أصبحت سارية المفعول بمجرد إعلان حالة الطوارئ. كما أصبح السودان في حالة حرب عندما قطعت الحكومة البريطانية العلاقات مع المانيا أمس وقطعت مصر العلاقات مع ألمانيا اليوم.

إن سكان العاصمة المثلثة [الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان) في غاية الهدوء. وقد أرسل مؤتمر الخريجين الخطاب التالي للحاكم العام:

«في هذا المنعطف العصيب، وتقديراً للوضع العالمي الحرج، حيث تهتز ركائز السلام، نحن نقدر تماماً الخطوات التي اتخذتها حكومتنا اليقظة والتي جارية اتخاذها نيابة عن الشعب، لحماية مصالح البلاد الأساسية بكل التحوطات اللازمة. لقد تطوع الكثيرون من أعضاء المؤتمر عن طريق مكاتبهم ومنتدياتهم للمشاركة في التحوط ضد أي غارات، كما وأن المؤتمر نفسه متأهب ومستعد لتقديم أي خدمة قد تطلب منه، سائلين المولى عز وجل أن تنقشع هذه العاصفة السوداء، وأن تسود مجهودات السلام».

التوقيع: اسماعيل الأزهري

سكرتير مؤتمر الخريجين

١ سبتمبر ١٩٣٩

❐❐❐

وقد رد الحاكم العام على خطابهم عن طريق مكتبه معبراً لهم عن ارتياحه لموقفهم ومؤكداً لمبادئ العدل والسلوك الانساني التي تحارب القوى الديموقراطية من أجلها. للمعلومية لا الخطاب ولا الرّدّ يوحيان بأن المؤتمر يتحدث نيابة عن السودان.

وقد وقع الحاكم العام أيضاً على تصريح يصادق بإنشاء قوة دفاع احتياط مفصلاً

شروط الالتحاق، والخدمة، والتعويض في حالة العجز والإصابة. ليس في النية في الوقت الراهن تشكيل عصابات مدربة من المواطنين، ولكن لا بد من جهاز يقوم بحماية أتيام المدافع المضادة للطائرات الموجودة حالياً، وأي قوات تطوعية قد تتطلبها الضرورة.

قامت لجنة إمدادات الطوارئ بعمل مقدر. الموقف العام للغذاءات والمواد التموينية الأخرى مرضية تماماً، كما وأن صادرات الزيوت والمأكولات والأبقار والضأن إما حظر تصديرها أو أخضعت لتراخيص. السيد كارلس، مدير الاقتصاد والتجارة بالإنابة جاري إعداد ما يشبه إعلاناً عن التموين بغرض:

(أ) التطمين عن الكميات المتاحة.

(ب)التحذير ضد اكتناز الأفراد للمؤن ورفع التجار للأسعار.

واذا ما طال أمد الحرب، فلا بد لنا، ضمن إجراءات أخرى، من زيادة الرقعة المزروعة بالحبوب بالري (بما في ذلك احتمال زراعة قمح لنمد به مصر). وبهذه المناسبة، ولو أن الحروب تسبب التقلبات الاقتصادية، إلا أن السودان استفاد فائدة عظيمة من صادراته خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد عاد القائد العام وقائد سلاح الطيران إلى البلاد. ولو أني لست في حل من الإدلاء بمعلومات عن انتشار قواتنا البرية والجوية، أو إمداداتنا العسكرية المحتملة، لكنني أستطيع القول بأن السودان الآن اكثر استعداداً للحرب من سبتمبر الماضي، ولن تعوزنا المساعدات الخارجية من حالة حاجتنا لها.

الحاكم العام يرغب في تذكيركم أنتم وموظفيكم التنفيذيين من التأكيد للأعيان والأهالي الشعار المستهلك كثيراً (العمل كالمعتاد) ويمكنني أن أضيف (الترفيه كالمعتاد)، ومهما كانت الأخبار أن تقابلوها بتفاؤل وعدم مبالاة، وأن تحافظوا بقدر الإمكان على طريقة حياتكم العادية وروتينكم. كما يجب أن تكونوا، بقدر الإمكان، دائماً على استعداد للالتقاء بقادة الرأي من زعماء القبائل والمتعلمين. وهم سيحذون

حذونا والأهالي سيحذون حذوهم. أبدى المفتي روحاً وطنية عالية عندما تفقد البارجة الحربية البريطانية «الملايو» في ميناء الاسكندرية (قال إن بها صفوفاً من المدافع كل منها بطول شارع)، وقد وضع النقاط على الحروف في قوله لي أمس: «إن أفضل ما يقدمه السودانيون من خدمة هو «النظام» - أي، أن يتعقلوا ويطيعوا الأوامر، ويتجنبوا الإشاعات».

سنجتهد في تخفيض البرقيات المشفرة قدر استطاعتنا - مدير مكتب الأمن العام، الذي يعمل صباح مساء يشارككم في كراهيته للشفرة - ولكن في بعض الأحيان يتطلب تشفير برقية بسيطة لا تنم عن أهمية لأنها تشير لبرقية أخرى أكثر سرية.

ملحوظة: يوم ٨ سبتمبر ١٩٣٩ - لم تعلن الحكومة المصرية إلى اليوم الحرب، ولكن يتوقع حدوث ذلك وشيكاً. لقد تم اعتقال المواطنين الألمان وسلم الوزير المفوض الألماني جواز سفره (أي طلب منه مغادرة البلاد - المترجم).

❐❐❐

إلى يوان كامبل - مدير كردفان الأبيض ١ أكتوبر ١٩٣٩

أرجو أن تبلغ سلامي إلى جميع نظار عموم منطقتكم، وأن تفيدهم بأن كردفان ما تزال في وجداني، وأنا على يقين من صداقتهم ومساعدتهم. كما أذكر أول يوم التقيت فيه بأربعتهم: علي التوم، وأحمد عمر، ومنعم منصور، وحسن تمساح وهم يحكمون ٧٠٠٠٠٠ شخص، وقد تحدثوا معي في أم سعدون بدار حامد. وبما أن الحاكم العام سيلتقيهم فمن الأفضل أن لا أرسل لهم رسالة رسمية، ولكن أرجو أن تخبرهم أني أذكرهم بالخير، وسيسهل علينا خوض هذه الحرب بما أعرفه عنهم من ولاء.

❐❐❐

إلى مديري المديريات الخرطوم ٨ أكتوبر ١٩٣٩

تسبب الشهر الأول من الحرب بالطبع، من زيادة أعباء هذا المكتب والمكاتب الرئيسية الأخرى، وقد كان من دواعي ارتياحنا استقبال حوالى ٣٥٠ من موظفينا العائدين من عطلاتهم بعد أن تم استدعاؤهم.

لا حاجة لي للإسهاب عن الوضع العالمي فكلكم تملكون الراديو وأجهزة رويترز. الشواهد القريبة تظهر أن إيطاليا اتخذت موقفاً متذبذباً، وهذه نعمة بالنسبة لنا من ناحية أنها ستمنحنا زمناً إضافياً لتكملة استعداداتنا المختلفة، ومن ناحية أخرى تسبب لنا الكدر حيث إن الإجابة لأغلب مشاكلنا تعتمد على موقف إيطاليا النهائي، ونتمنى أن تنجح حكومات الحلفاء في إرغام ايطاليا لتحدد موقفها. في غضون ذلك، فإن هذا المكتب، على سبيل المثال، لن يتسنى له الإجابة عن عدة استفسارات إلا بأجوبة افتراضية.

استنتج أن هناك برماً من تأخيرنا عن الإفصاح عن خططنا لمنح براءات للمدنيين، موظفين وغير موظفين، وشروط براءاتهم (وبهذه المناسبة أيضاً شروط خدمة وحدات المدفعية المضادة للطائرات). في الواقع تم عمل الكثير على الصعيدين، ونأمل أن نصل لقرارات نهائية وشيكة. لا بد أن نتذكر أن الحرب قد بدأت من قبل شهر واحد فقط، وأن الثلاثة أسابيع الأولى منه، كانت الحكومة المركزية تعاني من نقص حاد في الموظفين الغائبين خارج البلاد في عطلاتهم السنوية. كما كان هناك كم هائل من قوانين حربية كان لا بد من سنها، وأعمال تنفيذية مستعجلة خاصة بالتهريب، وممتلكات العدو، ومراقبة ما يكتب ويقال، والتشفير، وفحص المشحونات، وضبط الغذاءات. في مثل تلك الظروف أعتقد أن العدد القليل من الموظفين أبلى بلاء حسناً.

أما في ما يختص بالبراءات، فيحتاج القائد العام إلى ٧٥ ضابطاً اضافياً من موظفي الحكومة عندما تنشب الحرب مع إيطاليا، منهم ٤٥ غير محاربين أو شبه محاربين، وثلاثون محاربون .وربما أحتاج لثلاثين محاربين إضافيين كاحتياط ضد الإصابات. أغلب الـ ٤٥ غير المحاربين (الذين تقتصر خدمتهم على الترحيل البري، والمعدات

الحربية، وفحص المشحونات، والبرمجة، والاتصالات، وسلاح الإشارة وسلاح الخدمة وخلافه، وأغلبهم سيقيمون في الخرطوم وعطبرة وبور سودان) لا يحتاجون لتدريب مسبق، أما في ما يختص بالمحاربين فستعد لهم برامج تدريبية متزامنة مع عملهم، وقد تم إعدادها بالفعل.

من المستغرب له أن عدد البريطانيين المدنيين العاملين في السودان قليل جدّاً. المجموع الكلي ١١٥٠ شخصاً، وإذا استبعدنا المبشرين ينخفض العدد إلى ١٠٨٠، منهم ٨٤٠ موظف خدمة مدنية. بالإشارة للأسئلة الثلاثة عن: (أ) اختيار الرجال للبراءات، و(ب) التدريب، و(جـ) شروط الخدمة، أود أن استشهد ببعض ما ذكره ونستون تشرشل في خطبة ألقاها مؤخراً:

«نحن نتألم بشدة من اللوم الذي يوجهه لنا أولئك الذين يتوقون للمشاركة في الحرب والذين لا نجد لهم مجالاً في الوقت الحاضر، كل ذلك سيتضح عندما يحث سيرنا... إن الرجال والنساء الغيورين على وطنهم يجب عليهم، ليس فقط، التغلب على الخوف، وإنما التغلب على المضايقات والضجر أيضاً». يجب أن لا تلهينا الضرورات الخارجية عن أهمية الشؤون المحلية من جانب الشعب أو المسؤولين. وفي هذا الصدد قد يهمكم أن تسمعوا نتيجة استطلاع الرأي الذي بدأ في مارس، والذي تمخض عن المداولات التي دارت خلال اجتماع مديري المديريات، عن العلاقة بين المتعلمين والعناصر القبلية في السودان. لقد وصلت كل الردود الآن، وقد أسفرت العملية الحسابية عن أن ١٢٨ من الموظفين الحاليين والسابقين يعملون في أجهزة الحكم المحلي (قبلي وبلدي)، لم يتسنَ لي بعد أن أحلل الأرقام أو أصنفها بين المناطق، أو أخلص لأي قرار نهائي ما عدا القرار الرئيسي الذي يشير إلى أن السنوات القليلة الماضية شهدت تراكماً هائلاً من المعلومات عما نسميه بالحكم الأهلي.

إلى يوان كامبل الخرطوم، ٢٥ أكتوبر ١٩٣٩

أرجو أن أتوفق في أن أشرح بوضوح الفرق بين البراءات التي يمنحها الحاكم العام والبراءات التي يمنحها الملك في خطابي الشهر القادم، والذي أجري إعداده الآن. إنك محق في تصورك أن براءات الحاكم العام تخص السودان فقط. وإذا ما رغبنا في إرسال بعض شبابنا إلى الجبهة الغربية فإن أولئك الحائزين على براءة من الحاكم العام لا بد لهم ايضاً من حيازة براءة من الملك (وسيكون هذا أسهل من حيازتهم على براءات من الملك دون حيازتهم على اي براءة). نحن لا نرغب في منح براءات ملكية لأي شخص الآن حتى لا يكونوا عرضة للاستدعاء من وزارة الحربية، إلى أن يزول خطر إيطاليا. وعندما يزول ذلك الخطر سننظر فيمن سنرسل للجبهة الغربية، وسنركز على الذين تم تدريبهم. ليس هناك فرق في التدريب، ولكن ليس هناك مجال للاستغناء عن أي شخص لإرساله للجبهة الغربية في الوقت الحاضر، أو في المستقبل القريب. ليس هناك حاجة لهم في بريطانيا على أي حال حتى اذا تمكنا من الاستغناء عنهم. إن جنود الاحتياط الذين تم استدعاؤهم بالإضافة إلى ضباط الفرق الاستكشافية واحتياط سلاح التدريب، سيكونون كافين في الوقت الراهن، وهناك الكثير من الشبان في بريطانيا راغبون في الالتحاق بالجيش ولم يفلحوا بعد، أي لم يتم قبولهم بعد.

إذا ما فاتحك مساعد مفتش مركز في هذا الموضوع، يجب أن تفيده بأن الاختيار للتمرين يتم بموجب مواصفات معينة (هل يمكن الاستغناء عنه؟ هل هو في نفس السن للشباب الذين يتلقون التدريب في بريطانيا؟ هل لديه أي خبرة في سلاح التدريب؟ هل هو موظف معاشي؟ أم تحت المعاينة؟ أم متعاقد؟)، صادق عليها الحاكم العام، ومصممة لخوض الحرب بالاستفادة القصوى من رجال السودان. في الوقت الحاضر فالفائدة القصوى هي في تواجدهم هنا في السودان، أي بمنح براءة من الحاكم العام (والتي ستمنح فقط عند اندلاع الحرب مع إيطاليا) أو في الاستمرار في العمل المدني. في ما بعد، بالنسبة للبعض، يمكنهم الذهاب للجبهة الغربية.

إلى مديري المديريات الخرطوم ٣ نوفمبر ١٩٣٩

مرّ الشهر الثاني للحرب وما زلنا نخمّن أين ستقع ضربة هتلر التالية، أو إلى أي مدى ستبعد إيطاليا من المحور. قد نعرف بوضوح ما سيقوم به هتلر في الأيام القادمة، أما بالنسبة للأمر الثاني فهناك دلائل تشير على اشمئزاز تجاه المحور وتزايد نفور لسياسة التدخل، الشيء الذي يظهر ترتيباتنا الخاصة بالجبهة الشرقية وما بعدها كأنها غير منطقية. أنا شخصياً أشعر أن كل الدلائل - رويترز والصحف والتقارير المخابراتية تشير إلى أن الحكومة الايطالية قد استعاضت عن سياسة المحور بسياسة ليست موالية للحلفاء (إلى الآن) وإنما سياسة إيطالية محضة، أقل فاشية وأكثر وطنية، أقل عدوانية وإنما أكثر مكراً. يبدو أن نفوذ «القمصان السوداء» (أنصار الفاشية - المترجم) قد انحسر وأصبح أقل هيمنة، كما وأن نفوذ العرش والكنيسة والجيش أخذ يظهر. أفضل تخمين لموقف موسليني كان من مراسل التايمز في روما بتاريخ ٢٢ أكتوبر والذي سيعاد نشره في صحيفة السودان هيرالد غداً. كل ما يمكن أن نخلص له بإقناع هو أن الخطر على السودان قد ضعف أو على الأقل قد تأجل إلى الربيع، ولكنه لن يزول. ولو أني أعتقد بأن لنا الحق في التفاؤل محلياً، لكن يجب علينا تحاشي التفكير الرَّغبي والاستنتاجات الوردية التي تقود إلى إرخاء الحيطة. جميعاً نأمل أن يتمكن الحاكم العام (سير ستيوارت سايمز) من الحصول على معلومات مستقاة من مصادرها عند زيارته للقاهرة في النصف الثاني من هذا الشهر (لقد تأجلت الزيارة نسبة للأوضاع في مصر).

أهم حدث في مصر هذا الشهر كان إجازة البرلمان للمرسوم التشريعي الخاص بوضع «حالة حصار» بمقتضى التزامات مصر نحو بريطانيا بموجب الاتفاقية. إن مصر لم تعلن الحرب رسمياً ضد ألمانيا (بالرغم من تصريح المانشستر قارديان الصريح الذي تؤكد فيه إعلان مصر والعراق للحرب)، ولكنها مثل العراق اتخذت أغلب الإجراءات التي تنطوي على حالة الحرب. أنا لا أحتاج لإنكار إذاعة باري في خبرها الذي يقول إن السودان قد أعلن الحرب على ألمانيا! فإن وضعنا بالطبع شاذ بعض

الشيء بالنسبة للقانون الدولي (عندما يعلن الأب الحرب ولا تعلن الأم، فماذا يفعل الطفل الرضيع؟)، ولكن ذلك أمر نظري، فنحن مشتركون في الحرب فعلياً، وإن لم نكن قانونياً.

إن الرأي العام في مصر كما يظهر في كل الصحف بتياراتها المختلفة، (بما فيها مصر الفتاة، الناطقة باسم مجموعة القمصان الخضر) يستمر في دعمه القوي للحلفاء. وقد قوبلت الاتفاقية الانجليزية - الفرنسية - التركية بترحاب شديد، وكان لها أثر بالغ في رأي المستنيرين من المصريين والسودانيين، ويتوقع أن تكون ذات أثر فاعل ليس فقط في سياسة حوض البحر الأبيض المتوسط، وإنما في سياسة الشرق الأوسط والبلاد الاسلامية، نسبة لمعاهدة سعد آباد، بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان.

السيد أ. ف. أ. كرين والذي عيِّن قبل فترة وجيزة كمسؤول لتعليم الكبار، قد أعير لمكتب السكرتير الإداري لمدة ستة أشهر كموظف إذاعي، وقد وضع خطة مبدئية لإذاعة سودانية من جهاز إرسالنا على الموجة القصيرة، مع برامج عربية تشمل أخبار الحرب والتعليقات، ومواد تعليمية، وموسيقى، ومواد ترفيهية أخرى. سيتم تقييم المشروع قريباً، وإذا ما سمحت ظروفنا المالية، ستكون ذات قيمة ثقافية دائمة في زمن السلم. وقد تمت تجربة ناجحة في سبتمبر وأصبحت المحطة تسمع في مدني وكوستى وأتبرة وحتى أبعد من ذلك. وإذا تمت الموافقة على المشروع سنخطركم بليلة الافتتاح. الهند والمستعمرات الأخرى بدأت محطاتها في البث فعلياً.

بعث لي لورد لوغارد خطاباً شخصياً يلح فيه علينا أن لا تلهينا الحرب عن ترسيخ قواعد الثقافة في أفريقيا، واقتبست لكم أدناه جزءاً من المنشور بتاريخ ٢ أكتوبر ١٩٣٩ الصادر من معهد اللغات والثقافة الأفريقية:

«يبدو لنا أنه من الضروري أن لا ينصرف اهتمام الرأي العام عن رفاهية الشعوب الأفريقية بالتركيز المطلق على مجريات الأمور في أوروبا. ومهما كانت الأحداث في بقية العالم فيجب أن تجري الحياة في أفريقيا كالمعتاد. كما يجب أن يستمر المسؤولون في إدارتهم والمبشرون في تعليمهم وتنويرهم، ونحن على قناعة أن الحكومات التي قبلت

تحمّل المسؤولية في أفريقيا لا ترضى بأن توقف الحرب المجهودات المختلفة لتطور الشعوب الاجتماعي والذي بدأوه في سنوات السلم.

❐❐❐

إلى اللورد لوغارد الخرطوم ١١ نوفمبر ١٩٣٩

أرجو أن تكون بخير وغير محبط كثيراً بهذه الحرب. النصر مؤكد بلا شك، ولكني آمل أن لا يكون ثمنه باهظاً، كما آمل صادقاً أن لا ترتكب إيطاليا حماقة الانحياز لإعدائنا، حيث إن مستعمراتها ستكون فريسة سائغة لجيوشنا وجيوش الفرنسيين، ولكنها قد تسبب لنا بعض الأضرار المعيقة لمصر وللسودان قبل إذعانها. الطليان في أثيوبيا جميعهم، ما عدا قلة من المتهورين، يخشون الحرب. فالبلاد لم يتم تهدئتها بالكامل، ووضعها الاقتصادي مأسوي. من ناحية أخرى فإن دوق أووستا، نائب الملك، رجل من الطراز الأول وعطوف، وبهذه المناسبة فهو مؤيد جداً للبريطانيين. وقد التقيته في حلفا عند عودتي من إنجلترا قبل خمسة أيام من إعلان الحرب، وقد أعجبت كثيراً بشخصيته وأهدافه. ولكن إلى أي مدى سيتمكن من خلق المستعمرة النموذجية السعيدة التي يطمح فيها، يعتمد إلى حد كبير على مقدرته في بناء جهاز إداري مهني ومتجانس، وهذا هو هدفه الأساس. وكذلك تفادي السياسات الاقتصادية الشمولية وغير المجدية التي تحاول روما تصديرها إلى أديس أبابا. وهو معجب كثيراً بالسودان ويقرأ كتب المستعمرات البريطانية، بما فيها كتابك، بشغف. وقد استفسرني إن كان بورديلون (حاكم نيجيريا والذي كان مرشحاً أن يخلف سير ستيوارت سايمز حاكم عام السودان ولكن التعيين أُجِّل ثم أُلغي بسبب الحرب) لوغاردياً (أي - يؤمن بنظريات لوغارد - المترجم) وطبعاً كان ردي له «آمل ذلك».

لقد مددت مأمورية سايمز لمدة ستة أشهر من أول العام الجديد، ولا أدري ماذا سيحدث بعد ذلك، ولكن، إن زال خطر إيطاليا على مصر والسودان فلا أرى سبباً من التغيير.

كان من الصعب عليّ أن أضطلع بمهام جيلان (السكرتير الإداري السابق لنيوبولد - المترجم) وفي نفس الوقت أواجه حرباً أوروبية، خصوصاً أن إيطاليا كانت لها جيوش برية وجوية ضخمة على حدودنا، كما وأن أربعمائة من موظفينا كانوا متغيبين خارج السودان في عطلاتهم السنوية ولن يتمكنوا من العودة قبل سبعة أسابيع. لقد شغلتني تماماً إجراءات الحرب لشهر كامل، ولم أجد الزمن والموظفين للالتفات والنظر للحرب من منظور مختلف وعمل خطة طويلة الأجل للحفاظ على اقتصادنا الزراعي والرعوي، وكذلك، وكما تحضنا أنت دوماً، على نشاطاتنا الثقافية، إلا في الأيام القليلة الماضية.

أنا متأكد من أن مساهمة حكومة السودان في المعهد العالمي الأفريقي لن تنخفض في عام ١٩٤٠، وفي حالة أي تخفيض غير محتمل سأعارضه بشدة وأعد بأن أسدد الفرق من جيبي الخاص.

أرسل لك نسخة من نشرتنا السرية والشخصية الشهرية التي يرسلها السكرتير الإداري لمديري المديريات. قد تهمك وتجد فيها أني اقتبست من خطابك لي فقرة، والنشرة أيضاً ينظرها كبار موظفي المراكز. آمل أن أؤكد في النشرة القادمة أهمية استمرار تطوير التعليم دون إعاقة متذرعاً بقرار الحكومة بالمضي قدماً في توسيع برامج التعليم المكلف والذي وضعه دي لاوور بالرغم من احتمال عجز الميزانية هذا العام. أعتقد ان هـ. أ. ل. فشر هو الذي عمل على تطوير التعليم المشهور في أحلك ساعات الحرب العالمية الأولى. إن الشباب، وليس الكبار، هم الذين سيناط بهم البناء على أنقاض الخراب، وكلما كانوا جيدي التأهيل كلما كان ذلك أفضل.

❐❐❐

إلى و. ب. - كندي - شو الخرطوم ٢ ديسمبر ١٩٣٩

أشكرك على خطابك بتاريخ ١٨ سبتمبر والمرسل من (P06586) أينما كانت (في زمن الحرب تعطى أسماء الأماكن حروفاً وأرقاماً لزوم السرية- المترجم). لم أجاوبك

فوراً خشية أن تحسبني مهذاراً، وكذلك لأنني لم أجد الوقت إلاّ الآن. أول ثلاثة أسابيع الحرب كانت مرهقة للغاية، فقد وصلت قبل خمسة أيام من بداية الحرب (ثمانٍ وأربعين ساعة من ميناء ساوثهامبتون بإنجلترا إلى شجرة غردون بالخرطوم) وكان نصف موظفينا البريطانيين في إنجلترا، ولم نتمكن من إرجاعهم إلا بعد شهر، ولذلك اضطر أن يتطلع بالمهام الأولية القلة من الموظفين الموجودين. على أي حال فإن مكتبي الآن عبارة عن خلية نحل، وتمكنا من السيطرة على الأمور، ولكن الوضع كان مقلقاً مع تواجد الطليان بجيشهم الضخم وهم يقلبون النظر في ما يفعلون. وبخلاف إخلائنا لكسلا عن طريق الخطأ (حيث أخطأت في تشفير كلمة) فلم أرتكب أي أخطاء أخرى، والآن أنا محمي تماماً.

حوالى نصف عملي ما زال في أمور الحرب. لقد ألحقنا أكثر من ستين موظفاً بحلقة تدريب، وعندنا أربعون احتياطياً، وأربعون أخرون مختارون لأعمال شبه حربية، وهذا يعني حوالى ١٦٠ في جملتهم. أنا أشك في استطاعتنا توفير أكثر من ٢٠٠ موظف من موظفينا الـ٨٤٠ دون المساس بأعمال السودان. وبما أن هناك مليون جندي يحملون السلاح في إنجلترا ولم يتعرض الجيش إلا لإصابة واحدة فقط إلى الآن، فيبدو من العبث أن نرسلماية أو مايتين من مفتش مراكزنا من ذوي الخبرة، ومن الزراعيين والمهندسين وخلافهم ممن نحتاج لخدمتهم هنا. وعندما تنتشر إيطاليا فعلياً، وتتقدم ألمانيا فعلياً، يمكننا تقييم الموقف على ضوء المستجدات بصورة أفضل وننظر فيمن يجب أن يذهب.

أخشى أن لا تكون هناك فرصة لوظيفة في الصحراء الليبية. لقد أرسلنا قائدنا العام، اللواء ستون، الملحق العسكري السابق في روما، بالطائرة إلى اجتماع عسكري سري في بحيرة تشاد، حيث اجتمع مع جنرالات فرنسيين وتبادلوا الأفكار بالنسبة لموضوع التبستي والعوينات وتونس وطبرق. وقد رجع سعيداً بأن تونس تعج بسرايا مدفعية من السنغال وتركيا وفرنسا وكلهم متحفزين لغزو طبرق. من الواضح أن التخوف من أن رتلين من ليبيا يسرعان الخطى نحو بحيرة تشاد قد انحسر، وكنت

أعتقد أن مجرد إلقاء نظرة على خارطة التبستي تكفي لتسفيه الخبر. على أي حال فإن الخفر في حلفا (بحجباتهم) يحملقون (بالتناوب) عبر النهر بلا طائل في رؤية عربات الفيات الغازية، بينما يتبادل بمباشيتنا الأنخاب مع الضباط الطليان مشكلين محوراً جديداً.

أظهرت رويترز هذا المساء أن فنلندا قد تم اغتصابها تقريباً بالكامل. الجميع يبدون مشاركين في هذه الحرب (التي تقول عنها النيويورك تربيون إنها حرب زائفة) ما عدا ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، على الأقل براً. أعتقد أن هتلر ستتملكه الغيرة وسيغزو الآن الدنمارك وهولندا وبلجيكا. عندما كنت أناقش المطران الايطالي هنا في أمر تسريح قساوسته في حالة الحرب، قال لي إن هتلر أفظع شيطان بعد الشيطان الأكبر.

الجانب التجاري في هذه الحرب ممتع جداً، وأنا رئيس الهيئة الاقتصادية والتجارية وأطلع على معلومات كثيرة عن الصادرات والعملات وخلافه - أشياء يصعب فهمها مثل (الناولون على ظهر الباخرة)، (الثمن والتأمين والناولون)، (بوليصة الشحن البحري) وخلافه.

كانت الأمطار جيدة وكذلك المحاصيل، وقد تلاشى خطر الجراد. محصول الصمغ لا بأس به ولكن لا يتم تصديره، والبحرية تصادر مشحوناتنا للبلاد المحايدة.

❏❏❏

إلى مديري المديريات ٥ ديسمبر ١٩٣٩

إن الحرب مستهلكة كبرى للشباب. هناك مقولة يونانية قديمة تقول إن الفرق بين الحرب والسلم هو: في حالة السلم يدفن الأبناء آباءهم، وفي فترة الحرب يدفن الآباء أبناءهم. إن لم تدمر هذه الحرب أجسام شباب السودان، فستدمر عقولهم إذا ما خفضنا أو أخرنا تعليمهم. الحروب تجعل التعليم أكثر أهمية وليس أقل، لأن في الحروب تطغى العواطف على العقل وتطمس الحقيقة. عن طريق المدارس

تتمكن البلاد من تعويض أي فقد من الكفاءة أو الحيوية. أضف لذلك فإن الحرب، حتى في بلد ناءٍ كالسودان تترك وراءها مشكلات جديدة تتطلب مستوى أرفع من الإداريين، والفنيين، والقادة الوطنيين مما هو الحال في أيام السلم الصافية. أدركت الدكتاتوريات الأهمية القصوى لتدريب الشباب: هم يدعون أن حيوية الديموقراطيات قد نفدت. هذه الفرية يمكن لنا في السودان، كما هو الحال في بريطانيا، دحضها بحيوية مدارسنا، ومن يحتاج للأدوات المدرسية أكثر من الطالب السوداني؟ لقد قام أحد وزراء تعليمنا الحكماء في وضع أهم وأوسع إصلاح تعليمي في أحلك أيام الحرب العالمية الأولى.

ينطبق ذلك أيضاً على الصحة، فمن الخطل أن نهمل في الخدمات الصحية وإبادة الأوبئة أو التفريط في أطباء بتجنيدهم للحرب. كل الأطباء بمن فيهم الخريجون الجدد تتمسك بهم حكومات المستعمرات. بعضكم قد شاهد الفائدة العظيمة العائدة للسودان من استعمال أدوية شركة باير (Bayer)، على سبيل المثال ناقانول وم. ب. ٦٩٣ (Naganol and MB-693)- (المستمد من عقار برونتسيل) (Prontosil) وقد يسركم أن تعلموا بأن جائزة نوبل في علم الأمراض قد منحت للبروفسير الألماني غيرهارد دوماقك لبحثه في عقار برونتسيل (ولو أن السلطات الألمانية رفضت الجائزة). أعتقد أن معامل باير تم انشاء مماثل لها في أميركا.

انتشر مرض السحائي في المديرية الاستوائية من مناطق الدينكا من رومبيك إلى تشامبي وما زال ينتشر، ولكن المضاد الحيوي MB693 يستمر في تخفيض الوفيات. الحملة ضد الجدري في دارفور مستمرة، كانت هناك ١٩٥ إصابة و٤٥ حالة وفاة في نوفمبر. أكثر من ٤٠٠٠٠٠ حالة تطعيم تمت في سنة بين السكان البالغ عددهم ٧٥٠٠٠٠ نسمة، وقد ساعدت في تفادي وباء فاتك. حملة التطعيم الذي أجري في الشمالية خلال ١٩٣٨ و١٩٣٩ بلغ ٢ مليون حالة. كما منيت دارفور أيضاً بـ٣٩ حالة حمى راجعة وقد ينتشر الوباء إلى كسلا من أرتريا التي تشجع تردي الأحوال فيها من توالد الوباء.

قوبل نداء الصليب الأحمر ولورد هيج في السودان بنجاح منقطع النظير. كان الخوف من تنسي هذه الحرب ذاكرة المصابين في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، ولكن التبرعات من الخرطوم ومن الأقاليم الخمسة والتي بلغت في جملتها ٤٦١ جنيهاً مصرياً أعلى بـ٨٠ جنيهاً عن العام الماضي. وقد أرسل فرع الصليب الأحمر في السودان إلى عمدة لندن مبلغ ١٥٧٠ جنيهاً مصرياً كقسط أولي من السودان كان تَبَرُّعُ البريطانيين منه ٩٥٠ جنيهاً وغير البريطانيين ٦٢٠ جنيهاً. والمبلغ الأكبر يشمل مبلغ ٤٦٢ جنيهاً من السودانيين أساساً مبلغ ١٠٠ جنيه مساهمة واحدة وست مساهمات كل منها ٥٠ جنيهاً.

خلال نوفمبر تم تحويل ثلاثة وظائف كان يشغلها موظفين بريطانيين إلى الدرجة (S) التي يشغلها سودانيون، كل وظائف الدرجة (S) الآن من الحكومة تبلغ ٢٩ وظيفة.

لقد أسفنا بخبر نقل السير ريدر بولارد إلى طهران، والذي كان وزيراً مقيماً في جدة. وقد خلفه المستر ستونكوير - بيرد، القنصل العام الحالي في أديس أبابا، (كان القنصل في جدة ١٩٢٧-١٩٣١). سنفتقد بأسف تقارير ريدر عن السعودية عندما كان قنصلاً في ١٩٢٣-١٩٢٦. في تقريره الأخير وصف بوضوح المجتمع كخليط عجيب بين التمدن والبربرية حيث جاري تنفيذ مشاريع طرق وكهرباء ومياه كبرى تكلف ٢٥٠٠٠٠ جنيه استرليني، وفي نفس الوقت يحتفظ الملك بأربعين ضريراً في قصره في الرياض (عميان حتى لا يلقون بأبصارهم على حريمه)، ولكن ليتلوا القرآن طوال الليل لطرد الجن. كذلك يقول إن أعضاء المفوضية الإيطالية في جدة كلهم يطلقون لحاهم لاستدرار عطف المسلمين.

إلى الكولونيل ف. س. ك. شو وادي حلفا ٢٩ ديسمبر ١٩٣٩

هذه حرب عجيبة. أعتقد ستتضح الأمور في الربيع، عندما تقع الواقعة في مكان ما، غالباً في رومانيا. سنكسب الحرب لا شك في ذلك بالطبع، ولكني أخشى أن سلاح الطيران النازي سيسبب أضراراً بالغة قبل أن يستسلم.

بمجرد أن نطمئن أن الخطر الإيطالي قد زال (ولن نعرف ذلك قبل مارس في ما أعتقد) يمكننا أن نستغني عن بعض البريطانيين.

لقد أرسلنا بعض جنود الاحتياط من سلاح الطيران، كما استقال ثلاثة أو أربعة من موظفي مشروع الجزيرة المتحمسين للحرب. لقد ودعت أحد أصغر مفتشي مراكزنا والذي سيلتحق بسلاح الطيران. كنت أشعر بأنه يجب عليّ أن أضع يدي على كتفه وأنصحه أن يساهم في الحرب في وظيفة مدنية وليست عسكرية أو أعطيه بعض النصائح، ولكن الشيء الوحيد الذي خطر ببالي هو أن أحكي له حكاية صديق لدوق ولنغتون الذي طلب من الأخير أن ينصح ابنه الذي صار ملازماً أول عن كيف يتعامل مع الحرب. عقد الدوق حاجبيه الكثيتين ونظرا أسفل منخاره المقوس وقال للشاب: «يا أبني لا تضيع أي فرصة من أن تتبول!».

أنا أجد وظيفة سكرتير إداري ممتعة جداً، ولكنها مثل من يسير عبر غابة نحو هدف مجهول. يصطدم الإنسان فجأة بسلك شائك (مصلحة القضاء)، أو بلوائح مربكة (مصلحة الأراضي)، أو بعلامة (قف!) (ديوان المراجع العام)، أو مستنقع فساد (مصلحة...) الملهيات تعترض طريقك، وزوجات كبار الموظفين، يحاولون غوايتك ليضلوك عن الطريق القويم. والكل يعلم أن الغابة مأهولة وأطياف السودانيين السمراء تظهر من وقت لآخر بين الأشجار، ولكن المرء مكبل بالروتين وحريص لتفادي البرك والحفر ويشعر مثل «حاج بنيان المحاصر» (Bunyan's Pilgrin). وأحياناً، كما هو الحال في هذه الرحلة يتمكن المرء من مشاهدة الجبال المبهجة.

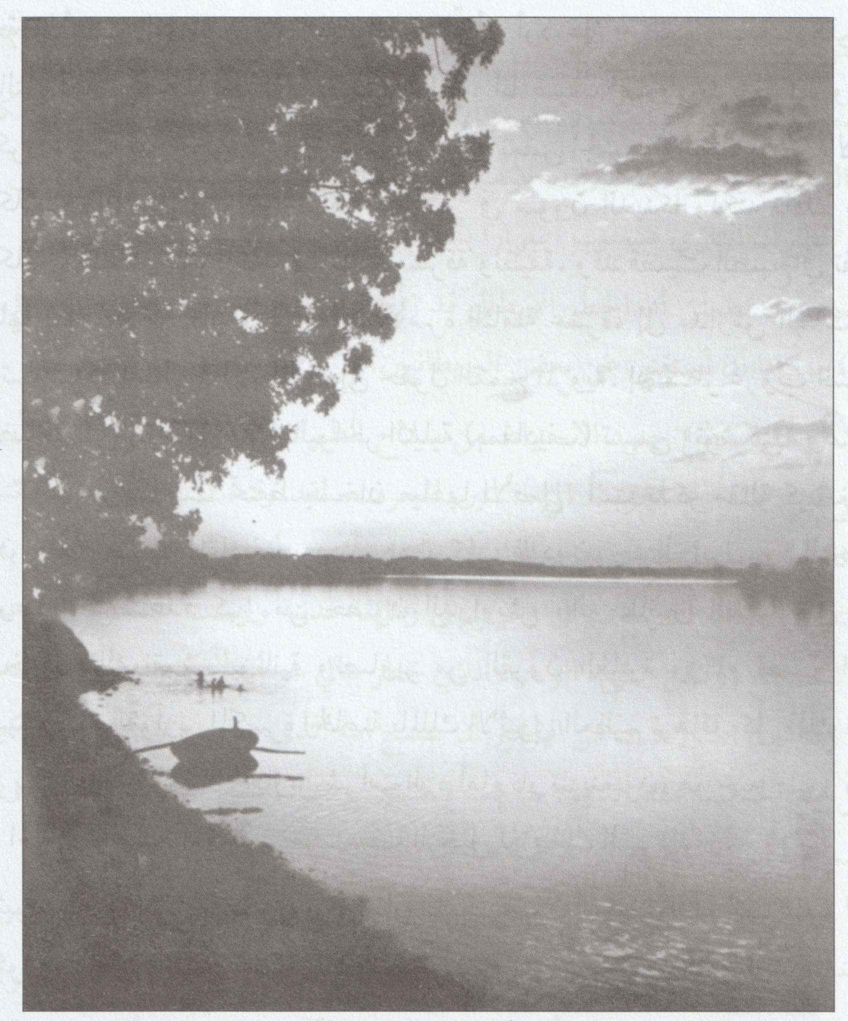
الجو بارد، للغاية هنا ٣٩ درجة. لقد حضرت هنا لقضاء عطلة الكريسماس في

راحة ولأكتب الرسائل. كان المفروض عليّ أن أرد على خمسين رسالة، وهذه هي رسالتي الثلاثين، ولذلك لقد قطعت شوطاً. أنا ضيف ج. و. تثرينغتون، والذي يسكن في بيت كبير مبني من أيام كبلبخ بواسطة بعض الجنود، والبيت يزخر بالأفيال والكلاب والزهور وأبراج الحمام. هو خبير في شؤون الدينكا ولكنه تأقلم بدون مشكلة في منطقة حلفا العجيبة. المدينة مشرقة ونظيفة، وقد قضيت الصبح في تفتيش معالمها المختلفة من الميناء إلى معابد الأسرة الثامنة عشرة، إلى مدارس البنات، إلى مكاتب شركة الخطوط الايطالية، إلى حقول القمح المروية. إن منظر غروب الشمس لا تضاهيه أي روعة. إحدى البواخر النيلية (بمقاديف) تسمى «توشكي» وصنعت عام ١٨٨٣ وما زالت تحتفظ بسخان مياهها الأصلي. أنت تذكر مقالة كيبلنغ عن لسان حلفا وصوت المقاديف يردد أسماء آبوكلي، غردون، جنرال إيرل، ود النجومي وغيرهم. هناك عدد كبير من حصون الدراويش والبريطانيين الطينية وفي أعلى الصخور هناك نقوش يونانية وتصاوير من القرون الغابرة وركام قصور الملكة حتشبسوت والقوارير المكسرة الخاصة بالملك الاثيوبي العظيم ترهاقا. كل ذلك يجعل هتلر يبدو صغيراً وزائلاً. جارين شراب الرم أمام نار تثرينغتون. هو خبير طيور وآثار وقد اخترع (باستحياء) سرير من سعف النخيل للأطفال السودانيين.

شوارع حلفا تضج بالمسنين من الرجال الذين يطلبون أن تلغى الضرائب عنهم لأنهم مسكوا في الماضي بركاب كتشنر. (لا يستبعد أنهم نزعوا قضبان سكك حديد كتشنر).

قبل مجيئي الى هنا قمت بزيارة تجمع قبائل الهدندوة لأول مرة من ثماني سنوات، وكان هناك كل أصدقائي القدامى، شيوخ الجبال الملتحين مثل النمور، والمحاربين الشباب بشعرهم الكث وسيوفهم وهم يقفزون حول نحاس القبيلة، وأوهاج بجسمه النحيل والذي حياني بابتسامته التي أسعدتني. هو يساوي جيوشاً من الكتبة والفنيين.

في الطريق توقف القطار في دورديب لمدة ساعة، حيث ظهر أدروب وقادني إلى حانوته الصغير وقدم لي القهوة وسألني عنك وعن الوعول. دورديب بها مجلس قرية صغيراً. «لقد اختاروني للمجلس لأنني لا أرتشي وقد كنت سايساً لجمالك». بعد



منظر لضفة النيل الأزرق في الخرطوم من أمام منزل نيوبولد.



السكرتير الإداري نيوبولد يتناول طعام الإفطار على فرندة منزله.



مبنى السكرتارية وتمثال كتشنر في الخرطوم.

الخرطوم بصخبها وفورانها كان من الممتع أن أستمع لإيمانه النقي أمام بيته الطيني الصغير الذي يطل على الجبال وأشاهد الهدندوة يجلبون ثمار الدوم المحملة على جمالهم وهم يتبادلون السلام ببطء ويعلقون سيوفهم على الأشجار في ساحة السوق.

من شباك غرفتي في الطابق الأعلى يمكنني أن أشاهد الصحراء خلف النيل حيث واحة سليمة وبرج الطيور. وفي بعض الممرات آثار خطوات بل وخطواتي. لا يستطيع هتلر أن يمحي ذكرياتنا. ولا يمكنه أبداً أن يقتل روح الرجال أمثال أدروب، بالرغم من «داكاو» (مدينة صغيرة في مقاطعة بافريا كان بها أكبر معتقل) وجنود صاعقته.

استلمت خطاباً من رتشارد أوين، الذي خلفني في سنكات والآن في جبال النوبة. كان في تجمع لشيوخ أولاد حميد عندما رفع شيخ راضي كمبال العجوز يديه إلى السماء وطلب من زملائه فعل ذلك وبدأ في ابتهال لله أن يحمي الملك جورج ورجاله وأن يمرغ أعداءه في الأرض. تلك الدعوة الصريحة والعفوية من حوالى ثلاثين من كبار الشيوخ كانت مؤثرة جداً كما قال أوين.

❐❐❐

إلى مديري المديريات الخرطوم ١ فبراير ١٩٤٠

حان الوقت لتتلقوا معلومات جديدة عن دار الثقافة السوداني (وهو العنوان النهائي له). لقد كان من بنات أفكار جيلان (السكرتير الإداري السابق - المترجم) بموجب خطابه الشهري لابريل ١٩٣٨، وتفاصيل دستوره ونشرته التمهيدية في خطابه بتاريخ يناير ١٩٣٩.

لقد تمكنت اللجنة الموقتة من إحراز تقدم ملحوظ في الشهور الأخيرة ويأملون الآن في أن نفتتح الدار في مارس. وقد طلبت لجنة المكتبة شراء ٣٢٥ كتاباً بالإنجليزي من إنجلترا وحوالى ٣٠٠ كتاب بالعربي من القاهرة. وعندنا أصلاً حوالى ٨٠٠ كتاب مستعمل بالإنكليزي من مصادر مختلفة. كما تجري لجنة المحاضرات في إعداد برنامج

مبدئي. مبنى البنك الأهلي لن يكون متاحاً في الربيع كما كنا نأمل ولذلك جارين تجديد عقد ايجارنا لمنزل شركة الكيماويات الامبرالية لمدة سنتين اضافيتين. إنه منزل كبير لحد ما وبه حديقة لا بأس بها. من الأفضل أن نبدأ بشكل متواضع ونستمر كذلك إلى أن ترسخ أقدامنا.

لقد أضفنا مؤخراً اثنين أو ثلاثة مصريين للجاننا المختلفة وكذلك بعض المثقفين السودانيين غير الموظفين الحكوميين.

❐❐❐

إلى س. و. م. كوكس الخرطوم ٩-١٢ فبراير ١٩٤٠

رياح شمالية قوية تحرك أمواج مياه النيل الخضراء، والشمس البازغة بالكاد تغطي أعلى أشجار النخيل، وأنا جالس على طاولتي ببجامتي أحاول أن أتذكر من دعوت ليتمشى معي خلال غابة الصنت.

لقد أمسكت عن الكتابة لك لأن هناك بعض الأشياء التي كان يتحتم عليٍّ إضافتها في خطابي لك. على الأقل كان ذلك في ديسمبر ويناير حيث ان السبب في سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر كانت المشغولية. ثم لم أحتمل العمل المتواصل ليل نهار لمدة ثلاثة أشهر بدون عطلة، ولذلك غادرت الخرطوم في عطلة لمدة اسبوعين إلى كسلا (لحضور تجمع قبائل الهدندوة)، ثم عطبرة (حيث أمضيت يومين كاملين لأول مرة في حياتي)، ثم حلفا. قضيت يوم الكريسماس وأربعة أيام أخرى في حلفا. كانت عطلة مريحة جداً. لم أقم بأي عمل يذكر وكنت أزور على مهلي بعض المعابد ويا للغرابة - بعض مدارس البنات، ثم أبحر أعلى وأسفل النهر في زورق تثينغرتون. أخذت معي خطاباتي الخاصة إلى حلفا لأرد عليها وعندما أخلص منها لأكتب لك، ولكن تثينغرتون كان يصر على أن نذهب في رحلات أثرية استكشافية، ولذلك لم أرد إلا على ثلاثين خطاباً.

وصلني خطابك بتاريخ ١٧ يناير يوم ٧ فبراير. لا أدري عن أي طريق وصل

ليأخذ ٢٢ يوماً، ولكن الختم على الظرف يقول حقيبة الحاكم العام الجوية». على أي حال فكل الخطابات المرسلة جواً تعطلت لأنه يشاع أن ميناء بول (Poole) مجمد، ولذلك تأتي الخطابات بدون انذار في فترات متباعدة مثل الطير المهاجر.

الأمور تسير قدماً بالرغم من الحرب. مباني وادي سيدنا في تقدم بالرغم من تعثر المقاولين والمواد وزيادة الأسعار وخلافه. وقد عرض الأمر أمام مجلس الحاكم العام مرة أخرى نسبة لارتفاع الأسعار (بسبب تكاليف الحرب)، ولكن الحاكم العام كان قد سبق أن صرح بعدم تأخير التعليم، ولذلك كل شيء على ما يرام. مباني شمبات قامت أسرع مما منتظر والآن تقبع كمسخ وسط حقول الفاصوليا، مثل تمثال امنحوتب الضخم في الأقصر وسط حقول القطن. لقد زرتها مرتين وأمس استلمت مذكرة من بيكون تقول إن يوم الجمعة القادم سيجتمع عدد من المهنيين لشراب نخب المبنى بالبيرة. المشكلة ستكون في إقناع مصلحة الزراعة في الاستفادة من الزراعيين بصورة جيدة.

لقد كنت أعمل وأكتب يومياً لمدة تسع ساعات الشهر الماضي، وقد اضطررت لمعاودة العمل بعد العشاء لبعض الوقت، الشيء الذي أمقته، وهذا الصباح لأول مرة أبدأ عملي قبل فترة الإفطار بدون ملفات للاطلاع عليها، (السبب في ذلك أنني نسيت الملفات في المكتب ولم أحضرها معي للمنزل).

بالإشارة للورد هيلي، لقد استلمنا مذكرة قصيرة ومواعيده (وهي قصيرة جداً). أرغب في مقابلته لنتباحث في أمر (أ) الحكومة المحلية ومكان المثقفين السودانيين فيها، و(ب) مشروع الجزيرة والذي تمكنت الآن من استيعابه تماماً وأصبحت أفكاري واضحة. يجب علينا أن نفرض ثورتنا الاجتماعية في المشروع وتغيير مفاهيم شركة الأقطان، وإلا فإن مراجعة الإتفاقية لن تجدي. وفي نهاية الأمر لا بد أن نستلم إدارتها نحن بحلول عام ١٩٥٠، وهذا ليس بالأمر العصي. كنت أعتقد أن الأمر سيكون مستحيلاً ولكني لا أعتقد ذلك الآن. قد تكون هناك صعوبة وقد نضطر للاحتفاظ بأغلب الموظفين البريطانيين لفترة.

شهرا سبتمبر وأكتوبر كانا صعبين لأننا ما كنا نعلم إذا كانت إيطاليا ستدخل الحرب، وقد إضطررنا أن نتخذ عدداً من التحوطات الاحترازية، لم تمضِ أيام على تقلدي منصب السكرتير الإداري عندما أعلنت الحرب، ومهما كانت الحرب كريهة فقد أعطتني بعض الحافز المطلوب. وبعد بعض الاضطراب الأولي، استعدت الثقة بنفسي والآن تجاوزت ترددي السابق والذي صرحت لك به بدون خجل.

الشيء الوحيد الذي يقلقني بالنسبة للتعليم بعض الشيء، هو عدم وجود مجلس أو لجنة تشرف وتوحِّد المدارس العليا فوق الثانوية التي قامت الآن وتباشر أعمالها بالكامل. روزفير، مدير التعليم الجديد متفهم جداً لهذا الأمر، ولكن مشغولياته الآنية حالت دون تقديمه لمقترحات محددة. الأمر مستعجل حيث الخوف أن تتحول تلك المدارس إلى ورش مصلحية مغلقة. ولكني وروزفير على اتصال جيد ونتبادل الآراء.

لماذا وافقت على كوته عقود قصيرة للتربويين؟ للتجديد ومنع الجمود؟ أعتقد قد تكون هناك فوائد من ذلك.

ولو أننا لن نفرط في أي تربوي للحرب، ولكن سنظل محتاجين للزيادة. إن نظام مفتش تعليم المديريات واحتياجات المدارس فوق الثانوية تحتاج لطلب المزيد من كادر كلية غردون.

إذا لم أحتط فقد أغتصب مهام السكرتير الأول. فإن الحرب قد زادت أعباء هذا المكتب بشكل يجعلني مثل نابليون (ذوي سلطة مطلقة - المترجم). لقد تخلصت تماماً من التردد.

عطبرة كانت ملفتة للنظر، لقد طفتها كلها خلال يومين صباح مساء. بوجه العموم هي جيدة ولكن لا بد من أن تنفتح من انغلاقها.

إلى مارجري برهام ١٩ فبراير ١٩٤٠

آسف لعدم كتابتي سابقاً ولكن لم أجد الوقت والآن نحن في خضم زيارة من رئيس وزراء مصر بالإضافة لوزير الحربية ووزير الأشغال، وهذه أول مرة يزور فيها رئيس وزراء مصري السودان. هو علي ماهر باشا، وقد أجريت مقابلة معه هذا الصباح. كان هناك الكثير من الغث في الصحف القاهرية عن مطالب مصر في السودان، ولكني أعتقد وأتمنى أن تنتهي - كل ذلك كان بسبب زيارة الحاكم العام إلى مصر في نهاية نوفمبر الماضي. مرفق لك وثيقتان، أنا ألم أنس شهيتك للورق، لم يكن هناك أي شيء ذي أهمية مؤخراً. اللائحة الخاصة بالمدارس فوق الثانوية توضح ما يمكن أن يكون نواة لجامعة هنا في المستقبل. في الوقت الحاضر ليس هناك أي وجود جغرافي أو ذهني، ولكن لانغ يأمل في أن يبدأ بتكوين اتحاد لكل طلبة المدارس فوق الثانوية، لعقد الندوات وخلافه. ثم هناك مشروع لإلقاء محاضرات مشتركة ليحضرها الجميع - قورمان ألقى محاضرة في القانون (تاريخ وتطور القانون في إنجلترا والسودان) قبل أيام. كانت محاضرة جيدة ولكن فوق مستواهم. أخبرهم (طلبة القانون) بأن لا يتوقعوا ان يكون لهم دور في المحاكم الأهلية وخلافه، إلا بعد تأهيلهم في معرفة عادات السودان وخلفيته الاجتماعية. وسيكون دوري الأسبوع القادم لأقدم لهم محاضرتين عن الحكم المحلي والإدارة الأهلية. ليست سهلة ولكن من المستحسن لي أن ألخصها. كلية غردون ومدرسة الآداب (والتي سندخل فيها المتدربين لوظيفة مساعد المآمير في المستقبل) الآن يعطون كورسات في المدنيات والتي تشمل الإدارة العامة ومكتبنا يساعد المحاضرين في ذلك. محاضر الآداب هو لانغ والاستاذ المشرف في كلية غردون المسؤول عن المدنيات هو مكي شبيكة، والذي أبدى اهتماماً بالإدارة الأهلية والحكم المحلي وجاري القراءة بحماس. هو بالطبع ليس خبيراً فيها، ولكنه زار عدداً من وحدات الإدارة الأهلية الكبرى وهو شيء جيد أن نجد أحد المتعلمين السودانيين يحاضر في هذا الموضوع. آخرون، أغلبهم بريطانيين، أيضاً يقدمون محاضرات المدينيات والإدارة.

ليس لدي معلومات كثيرة من الأقاليم. لم تكن هناك أي تطورات جديدة في الإدارة الأهلية، وغير محتمل أن يكون أثناء هذه الحرب. موقف الإدارة الأهلية في الميزانيات غير مطمئن - من حيث المبدأ، وليس من حيث احتياطات المبلغ، نصف المبالغ (١٣,٠٠٠ جنيه) في بنك التوفير طرف مصلحة البريد السودانية بفوائد، والنصف الآخر حوالى (١٦,٠٠٠ جنيه) على حسب علمي ضمن إحتياطات الحكومة المركزية، وإما بدون فوائد أو بفوائد للحكومة المركزية.

وقد استنكرت ذلك في مجلس الحاكم العام الأسبوع الماضي، حيث كان المراجع العام دون قصد منه يؤيدني حيث ذكر في تقريره السنوي هذه المفارقة. السكرتير المالي في هذا البلد دائماً يفضل أن يخلط الاحتياطات ويقاوم محاولة تحديد أغراض كل منها. على أي حال أثرت زوبعة وأعتقد أنني سأتمكن من أن تزيد مصلحة البريد المبلغ المستثمر من ٥٠٠ جنيه إلى ٥٠٠٠ جنيه (للمؤسسات وليس للأفراد) حتى تتمكن الإدارة الأهلية من الإستثمار فيها. كان قورمان (السكرتير القضائي) مسانداً لي وقد نبه السكرتير المالي أنه قيم على المال العام.

هيلي سيصلنا في آخر مارس، ولكن سيقضي معنا فقط يومين - ليست كافية حيث الحاكم العام سيحتاج أن يقضي معه يوماً كاملاً على الأقل. أنا أرغب في مناقشته بالنسبة للجزيرة والحكم المحلي.

❐❐❐

إلى مارجري برهام ٢٠ فبراير ١٩٤٠

الميزانية المرفقة قد تهمك. لم نخفض أي شيء من ميزانية العام الماضي.

المبلغ المخصص لمكافحة الجراد كبير ولكن البحوث أثبتت نتائج موجبة، كما وأنه تأمين مربح ضد المجاعة.

في ما يختص «بالبحوث الإنسانية» فقد كنا دائماً نستخدم خبراء إضافة لذلك، وأنا

أرغب، إذا ما أقنعت السكرتير المالي، أن نمد خدمة دكتور نادل في بحوثه عن جبال النوبة - والتي تعطي نتائج عملية - إلى فترة من الزمن هناك وفي جهات أخرى (مثلاً وسط الوثنيين في ولاية الفونج القديمة).

مجلة السودان في رسائل ومدونات تحتفظ بمستوى رفيع.

آركل يركز أساساً في الوقت الحاضر على الآثار حيث المتاحف والنُصب والمباني في حالة يرثى لها. وسيلتفت إلى علم الأجناس، وقد أسسنا مجلس بحوث إنسانية تحت رئاسة السكرتير الإداري.

جمعية التبشير الكنسية حسنت من مستوى تعليمهم كثيراً، والآن يقدمون كورسات في اللغة العربية للإرساليات في الشمال (بالإضافة لجبال النوبة) تحت إشراف إستاذ متميز، ترمنغهام ولدينا الآن بعض الخبراء في لغات الوثنيين.



إلى ميرغني حمزة — الخرطوم ٢٠ فبراير ١٩٤٠

مهندس مركز - مصلحة الأشغال العامة

أنا سعيد جداً أنك ستتمكن من مشاركتنا في لعبة التنس غداً. إنها مجرد حفلة اجتماعية، ولكن إذا وجدنا الوقت بين الأشواط، سأفيدك بأي شيء ترقب معرفته عن مذكرة المؤتمر لعلي ماهر باشا.

الحاكم العام سيتحدث معي عنها اليوم، ولا أدري ماذا ستكون وجهة نظره. أنا مقدر جداً لرغبة المؤتمر للحصول على مساعدات مالية من الخارج، ولكني أعتقد أن الأسلوب الذي اتبع كان خطأ، وأنا آسف أنني لم أجد الوقت لمقابلة رئيس المؤتمر في الوقت المناسب حتى يتمكن من تنوير اللجنة في الكيفية التي يجب أن تسير عليها. وقد استلمت للتو نسخة من المذكرة، ولن أتمكن من أن أعلق عليها بعد.

أعتقد أن عدم خبرة اللجنة الستينية قد أثرت على حكمة لجنة الخمسة عشر،

وبانخفاض عضوية المؤتمر فيمكن الآن لأي شاب أن يحصل على عشرة أصوات ويدخل لجنة الستين، ولذلك تصبح اللجنة غير عملية ومحدودة الخبرة ولذلك لا تحظى بثقة الحكومة أو الشعب. أنا لا أدري كيف نعالج هذا الأمر. كصديق للمؤتمر أنا أشعر بالحزن لأنني في الوقت نفسه كنت أحاول الحصول لطريقة أفضل للتفاوض عندما حدثت هذه النكسة غير الموفقة. كما كنت أيضاً جاري دراسة بعض المذكرات عن أمور تهم المؤتمر مثل التعليم وفصل الإدارة الأهلية والمكتبة، ولكني لا أدري الآن مدى جدوى هذه الدراسة عندما يتجاهل المؤتمر الحكومة ويلجأ للعالم الخارجي بدون أي أفكار أو تفاوض.

على أي حال هذا هو شعوري الخاص، وطبعاً سأقابل رئيس المؤتمر في ما بعد لمعرفة رأي الحاكم العام.

في غضون ذلك أملي أن نستمتع بلعبة التنس غداً. إن دعوتي لك لا علاقة لها بمشكلة المؤتمر هذه، ولكنني رغبت في أن أرد الجميل بالنسبة لكرمك.

❒❒❒

إلى الرائد. و. ب. كندي - شو (في فلسطين) الخرطوم، ٢٣ فبراير ١٩٤٠

لقد كنت في غاية المشغولية، أكتب لمدة تسع ساعات متواصلة يومياً وأنا أشعر بالإرهاق الشديد. عدد كبير من المشاكل أغلبها أخطاء بشرية تفاقمت: تهديد باستقالة، وزيارة في غير وقتها وملهية - لرئيس وزراء مصر (علي ماهر باشا) ووزيري الحربية والأشغال العامة بالإضافة للوكلاء والصحافيين، ووصول ٦ طائرات حربية إلى الخرطوم وملكال، ومدني، وبورتسودان وعطبرة. وقد تغديت وتعشيت وشربت الشاي معهم تسعة مرات. لا بد أنهم كرهوا وجهي الآن. الصحافة القاهرية تقول إنهم حضروا ليطالبوا بسداد مزيد من الديون، وبتعيين نائب مصري للحاكم العام، ومدراء مصريين للمديريات، وإلحاق قوة دفاع السودان بالجيش المصري تحت إمرة وزارة الحربية المصرية، وإخضاع كل مساجدنا لسلطة الأزهر وخلافه وخلافه. ولكن

ولا واحدة من هذه المطالب أفصحوا عنها إلى الآن، ولم تحصل أي مشكلة بعد. في رأي السودانيين «السودان للسودانيين وليذهب البريطانيون والمصريون للجحيم». وزع رئيس الوزراء ٥٠٠٠ جنيه على المدارس والمنتديات والفقراء وخلافهم، وأدى الصلاة في مسجد أم درمان.

طلبت من ماكمايكل أن يسمح بدخول الأبقار والضان السودانية إلى فلسطين وقد وافق، حيث محتمل أن تموت رومانيا، ولذلك قريباً ستستمتع بأكل لحم الضان من النهود مرة أخرى، أنا متأكد أنه لن يكون أقوى من الضان الروماني.

نحن جاريين إلحاق عدد من الموظفين البريطانيين بكورسات التدريب العسكري وسنكون مرّنّا حوالى ٨٢ منهم بنهاية ابريل، وقد سمحنا فقط بتسريح عشرة ليلتحقوا بسلاح الطيران الملكي.

وظيفة السكرتير الإداري هذه ممتعة ومتعبة في نفس الوقت. المشا كل هي:

(أ) ممارسة حياة كنسنغتون في الخرطوم (يقصد أن الحياة في كنسنغتون وهو حي راقٍ في لندن لا تناسب الخرطوم - المترجم) بدلاً من ممارسة تقونت في كردفان (يقصد أن الحياة في تقونت وهي قرية كندي - شو الصغيرة في مقاطعة دورست في جنوب غرب انجلترا والشبيهة بكردفان - المترجم). و(ب) الوظيفة الآن عبارة عن ثلثي الوقت في العلاقات الخارجية والسياسة (مصر، أثيوبيا، وزارة الخارجية البريطانية، ومؤتمر الخريجين بأم درمان) والثلث الباقي فقط للإدارة المحصنة.

يأتي الرفاق لزيارتي ولكني دائماً خارج المنزل ويتركون كروتهم والتي يحضرها السايس لي لتجد طريقها إلى سلة المهملات. على الأقل هناك فوائد من الحرب.

لقد كان الطقس حاراً، ١٠٣ درجات أقصاها هذا الأسبوع، ولكنها أفضل اليوم. الصيف وأربعة شهور من العرق المتصبب على الأبواب.

إلى مديري المديريات الخرطوم ٧ مارس ١٩٤٠

شارف منتصف مارس (يقصد منتصف مارس الذي تنبأ به العرّاف الروماني كاليوم الذي سيقتل فيه يوليوس قيصر كما جاء في رواية شكسبير - المترجم) وليس هناك أي إشارة أن حملة الربيع في الغرب أو الشرق من أي من الطرفين أوشكت، ولو أن التكهنات بتأزم الأمور في دول البلقان في زيادة. إيطاليا والتي جهزت نفسها عسكرياً، جارية الآن تجهيز نفسها نفسياً أيضاً، ولكن موسليني لن يكشف خياره كفاشستي أو ضد الفاشية إلى أن يكسب الحلفاء معركة أو يخسروا معركة تؤثر على موقفه المتأرجح. وحتى إذا إنحاز لجانبنا، واحتمال ذلك هو ٣ الى ١ لا أكثر في رأيي، سيطالب بالطبع بتنازلات من جانبنا. ولكن لا أرى أن في إمكان الفرنسيين إعطاء تنازلات مهمة دون أن نثير استياء المسلمين.

وكل ما يمكننا عمله هنا هو أن نستمر على استعداد مهما كانت المعاناة، لتحسين وتمتين دفاعاتنا ومخابراتنا ومجهوداتنا الحربية المدنية. الحلفاء جارين تعبئة الشرق الأدنى بالجيوش والمعدات، وهذا يعزز من موقفنا بطريق غير مباشر، وقد يطلب منا ان نستضيف بعضهم هنا، سيصلنا الجنرال ويفيل في زيارة الأسبوع القادم.

أهم خبر في فبراير بالنسبة لنا في الخرطوم كانت زيارة الوزراء المصريين من ١٨ فبراير إلى ١ مارس. وبعد التغيير في المواعيد المتوقعة بالنسبة للبرامج، والزيارات والتفتيش والخطب وتوزيع الهدايا، مرّت الرحلة بسلام بدون أي مشاكل. الوزراء كانوا ضيوف الحاكم العام في القصر، كانوا في غاية الكياسة مع الموظفين البريطانيين ومع السودانيين في مقابلاتهم العامة. وقد زاروا المحاكم والمدارس والمستشفيات وقابلوا السكرتاريين الثلاثة، والسيدين وقاضي القضاة والمفتي، كما حضروا حفلة في القصر وفي النادي المصري والنادي البريطاني والغرفة التجارية ومفتش الري المصري، بالإضافة لحفل أقامه نادي الخريجين بأم درمان حضره ألف مدعو حيث ألقى رئيس المؤتمر خطاباً ودوداً ولكنه وطني التوجه بوضوح. وقد أرهقوا وأحياناً أصابهم الملل. أقام علي ماهر حفل غداء لحوالى ٢٥٠ موظفاً بريطانياً ومصرياً وسودانياً في الفندق

الكبير. وقد زار صالح حرب الوحدات السودانية بمرافقة القائد العام - كان علي ماهر لماحاً وسريع البديهة، وكان يلمع في ملكه وليس في شخصه، واستعمل كروته الاسلامية بحرافة. كان عبد القوي كعادته مهذباً، بينما كان صالح حرب، بعلاقاته وميوله السودانية، مؤانساً ولطيفاً.

قدم السكرتير القضائي محاضرة افتتاحية لطلبة مدرسة القانون وطلبة المدارس العليا الأخرى، وسأقوم أنا بتقديم محاضرتين عن الحكم المحلي والادارة الأهلية والتي سأحاول فيهما أن أبعد من أذهان المثقفين أن سياسة الحكومة تفضل حكماً أبوياً رجعياً مصمماً لإبعاد الأفندية من تولي المسؤولية الإدارية. آمل أن تعيد تلك المحاضرات أساتذة الثانويات والمدارس العليا الذين يدرسون كورسات المدنيات.

خلصت المحاكم في نظر قضية رق مثيرة. في عام ١٩٣٦ نما إلى علم المفوضية البريطانية في جدة عن بيع طفلة من الفاشر بواسطة والديها. طلب من السلطات السعودية أن تحقق في الأمر، لكنهم لم يفعلوا شيئاً إلى عام ١٩٣٨ عندما علموا بأن البائعين ليسوا هم والديّ الطفلة، ودافعوا عن البيع بحجة أن الطفلة كانت من الرقيق. أخبرت البعثة البريطانية المسؤولين بأن السودان ليس به رق وطالبت بتسليم الطفلة. ماطل السعوديون وطالبوا بالمبلغ المدفوع ٣٥ جنيهاً ذهباً. وأخيراً تم العثور عليها في مكة وأحضرها نائب القنصل الهندي الى جدة، ومن ثم للسودان. وقد اتضح أخيراً أن مالكها هو حافظ مفاتيح الكعبة. وقد تم تقصي البائعين الى دارفور وتم اعتقالهم وإدانتهم لسبع سنوات سجناً. هذه القضية ستسعد جنيفا.

لا أدري إذا لاحظتم في صحيفة التايمز بتاريخ ٩ فبراير حكماً طريفاً صدر من لورد سكوت قاضي محكمة الاستئناف في قضية ماكويكر ضد قودارد (صاحب حديقة حيوان شزينقتون) بخصوص عضة جمل. أيدت محكمة الاستئناف حكم الهيئة القضائية من كنغستون بأن الجمل حيوان أليف في إنجلترا. وقد أثارت هذه القضية عدداً من المقالات إحداها من سير رونالد ستورز وآخرين يلفتون النظر لحكاية إعادة تشكيل أعضاء الجمل التي قام بها الرسول (صلعم) ليمكن المسافرين للجلوس في

ظله. في الواقع أعتقد بأن الجمال المتوحشة توجد فقط في إسبانيا منذ موت الجمل المتوحش الذي كان يعيش لمدة طويلة في جزيرة مكوار في البحر الأحمر.

❐❐❐

إلى مديري المديريات الخرطوم ٦ مايو ١٩٤٠

لقد كانت هناك بعض الإنذارات والانحرافات منذ فترة عندما بدا موسليني كأنه يرغب في أن يستغل الحرب الممتدة الى إسكندنافيا ليبدأ حرب أعصاب من جانبه. وقد وصلتنا تحذيرات من القاهرة ولندن أن نأخذ حذرنا وأن نقوي من دفاعاتنا (المدنية والعسكرية)، وقد قمنا بذلك. ولا ندري إن كان موسليني يرى أن الوقت قد حان ليجرب الإبتزاز أم هو ما زال يفكر في غزو كورفو وكريت ويوغسلافيا. ولكن الخسائر الفادحة التي مني بها أسطول ألمانيا في أبريل وسرعة تعزيزات أساطيل الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط لا بد أن جعلته يفكر مرتين قبل الإقدام على حماقة.

إن تحول الدعاية الإيطالية في الصحافة والإذاعة ضد الحلفاء لم تنعكس بعد على اتجاهات السلطات في شرق أفريقيا الإيطالية أو في موظفيهم، ولكن العلاقات الطيبة التي سادت خلال ١٩٣٩ لم تتحسن بسبب غارات القبائل الأثيوبية على منطقة بحيرة رودلف، أو بتصرفات مندوبهم في قمبيلا الذي كان يتحصل الضرائب من قبيلة النوير السودانية رغماً عن اتفاقية العام الماضي. وقد سبب ذلك مشاكل جمة لروميلي (مفتش مركز شرق النوير) وقد قدمنا شكوى بواسطة القنصل العام. لتاريخه لم يهاجم النوير الطليانة، ولكنهم تشاجروا في ما بينهم وقد اغتيل زعيم القسم الذي يعيش في منطقة شرق أفريقيا الإيطالية عندما كان في خدمة الحكومة.

الملف الخاص بوضع السودان الشرعي في هذا المكتب يحتوي على نتف ممتعة (مثلا احتجاج من جمعية في سنت أندروس بأسكتلندا عن استعمال التسمية «السودان الأنجلو - مصري»، وكذلك طلب من سيدة في سسكس كانت ترسم زهوراً قومية لعلم السودان) الآن أضيف إليه خطاب من أحد الأمريكان من ماشوستس يطلب

نسخة من «نشيد السلام الوطني السوداني بلغته الموروثة». أنا أعلم عن محاولتين لعمل نشيد وطني أحدهما يقول: دنقولنقولاوي إلى الأبد».

❐❐❐

إلى مارجري برهام الخرطوم ١٨ مايو ١٩٤٠

مع زحمة الأحداث لا أذكر آخر مرة كتبت لك. لعنة هذه الحرب أنها تقطع الاتصالات. موسليني بسلوكه الغريب قد وصل لحافة الهاوية التي قد يقع فيها أو أن يدفعه إليها هتلر أو حتى أتباعه، ولو أني أتمنى أن يستمع لكلام البابا والملك وشيانو.

هذا تسبب لنا في ساعات مضنية في لجان الدفاع - ضد التخريب، احتياطات ضد الغارات الجوية، ضد المظليين، ضد الدعاية، زيادة في اللوائح، زيادة في تحركات الرجال وتخفيض العطل، والكثير من مشاكل الحدود. ولو أننا إستثمرنا كل ذلك الوقت والجهد والمال والتفكير في الخدمات التي تبني الأوطان مثل الصحة والتعليم والعلاقات الاجتماعية لكونا سوداناً يستحقه الأبطال.

افتتح المركز الثقافي قبل ثلاثة أسابيع وألقى روزرفير خطبة جميلة إلى أعضاء المجلس الخمسة وعشرين، وسوف ألقي كلمة افتتاحية لكل الأعضاء قريباً عن الثقافة - محتمل تكون أشبه بالتأبين.

كنت جاري إعداد مذكرة عن صندوق التنمية للمستعمرات عندما بدأت المشكلة الطليانية، ووجدت أن حكومة السودان قد أثارت الموضوع في عام ١٩٣٩، ولكنها لم تقدم بطريقة صحيحة لا منها ولا من وزارة الخارجية البريطانية، وقد شطبونا نظراً لنقطة قانونية، ووعدونا بإعادة النظر عندما يتم تعديل القانون، ولكن لم يسجل أي أحد «من سيعمل ماذا عندما يتم التعديل» ولذلك لم يعمل أي إنسان أي شيء.

فكرتك عن مجلس استشاري يشترك فيه الزعماء، والقديسون، والمثقفون والتجار

هو بالفعل الهدف الذي تتجه إليه بتمهل، وقد فكرنا وتناقشنا في أمر اتحاد للسودانيين مع الحكومة المركزية في المستقبل البعيد، ولكن لا بد لنا من بناء أجهزة الأقاليم الأهلية بأسرع فرصة ممكنة حتى بمضاعفة السرعة ليرسلوا مناديب لمجلس الشيوخ المختلط في ما بعد.



مسطورات
MUSTORAT

الحرب مع ايطاليا
١٩٤٠م - في حالة دفاع

في بداية مايو ١٩٤٠ أصبح احتمال دخول إيطاليا للحرب واضحاً. وقد عبر دوق أوستا، نائب الملك، عن طريق الخرطوم جواً من روما وكان واضحاً من محياه العابس أن الأمور لا تسير كما يرغب. لم يكن في هذا الوقت يتصور الناس أن الحكومة الفاشستية على مثل تلك الدرجة من عدم الكفاية وعدم المبادرة، بينما كان السودان والشرق الأدنى في حالة يرثى لها. كان نيوبولد يظهر تفاؤلاً في مراسلاته الخاصة، ولكن هواجسه تظهر في المذكرة المرفقة والتي وجدت بعد وفاته في ظرف مقفول ومكتوب عليه «خاص وشخصي» من بين أوراقه.



الخرطوم ١٩ مايو ١٩٤٠

أمس، يوم ١٨ مايو ١٩٤٠ كان أكثر يوم مقلق في حياتي، يبدو في أخبار الـB.B.C عن الحرب أن فرنسا على وشك الهزيمة، وهزيمة فرنسا واحتلالها سيعني هزيمة انجلترا إن لم يكن احتلالها، أو على الأقل احتمال غارات بالقنابل لا هوادة فيها واتفاقية مذلة وسيطرة ألمانية على أوروبا.

هنا في الخرطوم استلمنا تحذيرات من وزارتي الخارجية والحربية أن الحرب مع إيطاليا اصبحت وشيكة. الطليان في شرق أفريقيا الطلياني لديهم ٢٥٠،٠٠٠ جندي وأكثر من

٢٠٠ طائرة حربية. قواتنا تقل عن ١٠,٠٠٠ جندي وطائراتنا الحربية عُشر طائراتهم. ليس لدينا مدافع مضادة للطائرات أو أية مدافع في الواقع. كسلا قد تقع في أيديهم متى يشاؤون ومحتمل بور سودان وربما الخرطوم. ويذهب هباء مجهودنا الصبور خلال الاربعين عاماً الماضي، ونتخلى عن السودانيين الذين يولونا ثقتهم إلى غازٍ شمولي.

أمس صباحاً هاجموني... لعدم وجود سياسة دفاعية لحكومة السودان، وعدم التنسيق بين الجيش والمدنيين، وعدم وضوح الرؤيا في زمن الخطورة. لقد وافقتهم على أغلب هجومهم، ولكني لست الحاكم العام أو القائد العام. ولكن الأمر أقلقني حيث في الحقيقة ليس لنا مجلس حرب، وقد وافقت أن أرفع الأمر للحاكم العام...

لقد سبق أن طلب مني الحاكم العام أن أحضر له لنتحدث أثناء الغداء. قابلته عند الساعة الواحدة إلا ثلثاً، وفاتحته في الموضوع بهدوء... وقد دخل علينا القائد حينئذ، وقد أشركناه في النقاش... الحاكم العام والقائد اتفقا على عدم الحاجة لأي تنسيق إضافي، أو أي حاجة (لتدابير لترحيل الحكومة المركزية من الخرطوم... ثم جلسنا لتناول الغداء بدون شهية.

كانت الحرارة ١١٢ درجة في الظل وحوالى الساعة الحادية عشرة ونصف مساء ثارت الهبائب، وكنت أتقلب في سريري في غرفة حارة والعرق يتصبب من جسمي وأنا قلق بالنسبة لوالدتي (التي كانت ضعيفة ومريضة وقلقة وتشكو من الأزمة وعدم النوم)، والانتصارات النازية، وغزو السودان وخلافه، إلى أن أسلمت نفسي لنوم غير مريح في حوالى الساعة الثالثة صباحاً.

هذا الصباح، السماء زرقاء، والطيور تشقشق والجو أبرد نوعاً ما. قمت بقراءة «حياة بولن» (مساعد مطران مصر والسودان والذي قتل في حادثة طائرة عام ١٩٣٧) أثناء تناولي لإفطاري، وكتاب ادوارد شرنق (ناظر مدرسة أبنقهام التي درس فيها نيوبولد) قبل الإفطار. يا ليت لو كان أحدهما هنا الآن. إذا تمكنا من صد الألمان والطليان فحسناً: وإذا فشلنا فالشيء ا لوحيد الذي يمكن عمله هو أن نحاول لعقد شروط طيبة للسودانيين...

لم أدرك إلى الأمس ما هي حقيقة القلق... بلات (القائد العام) قائد شجاع ويعمل مثل الأبطال، ولكنه سريع الغضب ويصعب التحدث معه. المدنيين من الأوروبيون غير منظمين وبدون قيادة ويتأثرون بأي إشاعة يسمعونها. السودانيون في جهلهم بالخطر ينعمون، وهم متأكدون من قوة الحلفاء ويعتبرون الطليان غير جديرين بالاحترام. قد يصدمون بواقع مرير.كل ما أستطيع قوله «اللهم إحفظنا» أو «نسأل الله السلامة».

لم يسمح نيوبولد لأي من تلك الهواجس أن تظهُر إلى السطح كما توضح كتابة أحد أصدقائه، بعد موته، عن مقابلته لنيوبولد «على ضفاف النيل في الخرطوم خلال الاسبوع الذي دخلت فيه إيطاليا الحرب - عندما كان محتملاً أن نفقد كل ما ضحينا من أجله. كان في الظاهر في روح معنوية عالية جداً. أعتقد أنه كان يحاول أن يرفع من معنوياتنا جميعاً. الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أن أي شيء فعلناه لن يضيع أبداً. قال لي: في نفس ذلك الوقت القصير (لقد ترجل من سيارته لمصافحتي حيث أنني وصلت للخرطوم لقضاء أسبوع أو اثنين) قال لي: أنا أعتقد بالفعل أن كل منا يجب عليه أن يقضي نصف ساعة كل صباحٍ في الصلاة ونصف ساعة في التأمل». في ذلك الأسبوع كانت الصلوات تقام صباحاً بتواتر في الكاتدرائية، وكان هو والجنرال بلات والحاكم العام يداومون عليها. كل ذلك بدا لي كأن وراء «الأشياء غير القابلة للوزن» التي يتحدث عنها كتاب «حرب أثيوبيا» الذي أخرجته وزارة الإعلام».

كما وانه لم تظهر علامات قنوط في رسائله إلى والدته.

❐❐❐

إلى والدته — الخرطوم ٢٧ مايو ١٩٤٠

تبدو الأخبار أفضل اليوم، ولكني أتمنى أن نقوم بهجوم مضاد ونصد فيه الألمان من بولونيا ومن فرنسا. لا بد أن الألمان تكبدوا خسائر فادحة، ولكن أظن أن هتلر لن يبالي بذلك. كان من حسن حظنا أن ايطاليا أخرت دخولها للحرب لمدة شهر، وذلك

ساعدنا في عمل الكثير من الإحتياطات. وقد كنت في غاية المشغولية خلال الثلاثة أسابيع الماضية في شؤون الدفاع والإمدادات. الطليانة في أرتريا والحبشة يرهبون الحرب بدون شك. هم عرضة للذبح من الثوار ومن جنودهم أيضاً. وهم مفلسون ومعزولون عن وطنهم ومحاطون بالمستعمرات والجيوش البريطانية والفرنسية...

أنا معجب بالحكومة الجديدة. تشرشل يتمتع بثقة الجميع، وتشمبرلين كان ميالاً لاسترضاء العدو، كما أنه قد حان الوقت أن نكون حكومة وحدة وطنية.

كانت خطبة الملك جيدة في نظري. لقد أقمنا صلاة في الكاتدرائية وقد حضرها عدد غفير. وقد قرأ الخطبة الحاكم العام في صورة «الكنسي»، الفصل، الثاني، وقد كانت مناسبة للظروف التي تمر بنا، انا لا أدري لماذا صورة الكنسي ليست جزءاً من الإنجيل. انها من أفضل الكتب.

لقد كوّنا سلاحاً مضاداً للمظليين هنا وفي مدن أخرى، وقد أصدرت إعلاناً لكل الأجانب أحذرهم بأن من يقوم بتخريب سيتعرض لأقصى العقوبات وقد سلّم باليد لكل الطليان. عددهم قليل وهم في فزع شديد، لأنهم يعلمون متى ما تعلن إيطاليا الحرب فسوف يعتقلون ويحبسون. صدرت التعليمات للأمريكان لمغادرة مصر والسودان، ولكن عددهم قليل هنا وكلهم مبشرون ولن يغادروا. أما اليونانيون والسوريون فأعدادهم كبيرة وكلهم مع الحلفاء.

الأسبوع الماضي، بعد أن أكملنا استعدادنا التحوطي، قضيت وقتاً مريحاً بدون إرهاق من العمل. وقد كنت أنام الساعة ونصف كل عصرية بالرغم من الحرارة ومن الساعة العاشرة مساءً إلى الساعة السادسة صباحاً. عادة أصحو من النوم في السادسة صباحاً أو السادسة إلا ربعاً وأشتغل أو أكتب الخطابات أو أقرأ تقارير المخابرات لمدة ساعة قبل تناول الإفطار. تقارير المخابرات مسلية وتغطي كل البلدان من نارفيك إلى بغداد.

لا تهتمي بتشاؤم (C). إن الزمن في مصلحتنا، وسوف نكسب الحرب لا محالة.

لدينا احتياط كبير من الرجال والمال والعتاد. لا يمكن كسب الحروب فقط بالمكنات. كان قصف الحلفاء بالقنابل رائعاً وقد ذكر أسراء الحرب الألمان أن القصف في «سيدان» كان فظيعاً.

يبدو أن كل ساحات المعارك السابقة قد أعيد ستخدامها، ولكني أرجو أن لا يشمل ذلك «لويس» (مدينة صغيرة في مقاطعة سسكس - المترجم). كل شيء على ما يرام هنا والجميع متفائلون. كل ما نحتاجه هو أن نصمد لمدة شهر ثم نصدهم على أعقابهم.

❐❐❐

إلى مديري المديريات الخرطوم ٨ يونيو ١٩٤٠

خلال طوال الشهر الماضي كان موسليني ينذر ويتوعد، ولكنه لم يعلن الحرب إلى حين كتابة هذا الخطاب. ولكنه قد يفعل ذلك في أي وقت، وربما قبل استلامكم لهذا الخطاب. معلوماتنا الرسمية هي ان الحرب مع إيطاليا ستكون وشيكة ومحتومة. لقد وصلتنا انذارات يوم ١ مايو، و١٥ مايو، و١٦ مايو، و٣٠ مايو، وقد أبرقناكم يوم ١ و١٦ و٣٠ مايو. ليس لدينا معلومات عن أين أو كيف ستهاجمنا إيطاليا.

لجنة قوة دفاع السودان اجتمعت يوم ٩ مايو و١٦ مايو و٢٥ مايو و٦ يونيو لأحكام احتياطاتنا المختلفة وخصوصاً للتصدي للتكتيكات الجديدة لهجوم المظليين والقوات المحمولة جواً والتي كانت ناجحة في النرويج وهولندا.

لا بد أنكم استلمتم منشوراً يوضح لكم كيف تخربون المدرجات التي قد تستعمل لنزول الطائرات ومحدد لكم أي منها.

هنا في الخرطوم نحن جارين تجنيد حوالى ٢٠٠ رجل شرطة إضافياً لحراسة القرى التي قد يسهل فيها الإنزال. سيكونوا مسلحين وسيتمكنون من التصدي لأي إنزال محدود، والتبليغ عن أي إنزال كبير.

هناك مقترحات لاحتياطات إضافية أيضاً جاري إعدادها لمناطق أخرى مثل جوبا وملكال وهما مهمتان لأنهما يقعان على خط الاتصال الرئيسي مع شرق أفريقيا.

ولقد وقَّع الحاكم العام مرسوماً يضم فيه الشرطة لقوة دفاع السودان حتى يصبغ عليهم قانوناً صفة المحاربين لمجابهة مثل ذلك الغزو. وقد أرسلت لكم برقية ونشرة تشرحان هذا الأمر، ولكن أود أن أوضح لكم أن هذا لن يؤثر بأي حال من الأحوال على سيطرتكم عليهم وعلى خدمتهم في الشؤون المدنية حتى بعد إعلان الحرب، إلا عندما تبدأ عمليات عسكرية فعلاً بواسطة العسكريين ضد أي غزو. وجدنا من المستحيل هنا أن نحدد نسبة الشرطة الذين سيعملون مع الجيش، ولذلك الأمر ترك ليعالج محلياً في كل حالة.

هذا ما كان من أمر الشرطة. مفتشو مراكزكم بالطبع سيرغبون في قيادة قوات شرطتهم في مثل هذه العمليات، ولذلك فقد تم ضم كل مفتشي المراكز إلى قوات دفاع السودان المساعدة لإعطائهم الصبغة العسكرية قانوناً. تفاصيل هذا لا بد سترسل لكم في خلال يوم أو اثنين.

سيكون هناك آخرون، موظفو المصالح وأعضاء البيوتات التجارية والسودانيون الموظفون وغير الموظفين، قد يرغبون في مشاركة الشرطة في المساهمة في الدفاع. يمكن لهم أن ينضووا تحت لواء قوة دفاع السودان المساعدة، ولو أن أعدادهم ستحددها ظروف كل منطقة وفرص التدريب المتاحة، وأهم من هذا وذاك، توافر البنادق التي لا نملك منها احتياطياً كبيراً - لن يكون الباب مفتوحاً للجميع. التعليمات الخاصة بهذا الأمر ستصلكم أيضاً قريباً.

من المحتمل أن يشعر بعض الموظفين أنهم لا يقومون بأعباء تذكر في هذه المحنة. بعضنا يقارن حياتنا الآمنة هنا مع الرجال في فرنسا والنرويج ويشعرون بالإحباط لأن أعمالنا أغلبها بعيدة عن ساحات المعارك. ولولا أن السودان نفسه مهدد لكان هناك عذر لمثل ذلك الشعور. ولكن واقع الحال فاننا على أبواب غزو، وعدد البريطانيين هنا قليل، حوالى ١٠٠٠ من موظفين وغير موظفين. فلا يمكننا التفريط في أي عدد منهم

حيث ليس هناك فرصة في استبدالهم في حالة الإصابات. لقد ساهمنا بالقدر المتاح لنا إلى قوة دفاع السودان وأعرنا آخرين للمجهود الحربي الأرقام لتاريخه توضح:

٤٧ بريطانياً مدنياً التحقوا بقوة دفاع السودان (٢٧ موظفاً و٢٠ من شركة أقطان الجزيرة وخلافهم) ويتوقع زيادتهم بـ٦ أو ٧ آخرين.

٥ موظفين التحقوا بسلاح الطيران المدني.

١ موظف الحق بسلاح الاشارة.

٢١ موظفاً أعيروا لأعمال حربية مختلفة داخل السودان.

٢ موظف أعيرا لأعمال حربية مختلفة خارج السودان.

٧٦ المجموع (بخلاف ثلاثة أطباء ضموا لقوة دفاع السودان. أضف لذلك أن عدداً كبيراً من الموظفين ولو أنهم لم يعاروا لأعمال حربية، الا أنهم في الواقع من مواقعهم يقومون بعمل مقدّر متصل بالاستعدادات الحربية (مثل السكك الحديدية، واللاسلكي، أو الإمدادات، وخلافه).

وبهذه المناسبة، أود أن أختلف مع بعض ما يقال إن السودان بوجه العموم غير محمي أو لا ينوي أن يقوم بمجهود حقيقي للدفاع عن نفسه. السودان طبعاً ليس بالبلد الذي يسهل حمايته، والترتيبات الاستراتيجية للقائد العام طبعاً لا يمكن نشرها ولكن الجنود في البلاد - بريطانيون ومصريون وسودانيون - وقوات الشرطة، عددهم ليس قليلاً. وقد عززنا القوات البريطانية والسودانية، ومنذ اندلاع الحرب أضفنا ألف فرد لقوات الشرطة. ونحن على اتصال مستمر مع القوات البحرية والجوية والعسكرية خارج البلاد.

ربما أعطت بعض فقرات محاضر لجنة دفاع السودان القريبة والتي ذكرت كلمة «إجلاء» أو «احتلال» إيطاليا لبعض الأماكن انطباعاً بأننا سنقدم قرباناً للطليان بدون مقاومة في حالة غزوهم للسودان. هذا بالطبع ليس صحيحاً، وخصوصاً بالنسبة لأي هجوم بالمظليين أو القوات المحمولة جواً. بخلاف القوات النظامية فإن

القوات المساعدة والشرطة سيقاومون أي هجوم يمكن مقاومته. انما حرب القناصة أو الدفاع لأخر رجل في مدينة غير محصنة وضد قوة هائلة والذي قد تسبب مجزرة، هو الذي يجب تفاديه. أما بالنسبة للإجلاء وتخريب المعدات قبل الانسحاب وخلافه، فلا بد للجنة دفاع السودان أن تستعد لكل الاحتمالات، مهما كانت كريهة، ولكن هذا لا يعني انهزامية. في الواقع ليست هناك سياسة عامة لإجلاء منظم. لا يمكننا التمييز بين الاجناس كما وأن صعوبات الترحيل تظل بغير حل. طبعاً لا بأس من بعض الاجلاء للنساء والأطفال من مدينة قابلة للقصف أو الغزو بل قد يشجع، إذا ما نفذ بدون هلع.

بعض الخلاصات التي قدمت عن تفوق الطليان جواً وبحراً في شرق أفريقيا الإيطالية كان مغماً. بلا شك هم قادرون أن يوقعوا بنا ضربات موجعة ويسببون أضراراً بالغة، ولكن تفوقهم هو ظاهري وليس حقيقياً. الطليان في الحبشة محصورون في زريبة كبيرة، في قارة معادية تعج بجيوش الحلفاء ولو أنهم مفرقون في جهات مختلفة. يمكن عزلهم عن إيطاليا وعليهم الخروج إما عن طريق الصومال الفرنسي والبريطاني، أو كينيا، أو السودان، أو عن طريق البحر، وأما داخلياً في مواجهة مع الثوار الذين ينتظرون الإشارة. بعض جنودهم من الأهالي أيضاً مشكوك في ولائهم، كما أن الحالة الاقتصادية سيئة بالبلاد، وهناك نقص في الغذاءات وأغلبهم غير راغبين في الحرب.

إنه من الصعب في طقس حار، وفي أغلب الأحيان بدون انقطاع عن العمل، وبعيداً عن أسرهم، أن يتمالك الناس أعصابهم بدون أمل خادع أو تشاؤم غير مبرر، ونحن قبل هذه الحالة تحت سيف دومقليس المصلت. والصعوبة أكثر على الذين عملهم غير مرتبط وثيقاً بالدفاع - الإداريون في الأعمال الروتينية، والذين يعبدون الطرق، أو يشيدون المباني، والمحاسبون وخلافهم في المناطق النائية. قد تكون هناك نزعة في ان يقولوا (ماذا يهم عملنا هذا والعالم في حرب؟). الواقع ان فرض النظام والقانون، والإيفاء بالالتزامات، وحرية التجارة والحركة هي من أهم عوامل الأمن العام ومن

دواعي استمرارية احترام وولاء السودانيين. اذا ما شعروا بأننا خائفون فسيخافون هم أنفسهم. الابتهاج في وجه المصاعب، أو الأخبار غير السارة أو المرض، والصبر في المعاملة مع المساعدين، والتعاون اللصيق مع الزملاء في المصالح الأخرى أو المديريات الأخرى (مهما كان رأينا فيهم) مطلوب أكثر من أي وقت مضى. إنه من المحتم في زمن الأزمات أن ترتكب أخطاء (انا أعترف باقترافي لعدد من الأخطاء)، كما وأن المفارقات تحصل، وأيضاً يضاعف عمل بعض الناس بينما يقل كثيرا عمل آخرين، كما وأن المعلومات قد لا تتوافر أو تتأخر، والشفرة تتعطل وخلافه وخلافه. في واقع الحال فإن الاستجابة لمتطلبات الأزمة كانت ممتازة، كما وأن الموظفين والموارد في هذا البلد استغلت بأفضل ما يكون لمقابلة الاحتياجات الخارجية والداخلية.

لنرجع مرة أخرى للقوى العاملة، منذ وقت كتبت للسكرتاريات النيجيرية واليوغندية والتنزانية اسألهم عن الأعداد التي وفروها من موظفيهم للمجهود الحربي. نيجيريا لم ترد علي بعد، ولكني فهمت من أحد مفتشي مراكزها الذي زارنا في طريقه من سوكتو إلى عدن، أن عدداً من موظفيهم قد ألحق بقوة دفاع غرب أفريقيا، ولكن عدداً قليلاً للغاية سمح له بالذهاب إلى أوروبا. تنقانيقا رَوَت بأنها استغنت عن خدمة ١٧٤ إدارياً و٤ مدرسين من مجموع ٢٦ مدرساً للعمل في المجهود الحربي وجملتهم يمثلون ٨ في المئة أو ٩ في المئة من الموظفين الاداريين، وقد توقف الآن توفير أعداد أخرى. أما يوغندا فقد وفرت للجيش ٥٠ موظفاً بريطانياً من ٦٠٠ ولكنهم أعادوا استدعاء ٦ منهم. واغلب ما وفر كان من المعلمين وفقط سبعة مفتشي مراكز. ويبدو أن السياسة في أغلب المستعمرات مماثلة لسياستنا.

إذا ما اندلعت الحرب مع إيطاليا قبل حصول هذا لكم فتمنياتي بالنصر المؤزر للأقاليم.

ملحوظة: يوم ١١/ ٦/ ١٩٤٠

كان هذا الخطاب يصدر بالرونيو عندما قرر موسليني هذا المساء أن يعلن الحرب. وعندما يصلكم هذا ستكونون استلمتم أوامر الحاكم العام وأي تعليمات أخرى. في

الأسابيع القادمة قد تضطرون أن تقرروا لأنفسكم ما يجب عمله. لا ندري لتاريخه ماذا تنوي مصر، ولكنها ملزمة بالعمل بمقتضى الاتفاقية. كل الإيطاليين الذكور تم اعتقالهم وحبسهم مساء أمس. وكان لإغراق السفينة الإيطالية (أمبريا) في بورسودان أمس والتي كانت تحمل شحنة كبيرة من القنابل التي تقصف من الطائرات، بعد أن أدخلت الميناء للتفتيش (قبل إعلان الحرب) من وحداتنا البحرية، كانت بداية حسنة لنا.

ليست لدي أي معلومات أكيدة عن موظفينا الذين تم استدعاؤهم من إنجلترا. بعضهم وصل إلى مرسيليا وآخرون وصلوا إلى مالطة على حسب ما أعتقد، ولكني أخشى أنهم سيقابلون بعض المشاكل في الرجوع إلى هنا.

❒❒❒

إلى والدته الخرطوم ١٧ يونيو ١٩٤٠

منذ خطابك الأخير قرر موسليني أن يتخذ قراره. لقد انقضى أسبوع واحد منذ إعلان إيطاليا للحرب ولكنه يبدو كشهر. لا تقلقي بسببي هنا، نحن جميعاً بخير، ولا تصدقي كلمة واحدة مما تبثه الإذاعات الألمانية والإيطالية. قبل يوم أو اثنين ذكروا أن بورسودان قد دمرت، وتلك فرية مطلقة. لقد قاموا بقصف حوالى ستة مواقع حدودية بقنابل صغيرة في ست غارات. كل الإصابات كانت حوالى أربعة عشر جريحاً من المدنيين وجندي واحد قتيل في كل الغارات، كانت كلها غارات صغيرة ومحدودة - كسلا كانت الأولى.

❒❒❒

إلى والدته الخرطوم ٢٨ يونيو ١٩٤٠

هذه الرسالة ستأخذ بعض الوقت لتصلك. ستُحمل جواً إلى رأس الرجاء الصالح ثم تُبحر إلى لندن، وقد لا تصلك قبل أول أغسطس. وسأواصل إرسال خطاباتي برقياً بالبريد الليلي إلى أن يفتح طريق جوي أقرب.

تأخير وصول الرسائل مزعج ولكن نتوقع أن تتحسن الأحوال قريباً حيث نتوقع فتح خط لاغوس الجوي. كذلك أتوقع خطاباً منك قريباً. لم أتسلم أي صحف أو خلافه (ما من أحد منا استلم أي شيء) منذ استلامي لصحيفة التايمز بتاريخ ١٧ مايو. أتوقع أن أستلم مجموعة كبيرة قريباً. ولكننا نستمع إلى أخبار الـB.B.C. حوالى خمس مرات يومياً، كما تصلنا الصحف المصرية ونشرات رويترز الكاملة وكمية ضخمة من تقارير المخابرات، ولذلك أنا ملم جداً بأخبار الحرب.

انهيار فرنسا كان صدمة، وبالطبع كانت هناك خيانة من جانب مناصري الفاشية اليمينيين. فرنسا كانت على ما يرام ولكن الحكومة لم تكن وطنية. بتان (Petan) تقدمت سنه ولذلك لم يتمكن من إدارة الحرب. رينود عمل جهده ولكنه هزم بواسطة أربعة عشر صوتاً إلى عشرة أصوات - أربعة عشر رجلاً يجب أن نسميهم يهوذا (يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح عليه السلام - المترجم). لا أعتقد أن الجيش الفرنسي كان في استطاعته الصمود لأكثر من شهر، ولكن ذلك الشهر كان كافياً لانسحاب سلاح البحرية وسلاح الطيران لمكان آمن ولتكوين حكومة في الجزائر. على أي حال ديغول وشركاه قد يفلحون في تكوين حكومة منفى في أفريقيا ويستمرون. هنا كل شيء يسير بشكل مرضٍ. أنا بخير وجميعنا متفائلون. لدينا العديد من الطائرات وقد تمكنا من تدمير مستودعات الوقود في أسمرا ومصوع وجهات أخرى.

لقد قمت بزيارة بورسودان وسنكات وبعض قواعد سلاح الطيران الملكي الأسبوع الماضي. قضيت يومين في سنكات واركويت وكانت فرصة قصيرة للترويح عن النفس. الصيف هذا العام كان في غاية القسوة، حار ورطب لمدة شهرين ونصف بدرجة حرارة يومياً بين ١١٥ و١١٦ مؤخراً، وبعواصف رملية. ولكني لم أنشغل بذلك كثيراً حيث مشغولياتي كانت كثيرة، ولكني بخير ولو أن وزني زاد كثيراً. لقد وصلنا عدد من الزوار كذلك.

جيوش العدو من الوطنيين غير موثوق بهم. أمس أجلت فرقة من جنودنا

المحمولين بالعربات ومزودين بالرشاشات، حوالى ١٢٠٠ من خيالة العدو شرق كسلا وتسببوا في خمسين إصابة. بعض السودانيين في مديرية النيل الأزرق في الواقع تمكنوا من اسقاط طائرة للعدو بالبنادق بالقرب من الحدود وقد سروا جداً بذلك.

تمكنا لتاريخه من إغراق وأسر ثلاث غواصات إيطالية في البحر الاحمر، علماً بأن أسطولهم من الغواصات محدود - ثلاثة في خلال خمسة عشر يوماً ليس رصيداً قليلاً. أنا على اتصال وثيق مع سلاح بحريتنا في بورسودان.



إلى مديري المديريات الخرطوم ١٣ يوليو ١٩٤٠

أنا مدرك لتأخير كتابة هذا الخطاب لكم، ولكن مشغوليات الحرب وغياب بريدن (نائب السكرتير الإداري) خلال نصف الشهر الماضي بسبب المرض منعني من بداية الخطاب إلى الآن. على أي حال فهو يغطي أول شهر للحرب من ١١ يونيو إلى ١١ يوليو. يجب عليكم اعتباره سرياً وليس فقط شخصياً.

كان الشهر زاخراً بالأحداث للسودان بعضها أحسن مما توقعنا وبعضها أسوأ. لقد فقدنا كسلا والكرمك، ولكن قواتنا لم تصب بأي أذى وواثقة من نفسها، كما وأن روح السودانيين المعنوية عالية بوجه العموم. لقد سببنا أضراراً بالغة للعدو من الجو وأصبنا بين ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ بين جريح وقتيل في المعارك الميدانية، بينما كانت إصاباتنا المدنية والعسكرية طفيفة. من أربعين غارة جوية للعدو علينا حيث سقطت أكثر من الف قنبلة، كان عدد ضحاياها من قتلى وجرحى فقط خمسين (وأغلبهم جرحى ولم تكن هناك أضرار تذكر للمواقع المهمة مثل مستودعات الذخيرة أو الدبابات أو الجسور). الاحتياطات ضد الغارات الجوية في بورسودان وعطبرة كانت جيدة (الخرطوم ما زالت تنتظر أول غارة عليها) والخنادق برهنت على جدواها. لقد غطت الغارات مسافات واسعة من الحدود من عقيق إلى مرتفعات بوما وشملت اتبرة وملكال. كان التهديف ضعيفاً وأغلب القنابل صغيرة وعدد منها فاسد.

السودان الأنجلو - مصري



خريطة عامة للسودان الأنجلو - مصري عام ١٩٤٠ (يوليو).

أول سماعنا عن الحرب مع إيطاليا كان من الـBBC مساء يوم ١٠ يونيو. حوالى الساعة الواحدة والنصف نفس اليوم زار اثنان من الضباط الطليان موريس (مفتش مركز قمبيلا) في قمبيلا حيث كان يحرس المكان بمفرده في ظروف غاية من الصعوبة لمدة عدة أشهر، وأخبروه بأن الحرب أوشكت وعليه وعلى كل السودانيين مغادرة المنطقة. وقد منحوهم الامان للمرور إلى الحدود (بموجب تعليمات من نائب الملك). ولكن كان عليهم أن يتخلّوا عن جميع أسلحتهم ويتركوا جهاز الإرسال بدون تخريب. وقد تكبدوا رحلة شاقة راجلين وبزورق وصل بعدها موريس إلى نقطة شرطتنا في جوكو التي سقطت في يد الطليان يوم ١٣ وكان موريس ما زال بها. ثم واصل بعد ذلك إلى الناصر وهو الآن بالخرطوم. في نفس يوم ١٠ يونيو أغرقت الباخرة أمبريا نفسها في منطقة التفيش خارج ميناء بورسودان حيث اعتقلتها بحريتنا وكانت تحمل ٥٠٠٠ طن من القنابل الجوية و١٧٠٠ طن من المعدات و١٩٠٠ طن اسمنتاً. ولا تزال سارياتها ظاهرة فوق الماء. وقد كنا نقدح زناد فكرنا عن الطريقة القانونية التي تمكننا من اعتقالها لفترة أطول عندما حل موسليني المشكلة لنا. طاقم الباخرة المكون من ٨٠ ضابطاً وملاحاً اعتقلوا ببورتسودان ثم تَمَّ تحويلهم إلى معسكر المعتقلين في الأبيض لينضموا للستين طليانياً الذين تم اعتقالهم في الخرطوم، عشية يوم إعلان الحرب.

ظهر يوم ١١ يونيو استدعى الحاكم العام إلى القصر ٢١ من أعيان السودانيين بمن فيهم السادة الثلاث (السيد علي الميرغني والسيد عبدالرحمن المهدي والسيد الشريف يوسف الهندي) والمفتي وممثلين للعلماء والتجار والضباط المتقاعدين ومؤتمر الخريجين، كما حضر الاجتماع أعضاء مجلس الحاكم العام. ثم قرأ الحاكم العام خطابه لشعب السودان باللغة الانجليزية وقام الشيخ احمد عثمان القاضي بقراءته باللغة العربية، كما قرأ أيضاً الخطاب المطول والذي تم نشره في ما بعد. قدم السادة الثلاثة والمفتي كلمات قصيرة عبدرا فيها عن ولائهم وعن ثقتهم في نصر بريطانيا العظمى وبعضهم تذكر اجتماعاً مماثلاً عام ١٩١٤ أعده السير ريجنالد وينغيت. قام ميرغني أفندي حمزه،

رئيس المؤتمر، بزيارتي في ما بعد ليطمئنني على تعاون كل المتعلمين بمن فيهم صغار السن الوطنيين مع الحكومة وسوف يجمدون أي نقد ويتناسون خلافاتهم رغبة منهم في تحقيق هزيمة للطليان. محمد صالح أفندي الشنقيطي سعى إليّ ليؤكد لي أنه بالرغم مما نظن عن المؤتمر وأعماله، فإن صغار المتعلمين يعتبرون الحرب ضد الفاشية والنازية كحربهم هم كما هي حربنا نحن. كل هذا صحيح وأنا متأكد من ذلك، ولكن إلى أي مدى سيستمر ذلك الشعور في حالة الإخفاق العسكري وخيبة الأمل وانقطاع التيار الكهربائي وفرض تموين والإشاعات المزعجة وخلافه. وقد شكرتهم ذاكراً لهم أن لا يقللوا من قوة الطليان وأن يتوقعوا ضربات أرضاً وجواً وأن يساعدوا في تفنيد الإشاعات المغرضة. اغلبهم إلى الآن كان دورهم إيجابياً.

لا بد أنكم اطلعتم على رسالة الحاكم العام إلى قوة دفاع السودان يوم ١١يونيو، وكان قد أرسل رسالة للجنود البريطانيين في نفس اليوم. لا داعي لأن أكرر لكم كل الإجراءات الحربية منذ ذلك التاريخ حيث تعلمون أغلبها - الأوامر المختلفة المتضمنة في قانون دفاع السودان، وضم الشرطة إلى قوة دفاع السودان، وتوسيع القوات المساعدة لقوة دفاع السودان، وتقوية المنشآت العسكرية والمدنية في مديرية كسلا، وتقوية أجهزة الأمن العام والمخابرات هنا. غازيتة قوة دفاع السودان عن ٥ يونيو و٢٣ يونيو أوضحتا عدد الموظفين المدنيين وغير الموظفين الذين تم منحهم براءات لقوة دفاع السودان (حوالى ٧٥) وللقوة المساعدة لقوة دفاع السودان (حوالى ١٠٠). القائد يطالب بخمسة وعشرين ضابطاً إضافياً لقوة دفاع السودان، كاحتياطي ولأغراض أخرى وهذا ما يشغل بال لجنة القوى العاملة. يقع عبء كبير على الجهاز السياسي وسيستمر ولن يكون من السهل تلبية المطالب الحربية بدون تعريض الأمن الداخلي للخطر و«قتل الأوزة التي تبيض ذهباً».

أما عن القوة المساعدة لقوة دفاع السودان، فقد أرسلت لكم بتاريخ ٨ يونيو نشرة عن تكوين وحدات المديريات الغرض منها مكافحة الشغب المحلي اما في الداخل (النهب أو مشاكل الوافدين للجزيرة من تشاد وخلافه) أو خارجياً (مظليو الأعداء

وقواتهم المحمولة جواً وخلافه). وقد ضمت الوحدات للقوات المحاربة يوم ١١ يوليو، وأي حامل جواز بريطاني أو مصري أو سوداني له الحق في التجنيد. همفري - مساعد السكرتير الإداري - عين الضابط المسؤول عن هذه القوة المساعدة، وقد قام بزيارة الجزيرة والشمالية وسيقوم قريبا بزيارة بورسودان لمتابعة عمل الوحدات البحرية التي كونت للمرافقة والفحص وكنس الالغام بواسطة الزوارق.

أصدقائي من البريطانيين والسودانيين يقترحون عليّ بالحاح بأن أزيد عدد المجندين السودانيين وتدريبهم لرفد قوة دفاع السودان في حالة غارات إيطالية مكثفة أو في حالة تعذر تعزيزات من الخارج. ان مقدرة قوات دفاع السودان واحتمالات توسعها هي من مسؤوليات القائد العام وليست مسؤوليتي، واقترح أن نترك الأمر له حيث إني لم أقابل أي قائد عام يرفض إضافة جنود إلا لأسباب وجيهة.

الأحوال في حدود مديرية أعالي النيل لم تخلُ من القلق نسبة لصعوبة الاتصالات وطول الحدود وخلافه. دفاع مطار ملكال تم تعزيزه وزادت قوات الشرطة. في ٢١ يونيو عبر مفتش مركز أكوبو النهر بقوة صغيرة وأخلى مركزاً إيطالياً صغيراً من ترقول ثم قام بملاحقة مركز آخر بالقرب من مصب جيبلا تم بموجبه تحرير اللسان المنبسط بين الناصر واكوبو. إيفانز برتشارد، عالم الأنتروبولوجيا والذي كان ماراً بالمديرية - يعمل الآن في مساعدة منطقة النوير بينما أرمسترنق مدير مديرية أعالي النيل جاري اتخاذ الإجراءات المناسبة بالنسبة لعمل الباخرة ومفتشي المراكز في المنطقة شرق ملكال.

في النصف الثاني من يونيو كانت هناك عدة اشتباكات على الحدود الأرترية أبلت فيها قوة دفاع السودان بلاء حسناً وكسبت خبرة جيدة، وطوال تلك الفترة كان سلاح الطيران الملكي يقوم بقصف الدبابات ومستودعات الذخيرة ومطارات العدو وخلافه في مصوع وأسمرا وجهات أخرى بنتائج جيدة (لقد اطلعت على صور فوتوغرافية توضح الأضرار التي مني بها العدو) كما برهنت قواتنا على كفايتها وأصبح يخشى منها.

في يوم ٤ يوليو كما تعلمون، تمكن الطليان من احتلال كسلا بخطة هجومية محكمة وبقوات توازي عشرة أضعاف قواتنا، بالخيالة والعربات المصفحة والدبابات والمشاة المحمولين بالباصات وبقصف جوي متواصل. تمكنت قواتنا من إلحاق إصابات بليغة على الأقل خمسماية وعطلت عدداً من الدبابات ونعتقد مطارين وبفقدان أفراد قلائل من قواتنا. وقد تم احتلال القلابات في نفس اليوم.

إن فقدان كسلا محزن ولكنه فقدان سياسي أكثر مما هو فقدان استراتيجي. إن موقعها الجغرافي جعل الدفاع عنها للنهاية في غاية الاستحالة دون أن نعرض حماية البلاد جميعها للخطر حالياً أو في المستقبل (وبالمناسبة تعريض المواطنين لفقد الأرواح بدون طائل): كانت خطتنا الأولية في عدم الدفاع عنها أصلاً، ولكن أخيراً، آملنا في تفادي سقوطها بحرمانهم من حشد جيوش على الحدود القريبة. ولكن الطقس والزمن وقوة العدو لم تمكنّا من عمل ذلك. تَمَّ الاحتلال، لحسن الحظ بدون إراقة لدماء المدنيين أو شغب، والسكان الذين غادر أغلبهم المدينة كانوا في حالة هدوء. لم تكن هناك عمليات نهب أو ارتكاب فظائع. فرض الطليان حظر تجول وأجبروا المحلات التجارية أن تفتح أبوابها وحددوا سعراً لليرة الإيطالية مقابل القرش السوداني وأعلنوا عن مشروع زراعة قطن وحبوب. وقد قاموا بفك سراح كل المساجين بمن فيهم المجانين. وقد قاموا بإنزال منشورات بالطائرات يؤكدون فيها أن الحكم الطلياني إنساني في ليبيا وأرتريا والصومال وأن موسليني يحب المسلمين ويحرص على المشاريع التي تعنى بتحسين الأحوال الاجتماعية وتربية الأبقار. وأن حرب إيطاليا هي ضد الإنجليز وليست ضد السودانيين ولكن كل من يقاوم سوف يعاقب بصرامة.

ساندسن، مفتش مركز كسلا أرسل تقريراً يقول فيه إن إدارة الهدندوة في دلتا القاش جاري أداء أعمالهم بثبات وهدوء ومنفذين كل التعليمات بدون مشاكل. الناظر عموم أرسل لنا رسالة شخصية يوم ٧ يوليو يؤكد فيها ولاء قبيلته المطلق واستهجانه لغارة الطليان على كسلا وأنه قرأ منشور الطليان ويعتقد أنه أقل من أن يحتقر.

القضارف تَمَّ تعزيزها جيداً وستقاوم بضراوة في حالة الهجوم عليها. الحاكم

العام وافق على إذاعة بيان يقيّم فيه الموقف ويطمئن السودانيين ويشد من أزرهم. الاستيلاء على كسلا بالطبع زاد من الرغبة لرد الصاع صاعين ولأخذ المبادأة في الهجوم. ليس من أحد فينا تنقصه روح المبادرة في الهجوم، ولكننا والسودانيين لا بد أن نعترف بالواقع بأننا حالياً لسنا في موقف يمكننا أن نعمل أكثر من أن ندافع. تخاذل الفرنسيين والذي كانت له عواقب وخيمة وما زالت قد تسبب لفترة في عرقلة خططنا الاستراتيجية في الشرق الأدنى ومن جهات أخرى ونجمت عنه مشاكل إمدادات جديدة ولكن التكييف لمجابهة الموقف الجديد جارية على قدم وساق. لا أستطيع أن أعطيكم تفاصيل (حتى ولو كنت أعلمها) ولكن موقفنا الآن يجب أن يكون الصمود والتفاؤل بحذر. العوامل المحلية الآنية لحد ما ليست في صالحنا، ولكننا نعتقد أن العوامل العامة المستقبلية في مصلحتنا. يجب إعلام أعيان السودانيين بأن الحرب بها مكاسب وخسائر وأن تخاذل الفرنسيين قد سبب تأخيراً موقتاً ولكن الحكومة البريطانية لديها خططها المتينة وجارية الآن تعزيز الرجال والعتاد لتغطية عجز الحلفاء، وأنها في الوقت المناسب وعلى حسب تقديرها سوف تهاجم هنا وفي جهات أخرى. في الوقت الراهن يجب علينا أن نتحلى بالصبر، وأن السودان مجرد مربع واحد في لوحة الشطرنج البريطانية وإن حركة البيدق والرُّخ والملك ليست واضحة الهدف للمشاهد إلا بعد أن يتقدم السجال وأحياناً ليس قبل نهاية اللعبة.

في يوم ٧ يوليو علمنا بأن الاتصال بلاسلكي الكرمك انقطع، وبما أننا نعلم بأن هناك حشوداً للطليان في دلُ فخمّنّا أن معركة قد وقعت، وقد وصلتنا معلومات عنها صباح ٩ يوليو. م. ف. ب. بل مساعد مفتش مركز الكرمك وثلاثة من مفتشي شركة أقطان السودان الذين انتدبناهم لمساعدته وشرطته المكونة من سبعين فرداً تراجعوا بفقدان قتيل واحد بعد أن كبدوا العدو خسائر فادحة في الأرواح. تم تعزيز دفاعات الروصيرص وقد انضم إليهم س. ج. ديفيز مساعد السكرتير المالي والمدفعجي المتقاعد وكذلك أحد ضباط قوة دفاع السودان.

وافق الحاكم العام على افتتاح صندوق نجدة ضحايا الحرب السودانية لتخفيف الضغوط والخسائر التي يسببها العدو، ولرفد الدعم الذي تقدمه الحكومة والقطاع الخاص. وقد وافق السادة الثلاثة لأن يكونوا رعاة لذلك الصندوق وجاري تشكيل لجنة تنفيذية بأغلبية سودانيين. التفاصيل سوف تنشر قريباً. وقد تم استلام مبلغ ٥٠٠ جنيه مصري بواسطة ابراهيم عامر باشا من التجار السودانيين بمصر. وقد بلغ تبرع السودان للصليب الأحمر الآن ١٠٠٠٠ جنيه مصري، وكانت التبرعات التي تمت أخيراً تشمل ٤٣٤ جنيهاً مصرياً من ناظر وموظفي الإدارة الأهلية للبقارة في مديرية النيل الأبيض، و٢٦٥ جنيهاً مصرياً من منطقة حلفا و١٠٠ جنيه مصري من ناظر وأفراد الكبابيش. وبما أننا وصلنا إلى هذا المبلغ الآن، فإذا ما كان استفسار من بعض السودانيين الراغبين في التبرع عن الجهة التي يرسلون تبرعهم لها، أرجو أن توجهوا أنظارهم (بدون أي ضغط) إلى صندوق نجدة ضحايا الحرب السودانية بدلاً من الصليب الأحمر حيث ستكون هناك دفعيات كبيرة من الصندوق في الخريف إن لم يكن قبل ذلك.

سلاح البحرية أصبح يولي اهتماماً زائداً لبورسودان مؤخراً، وقد تم تعيين القائد هوايتهاوس (مفتش المساحة) الذي ابتعث قبل زمن من الدويم كمندوب بحري، كقائد بحري مسؤول، في ٣٠ يونيو من قبل لوردات البحرية البريطانية وزود بضباط. الأوضاع من البحر الأحمر تبشر بخير.

الوضع الاستعماري للفرنساويين والبلجيكيين واللذين تمتد حدود مستعمراتها الأفريقية مع السودان لحوالى ١٠٠٠ ميل (بالنسبة لفرنسا) و٣٠٠ ميل (بالنسبة لبلجيكا) بالطبع كان له تأثيره على السودان. لقد عقدنا علاقات شخصية بواسطة مدير دارفور ومدير الاستوائية مع القادة العسكريين الفرنسيين والبلجيك المحليين (والذين طاف مندوبوهم مراكزنا الحدودية) وتبادلوا الآراء بعضهم البعض. المفاوضات الرئيسة في غرب وشرق أفريقيا يقوم بها العسكريون وموظفو المستعمرات والقناصل وضباط اتصال مخصوصين. المحادثات مستمرة، وطبعاً التطورات في سوريا وإيران

ودكار صعبت الأمور لحد ما. هنا أيضاً لا يمكنني إعطاءكم أي تفاصيل... ولكن تصلنا تعليمات محددة من الحكومة البريطانية، ولكن إطمئنوا أننا جارين تشجيع ومساعدة كل العناصر الفرنسية والبلجيكية المفيدة والموالية. الجنرال ديغول كان يواجه موقفاً صعباً دون أن يجد حوله زملاء سياسيين ذوي وزن. ولكن بعد فترة من انعدام الوزن وعدم اتخاذ القرار (كما يتوقع) فقد بدأت الوحدات الفرنسية والأفراد من حزم أمرهم وسنرى قريباً ما يمكن إنقاذه من هذا الركام.

❒❒❒

إلى الرائد و. ب. كندي – شو ٣ أغسطس ١٩٤٠

رئاسة القوات – الشرق الأوسط

أشكرك على خطابك بتاريخ ٢٩/ ٧ الذي استلمته قبل يومين. وقد أجلت الرد عليك لأني كنت آمل أن يصل مواتسير (ضابط الاتصال الفرنسي بالخرطوم) من فورتلامي. ولكن (أ) لا خبر منه، ولو أنه قد يصل غداً مساء، و(ب) أشك أن تكون لديه معلومات من الفرنسيين عن الكفرة وخلافه – والله أعلم. لم يقضي وقتاً طويلاً هناك وكان مهتماً أساساً بإقناعهم بأن لا يحذو حذو داكار. مشاكل فرنسا زادت من أعبائي وأخذت وقتاً طويلاً حتى وهي سائرة إلى أسوأ منذ فشل قورت ودف – كوبر في محادثاتهما مع نوقي. ولكننا قد نتمكن من اصلاح ما يمكن اصلاحه. بورديلون والنيجريين قاموا بتقوية فورتلامي وقد قمنا نحن بتقوية أبشي (عاصمة وداي)، والقنصل العام في ليوبولدفيل أبلى حسناً في برازافيل. كل هذا بالطبع لا يعنيك.

أرسل لك مجموعة من المعلومات القليلة التي في حوزتي عن المنطقة جنوب ليبيا. لا أعتقد لها قيمة تذكر، ولكن قاي مور (مفتش مركز شمال دارفور) قد يتحصل على معلومات من الفرنسيين أو من سلاطين منطقتهم في تيتي – يوم ٣١/ ٨.

أنقلسون (مدير دارفور) يرغب في إنشاء فرقة من الكشافة الرحل الزقاوة التابعين

لنا في حالة فشل دوريات الشرطة الفرنسية الاستوائية وتمرد القبائل. طبعاً كان لنا دائماً عدد من الكشافة، ولكن ليست فرقة نظامية.

بل، إنه لشرف عظيم لك أن تكون في الشرق الأوسط. هل تسمح لي بالإنضمام كنفر في جيشك الصغير؟ سأقوم بتحيتك باحترام بالغ. مضى وقت طويل منذ أن كنت أعلن عن عدم نظافة أزرار سترتي العسكرية أو نظافة بندقيتي. لقد حاربت مع الطليان ضد السنوسي ولا مانع عندي بتاتاً الآن أن أحارب مع الليبيين ضد الطليانة. كان من الممتع رؤية تلك الأماكن الصغيرة بالقرب من السلوم بأسمائها القريبة مثل فورت كابوزو.

لا أعتقد أن مخابرات قوة دفاع السودان سيئة، ولكنهم بالطبع معنيون أكثر بشرق أفريقيا الايطالية وليس بليبيا. معلوماتهم عن الحبشة جيدة للغاية. لدينا مكتب للشؤون الحبشية يضاهي مكتب شؤون العرب في الأعوام ١٩١٥-١٩١٦.

الحاكم العام الآن في جولة تفتيش وأنا أحاول أن أقوم باللازم بالعمل تسع ساعات يومياً بالإضافة للاهتمام بالامبراطور (الحبشي) والزوار أغلبهم قادة سلاح طيران وجنرالات وخلافهم الذين يعبرون عن طريقنا (للأسف بدون أن يحضروا معهم فرقهم وأسرابهم).

لقد دعوت الامبراطور على العشاء ولكنه لم يرتدي عباءته الشهيرة ولكنه لم يتخلَ عن لحيته. اصطحبت ابنه، دوق هرر، إلى فيلم الميكادو (ملوك اليابان القدامى) وأخبرته أنه يشبه نانكي بو (أمير ياباني). أخبرني بأن هناك عدداً كبيراً من الكاتيشاس (؟) من أديس أبابا، عمره حوالى سبعة عشر عاماً وقد تلقى تعليمه في ولنغتون.

إن الاهتمام بالامبراطور المتخفي ورتشارد دمبلبي (المصاب بالدفتريا) وضباط الاتصال الفرنسيين والبلجيكيين وملازم أول بلجيكي وصل إلى ياي بدراجته من الكونغو، وعويل زوجات الطليانة المعتقلين، والجواسيس اليمنيين، وزمجرة قادة جيوش شرق الهند وجنوب الاطلنطي، واحتجاج لاغوس بعدم الاعتراف بهم بأنهم مسؤولون

عن أفريقيا الاستوائية الفرنسية، والقنصل المصري الذي لم يتمكن من مغادرة أديس ابابا والآن جارين عقد هدنة في القضارف لاجلائه، كلها صعاب لا تطاق.

❐❐❐

إلى يوان كامبل - مدير كردفان ١١ أغسطس ١٩٤٠

يبدو أن الصومال تم اجتياحها بواسطة الطليان نسبة لكثرة عددهم. رجى شاتر (قائد سلاح الهجانة في الصومال) المسكين كان يستحق مصيراً أفضل، ولكنه ضابط ممتاز وسيقاوم بضراوة لمدة من الزمن. أملي أن لا تتكرر الهزيمة كذلك في بربرا.

تغييرات كثيرة جارية الآن في المستعمرات الفرنسية، ولكن علينا أن نبدأ من البداية الآن، بعد نجاح حكومة الفيشي. فورتلامي تم تأمينها، ولكن إلى متى أنا على اتصال دائم معهم عن طريق لاغوس وديكندول ضابط اتصالنا الفرنسي، وعن طريق مكتب الشرق الأوسط. حكومة الفيشي حاولت إرسال مندوب جواً إلى أفريقيا الاستوائية الفرنسية عن طريقنا ولكننا رفضنا منحه فيزا. أتوقع أن يتمكن من الوصول لهناك عن طريق داكار وزندر. أما مندوبهم الذي أرسلوه إلى جبوتي فقد سافر جواً عبر السودان إلى شرق أفريقيا الإيطالية. للأسف الجنرال ليفنلوم المسكين لم تكن لديه أي فرصة في الصمود. لقد صمد ولكن المدنيين خذلوه ولم تكن لديه فرصة بدون حرب أهلية. ولذلك فقدنا مستعمرة أخرى.

إذا ما ظهر انهيار في أفريقيا الاستوائية الفرنسية، فلا بد لنا من تكوين سلاح كشافة رحل في شمال دارفور لمراقبة أنيدي وخلافها. الفرنساويون ما زالوا يسيطرون على فادا وفايا ولكنهم سحبوا نقاطهم من تكرو وبرادو بموجب شروط الهدنة. إن للطليان مطاراً في مرتفعات جيف - جيف في مثلث بارا القديم ويستعملونه للطيران فوق الحدود بين أفريقيا الاستوائية الفرنسية ودارفور. أشك في رغبتهم لاختراق أفريقيا الاستوائية الفرنسية حيث المنطقة وعرة للغاية وليس بها طرق أو مؤن والناس غير مرحبين بالأجانب.

أتمنى أن تسير الأمور للأحسن في الأبيض. الموظفون الذين كانوا مسافرين في عطل بدأوا في الرجوع - جماعة لاغوس الآن وجماعة ممباسًا قريباً. ونحن سعيدون بذلك حيث عندنا نقص كبير في الموظفين.

❒❒❒

إلى والدته الخرطوم ٢٠ أغسطس ١٩٤٠

آسف لعدم انتظام مراسلتك في الفترة الأخيرة فقد كانت فترة الثلاثة أسابيع الماضية أكثر مشغولية من خلافها.

غداً سأذهب في رحلة تفقدية إلى القضارف لمدة ستة أيام أقضي يومين منها في القطار في صالون مريح حيث سأتمكن من النوم ولن تزعجني التلفونات والبرقيات التي لن تنقطع وأتمكن من القراءة والراحة. القطار بطيء وسيمر بمناطق خضراء لحقول ذرة وعلف حيوان. عندما كنت أسافر على ظهور الجمال في الماضي كنت أحتقر السفر بالقطار، والآن بما أنني اصبحت أسير المكاتب فأي فرصة للهروب من سجني حتى ولو كان في قطار تحت الأرض يبدو مثيراً.

أنا بخير، منهمك ذهنياً ولكني أنام وآكل جيداً ومشاغلي الكثيرة تلهيني عن القلق.

للآن الخرطوم لم تصب بأذى (أمسكي الخشب) كنا نتوقع قصفاً هذا الأسبوع لأننا قصفنا أديس أبابا لأول مرة قبل يومين، ولكنهم لم يأتوا بعد. عندهم عجز كبير في الوقود في شرق أفريقيا الإيطالية، وكذلك في الغذاءات، حيث لم ينتبهوا لزراعة مواد غذائية كافية تكفي جيشهم الكبير.

كل شيء هنا يسوده الهدوء، وكل ما تقرئينه في الصحف وتسمعينه في الـB.B.C. وخلافه عن السودان صحيح. أنا أعلم انه صحيح لأن أغلب الأخبار التي تصل إلى إنجلترا تمر عن طريقي. معنا عدد من المراسلين الحربيين «الديلي أكسبرس» (مورهد)

شاب ممتاز، و«الدايلي هرالد» (هربرت ماثيوز - الذي كتب كتاباً عن ألبانيا)، ورتشارد دمبلبي، معلّق الـB.B.C. الأمبراطور هيلاسلاسي ليس مقيماً معي ولكنني أقابله كثيراً وقد دعوته على العشاء. إنه شخصية لطيفة ومتنورة ومهذبة.

❐❐❐

إلى والدته الخرطوم ٣٠ أغسطس ١٩٤٠

الأسبوع الماضي ارتكب الطليان جريمة نكراء لا بد أنك قرأتي عنها في الصحف قبل أن تستلمي هذا. فقد أرسلوا طائرتين قامتا بقصف محطة تبشيرية معزولة في مديرية أعالي النيل. كان بها خمسة مبشرين، دكتور غريف وزوجته، القس أوقلسبي وزوجته، جميعهم أميركيين، والآنسة زيلا والش الاسترالية. دكتور غريف وزوجته خرجوا من المحطة جرياً ملوحين بعلم أميركي وحصدوا برصاص الرشاشات وقتلوا. أما أوقلسبي وزوجته فقد أصيبا بجراح مع عدد من الأطفال الجنوبيين. لم يكن بجوارهم أي أوروبيين والمنطقة المجاورة كلها غابات ومستنقعات. الآنسة والش وجدت نفسها فجأة بين ضحيتين (بينهم الطبيب الوحيد) وجريحين، بدون وسيلة تلغراف، حوالى ١٤٠ ميلاً من النيل، وبدون مواصلات. لم نسمع إلا بعد خمسة أيام. ولا يمكن لطائرة أن تحط هناك. قضيت اليوم كله في محادثات بالتلفون وبالتلغراف، ولكن ليس هناك ما يمكن عمله. الجرحى الآن إما قضوا أو تماثلوا للشفاء. لقد رموا ثلاثين قنبلة. كانت هناك نقطة شرطة صغيرة على بعد ميلين من المحطة وبدون جنود أو أي أهداف عسكرية. لقد كانت جريمة قتل عمد محضة. لقد أبرقت إلى سفيرنا في القاهرة والوزير الأميركي المقيم في القاهرة وآمل أن يقيموا الدنيا ولا يقعدوها. العزاء الوحيد أن ما حدث قد يساعد روزفلت في اتخاذ قراره.

لقد كنت في رحلة تفتيشية للقضارف وحدودنا الشرقية من ٢٢ إلى ٢٧ أغسطس وقابلت قواتنا هناك. القضارف تقع جنوب شرق الخرطوم والطبيعة جميلة ومخضرة. اليوم الذي غادرت فيه الخرطوم أغارت طائرة إيطالية على الخرطوم ليلاً متظاهرة بأنها

تتبع لنا ومحلقة على ارتفاع منخفض وكاشفة لأنوارها كأنها تنوي الهبوط، ثم قذفت بعض القنابل في أطراف الخرطوم بدون الحاق أي أضرار. اليوم الثاني وصلت ثلاث طائرات نهاراً - وكانت الرؤية متعذرة بسبب الرياح الرملية - وقذفوا ببعض القنابل على مدينة أمدرمان غير المحمية تسببت في قتل وجرح بعض النساء والأطفال. إن بيوت طين أمدرمان عازلة للشظايا. وقعت قنبلة كبيرة على فرندة مدرسة ولم تنفجر والمدرسة كانت خالية من التلاميذ. لقد رأيت الثلاث طائرات وهي راجعة إلى الحبشة عندما كنت في الشرق وكنت أتساءل عن مهمتها - وهي من طراز سافوياس وتحلق على علو مرتفع. كذلك لم أشاهد الغارة على كبرى نهر أتبرة جنوب غرب كسلا حيث وصلت بعد ساعتين، ولكنها أخطأت الهدف. لا بد أني محظوظ لأن أكون في المكان الذي يقصف إما قبل القصف أو بعد القصف بساعات. على أي حال هذه أشياء صغيرة وتافهة مقارنة بما يحدث في إنجلترا.

وصلتنا اليوم أخبار سارة بانضمام مستعمرتين فرنسيتين: أفريقيا الاستوائية الفرنسية والكمرون إلى ديغول. أفريقيا الاستوائية الفرنسية لها حدود من المستنقعات بحوالى ألف ميل مع غرب السودان، ولذلك هذا الخبر يعني الكثير لنا. لقد كنت مشغولاً بهذا الأمر كثيراً في الآونة الأخيرة وأرجو أن يستمر انحياز المستعمرات الفرنسية للجنرال ديغول. أحد رجال ديغول الفرنسيين الذي أعمل معه كان دبلوماسياً في فنلندا وقد حضر من هناك للخرطوم عن طريق تالين وموسكو وصوفيا والقسطنطينية. حاكم مستعمرة تشاد والذي أول من رفع علم ديغول هو زنجي من المارتينيك اسمه السيد/ أبويَّ، رجل مثقف جداً. إن ما يثلج الصدر أن نرى رجلاً أسود يملك الشجاعة.

أنا سعيد بأن الوزير المفوض البلجيكي من الكونغو قد رحل إلى إنجلترا فأنا لا أثق في الحكومة الفرنسية.

إلى مديري المديريات ٣ سبتمبر ١٩٤٠

الشهر الثاني ونصف الشهر الثالث للحرب مع إيطاليا كانا أقل إثارة من الشهر الأول. الطليانة بعد احتلالهم كسلا والقلابات والكرمك لم يتخذوا أي خطوات جادة أخرى. كان هناك تخوف على دلتا القاش والبركة والمنطقة شرق وجنوب الروصيرص. ولكننا اتخذنا الاجراءات الدفاعية اللازمة حسب استطاعتنا لمنع تسرب العدو. وأصبح الموقف الإداري بالنسبة للمنطقتين الأوليين مُرضٍ بوجه عام ولكن ليس كذلك بالنسبة للمنطقة الثالثة.

إن قصف سلاح الطيران الملكي لأهداف العدو في كسلا وضواحيها يومي ٣٠ و٣١ يوليو بالإضافة لإنزال منشورات باللغة الطليانية والتقرية والأمهرية كان لها مفعولاً كبيراً في التأثير على بعض جنود العدو. وكسلا تعاني من شح شديد في الغذاء. الإدارة الايطالية تستمر في إدارتها بدون قمع باستثناء حالات معزولة.

لا بد أنكم استلمتم تفاصيل الموقف الحربي في العرض للأحداث التي نشرته رئاسة القوات في السودان، ولذلك لا داعي لتكرار ذلك هنا. لقد قمت بزيارة القضارف وخشم القربة قبل أسبوعين ووجدت المنطقة خضراء والجنود وشيوخ القبائل بروح عالية جداً. كبري البطانة ما زال يتمتع بحظه بالرغم من الغارات الجوية المتكررة، وقد رأينا ثلاث طائرات هناك في طريقها إلى الحبشة من بعد غاراتها غير المجدية على أمدرمان حيث حيطان الطين تخفف الانفجار وتحجز الشظايا.

كنا نحاول تقدير كميات الغذاء المتوفرة في اريتريا والحبشة بالنسبة للمواطنين وللجيوش. هناك عجز في مواد غذائية كثيرة ولكن يجب أن لا نبالغ في عجز المواد الأساسية مثل القمح والدقيق والسكر والبن، نسبة لظروف الحدود الغربية التي تسبب صعوبة في التوزيع. ومع ذلك فإن التموين مفروض بصرامة ولا بد أن يكون هناك سوء تغذية في جهات متفرقة قد تقود إما لسخط أو قد تسبب أوبئة. زيرزس (ملك اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد - المترجم) فَقَدَ نصف جيشه من الطاعون والدسنتاريا. إحدى الحملات الصليبية فتك بها الطاعون وأخرى من داء تورم اللثة

ونزف الدم فيها وثالثة بالدسنتاريا. جمهورية هايتي تعزي بقاءها للحمى الصفراء التي أبادت ٢٣٠٠٠ جندي من الـ٣٠٠٠٠ جندي في جيش نابليون المختارين.

حلت بنا مصيبتان منذ خطابي السابق لكم. الأولى كانت يوم ٢ يوليو عندما دهس قطار مناورة رتشاردسن (مفتش مركز شندي) وماكسول هاريسون (قاضي المحكمة العليا) وقتلهم، ولش (مدير الشمالية) والذي أصيب إصابة بليغة. والثانية كانت يوم ٢٣ أغسطس عندما أغار الطليان على محطة تبشيرية في مديرية أعالي النيل قتلت أميركيين وجرحت اثنين آخرين. الفاجعتان تم نشرهما. رتشاردسن (أبو شنبات) كان معي في كلية أوريل في جامعة أكسفورد عامي ١٩١٣ و١٩١٩. لم يتغير بتاتاً خلال ٢١ عاماً، دائماً منشرح وكريم ولا يكل ولا يمل، كان رجلاً مهماً جداً بالرغم من حجمه الصغير، موظف خدمة مدنية مثالي، وقد رثاه الكثيرون من السودانيين بكلمات مؤثرة. كان ماكسول هاريسون أكثر وقاراً وفي غاية الاحترام وحي الضمير وقد قام بأعمال عظيمة في المديرية الشمالية في صمت. إنهما يتركان فراغاً كبيراً، خصوصاً في هذه الأيام العصيبة.

لش نجا من الموت بأعجوبة واستعاد عافيته أيضاً بسرعة فائقة. هو الآن في مستشفى الخرطوم المدني بروح معنوية عالية بالرغم أن حوضه في سترة من الجبس. أما كروفورد (نائب مدير الشمالية) فقد نجا من الحادث بدون أي اصابة.

كان قصف محطة دورو التبشيرية متعمداً وغير مبرر. وقد أرسلنا المعلومات إلى القاهرة وإلى الوزير الأميركي المقيم بالقاهرة. لم نسمع بعد عن رد فعل الطليان عن إذاعة الـB.B.C. للخبر ولم نسمع عما ينويه الأميركان من فعل. نحن جارين إخلاء محطتي دورو وشالي، ولكن هناك صعوبة بسبب الأمطار، وقد تكون شالي الآن تحت الاحتلال.

لقد لفتنا نظر الـB.B.C لعدة أخطاء. لقد أذاعوا بالعربي اجتماع الحاكم العام مع الأعيان عند دخول إيطاليا الحرب ولكنهم ذكروا فقط كلمة السيد عبدالرحمن المهدي دون ذكر كلمات السادة الأخيرين مما سبب لنا حرجاً كبيراً. وبعدها كانوا

يكررون حشود الجنود البريطانيين على الحدود الأريترية بدلاً من الجنود السودانيين. كذلك كانوا ينطقون «كسلا» - كاسلور وعند احتجاجنا رووا بأن هذا هو النطق الذي تستعمله البورصة.

بطلب من السفارة البريطانية في القاهرة قدمنا للـB.B.C مذكرة عن ولاء السودانيين. وقد كانت القائمة بأسماء الزعماء السودانيين ووحدات الحكم المحلي الذين أرسلوا رسائل ولاء، وتبرعوا بالمال والتطوع والتبرع للصليب الأحمر وخلافه مؤثرة ومنعشة حتى بالنسبة لبعضنا ممن يدركون عمق الإحساس خصوصاً من رجالات الأرياف، نحو البريطانيين.

في خطابي السابق ذكرت لكم بعض الشيء عن موقف المستعمرات الفرنسية والبلجيكية. حكومة السودان وحكومة نيجيريا كلتاهما كانتا على اتصال دائم بفورتلامي وبأبشي، وطبعاً سمعتم عن الأخبار الطيبة عن انحياز تشاد أولاً ثم باقي أفريقيا الاستوائية الفرنسية بما فيها انقلاب برازافيل إلى ديغول وكذلك الكمرون. لعل ذلك يكون بداية لانحياز الآخرين. ومن المثير أن يكون أول حاكم لمستعمرة أفريقية فرنسية يرفع علم فرنسا الحرة (التابعة لديغول - المترجم) رجل أسود - المستر أبويّ حاكم فورتلامي، وهو من مواطني المارتينيك. الكولونيل دي لاروينات الذي كان رئيس أركان للجنرال متلهاوزر في سوريا عين مندوباً سامياً في برازافيل عن أفريقيا الاستوائية الفرنسية. (أفريقيا الاستوائية الفرنسية في حجم السودان وسكانها حوالى ثلاثة ملايين نسمة، تصفهم إذاعة المانيا بأنهم عديمو الفائدة وجوعى!) الكولونيل لكليرك عين حاكماً عاماً وقائداً للكمرون.

الأوضاع في الكونغو البلجيكي مرضية. القائد العسكري للمنطقة الشمالية التي تحد مديرية الاستوائية ودود جداً وقام بزيارة جوبا يوم ٢٣ يوليو حاكم عام الكونغو أذاع بياناً أعلن فيه وقوف الكونغو بجانب بريطانيا. نحن على اتصال مستمر تلغرافياً مع قنصلنا العام في ليوبولدفيل. المشاكل الاقتصادية برزت هناك نسبة لانخفاض قيمة الفرنك البلجيكي. ولكنها دولة غنية بالمعادن بالإضافة للمحاصيل. الحكومة

البلجيكية نصفها الآن في إنجلترا ونصفها في فرنسا، ولكن الوزير المفوض الكونغولي المستر دي فليشاور حول مقره أخيراً لإنجلترا. مستعمرات البرتغال في غرب وشرق أفريقيا صديقة وقد تم رفدهم بجيوش من لشبونة، والمسؤولون جارين مراقبة الجاليات الالمانية والايطالية في المحميتين.

مجلة المؤتمر الشهرية بدأت في أكتوبر ١٩٣٨، وبعد بداية مشجعة اختفت وتغيرت إلى اسبوعية اسمها المؤتمر - لجنة المؤتمر خلال يوليو وأغسطس أظهرت ولاءً عظيماً، ولكن فهمهم السياسي للأسف قاصر جداً. بعض منهم ما زالوا يحلمون بـ«الجبهة الوطنية» ولم يتمكنوا للآن من التعديلات الدستورية المقدمة لمؤتمرهم. هذا انعكس عليهم عندما حاولت اللجنة الستينية غير المتجانسة وغير المتنورة أن تستفز لجنة الخمسة عشر مما حدا بالأخيرة للاستقالة في ٣١ أغسطس. تم انتخاب لجنة جديدة ولكن تكوينها غير مناسب وقد استقال أربعة من أعضائها الآن. هذا يذكرني بمؤتمر فينا: «المؤتمر يرقص دائماً ولكنه لا يزحف (مثل الجيوش)».

إن وطنية صغار الأفندية قد أفسح لها بعض المجال بالتصديق على برنامج للكاديت (ليس كبرنامج لتدريب الضباط) في كلية غردون والمدارس العليا، والمناشدة لملء الرتب الشاغرة لضباط وطنيين. الامتحان الذي وضع لضباط الكاديت يذكرني بقصيدة هوراس ١-٣٥:

شباب الكلية الحربية اجتاز الامتحان
وعبر ليخيف الأعداء في الجهات الشرقية
وأيضاً في البحر الأحمر

❐❐❐

إلى يوان كامبل — الخرطوم ٦ سبتمبر ١٩٤٠

أنا سعيد بأن إيفلن قد نجت من ارتطام باخرتها في جنوب أفريقيا في طريقها إلى أستراليا بدون أي إصابة. لا بد أن خبر الحادثة أزعجك كثيراً.

بودي أن أطلعك على كل شيء ولكني لم أجد ولا دقيقة للكتابة وكذلك كنت أنوي زيارة الأبيض ليومين أو ثلاثة. الإمدادات تصل والوصول سبب مشاكل إدارية وتوصيل إمدادات مما جعلني تحت خدمة وتصرف بلات (القائد العام). لا بد لنا من كسر شوكة شرق أفريقيا الإيطالية كما تقول، وسنفعل. أهم شيء هو أن نُحكم دفاعاتنا حتى لا يتمكنوا هم من كسر شوكتنا نحن. عقليتنا ليست دفاعية فقط - بلات من دعاة الهجوم وهو عسكري ممتاز ومؤهل وأحياناً سريع الغضب - ولكننا يجب منعهم من أخذ القضارف أو طوكر أو عطبرة حتى يسهل علينا التقدم نحوهم عندما يحين الوقت. كارثة جيوش وغزو الصومال قد مكنهم من إضافة فوجين لمحاربة السودان. قليل من أولئك الذين يحضون القائد على الهجوم الآن يدركون مدى قوة ومعنويات العدو. أنا سعيد أنك شخصياً لا تقلل من قوة العدو. ويفل (القائد العام لقوات الشرق الأوسط والحاكم العام وبلات وأنا نعلم الكثير عن تعداد وعتاد العدو وتوجيهاته وامداداته، ولكن الأخيرين خارج دائرتنا وفي الأقاليم الذين لا يلمون بالحقائق يحلوا لهم أن يقولوا إنهم مجرد متخلفين وأن جيشاً سودانياً مكوناً من القبائل مزود بالحراب والبنادق كفيل بهزيمتهم. على أي حال سوف نهزمهم والسودانيون سيلعبون الدور الأكبر في ذلك. لا أدري متى. تجهيز جيش كامل مع مواصلاته وسلاح إشارته وذخيرته وإمداداته وخلافه يأخذ وقتاً طويلاً لهزيمة جيش قوامه ربع مليون جندي (حتى ولو جزء منه متدني المعنويات والثوار يكثفون من نشاطهم. ولكننا الآن في البداية. لا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك. طباخوك قد يخبروك بما أعجز أنا عن ذكره لك.

جورج بريدن - نائب السكرتير الإداري - مصدر قوة ومؤازرة، وأنا في صحة جيدة، وأصدقائي هنا، وهم كثر، يحسنون إليّ كثيراً. أنا لا أمانع أن أُلام عن أخطاء، في الماضي أو الحاضر، ولكن الشيء الذي يغضبني هو (أ) أن أتهم بعدم اللامبالاة (أنا لا أعتقد أن من يعمل ٨ إلى ١٠ ساعات يومياً لسنة كاملة خلاف أيام قليلة للمرور - وهذه ليست عطلة - يمكن أن يُقال عنه لا مبالي). و(ب) التلميح بأن الحكومة

المركزية لا ترغب في كسب الحرب أو لا تأخذ كل الإجراءات اللازمة. في الواقع نحن درسنا كل الاحتمالات والاجراءات في الدفاع ضد القوات المحمولة جواً من ليبيا، وخطوط إمداد ثانية من ممباسا وماتادي ولاغوس، وبنطونات نهرية وبواخر للاستعاضة عن الكباري المنسوفة في كوستي أو الخرطوم أو أم درمان، وتوزيع عربات السكة حديد للمناطق الحربية المختلفة، وتسليح بواخر الجنوب، وتزويد شرطة دنقلا بالتلفونات الإضافية ليبلغونا عن الخط الجوي بين ليبيا وتسني، وكسح الألغام في بورسودان، وإنزال المنشورات في أريتريا والحبشة بأربع لغات، وتزويد جوبا بجنود بلجيك، وانشاء قسم لسلاح ضد الطائرات في الجنينة وتغيير الخرائط الحربية من المقاس العيني إلى المقاس المتسامت للعمل بها في مناطق الحدود وتكوين فرقة أثيوبية، للعمل داخل شرق أفريقيا الإيطالية، كل هذه الأشياء، ومئات أخرى كلها تمر عبر مكتبي، والثلاثة تلفونات لا تتوقف والبريد الجوي يصل ويغادر ست مرات في الأسبوع.

أنا أجد متعة في هذا العمل يا يوان وكله عمل بنّاء وبهدف واحد - هزيمة الطليان. تقريباً كله سري وقليل جداً منه يمكن نشره، وليس لدي الوقت حتى لتلخيصه للآخرين، ولكنك أنت ورجالك يجب أن تطمئنوا أن مجهود الحرب نشط وهجومي ومستمر وأن السودانيين جزء منه.

❐❐❐

إلى مديري المديريات ١٨ سبتمبر ١٩٤٠

كانت الأحوال صعبة خلال شهري يونيو ويوليو ومنتصف أغسطس. لقد خسرنا كسلا والقلايات والكرمك، وكان هناك خط رفيع أحمر - أو أسود - بين الطليان والنيل (يعني عدد الجنود السودانيين والبريطانيين - المترجم). أصاب الناس القنوط وبعضهم اتخذ وجهاً هجومياً بلا مبرر. خفضت العطل وتضاعف العمل بالنسبة للمصالح نسبة لإعارة الموظفين المدنيين للمجهود الحربي. وكان الصيف أكثر حرارة

من أي وقت مضى ولمدة طويلة بدرجة حرارة تتراوح بين ١١٠ و١١٥ درجة وأعلى درجة كانت ١١٨. ومع هذا فقد انتهى ذلك الصيف، وقد لعب السودانيون دوراً ممتازاً. والآن وصلت التعزيزات براً وجواً، والبحرية زارت بورسودان وأنشأت فرقة هناك، وأغلب الغواصات الإيطالية في البحر الأحمر تم القضاء عليها، وسلاح الطيران البريطاني قصف أرتريا قصفاً موجعاً في عاصمتها ومطاراتها ومستودعات وقودها وميناءها، والآن أصبحنا نتنفس بسهولة. لقد كنا متفائلين طول الوقت ولكن أُصبنا بالاحباط لمدة شهرين عندما لم نتمكن من مهاجمة العدو. معنوياتهم متدنية ولم تكن لديهم وما زال روح قتالية، ولكن ما أنقذهم هو أعدادهم الكبيرة جداً وتفوق معداتهم (وخصوصاً المدفعية) وانكسار فرنسا. لولا ذلك لكنا أجليناهم من شرق أفريقيا في شهور قليلة. ومع ذلك فقد دفعوا ثمناً باهظاً لنجاحهم في الحدود - ٨٠٠ إصابة في كسلا مع ٨ دبابة وعربة مصفحة، مقابل حوالى عشرين إصابة من جانبنا، وفي الكرمك خسروا حوالى ١٥٠ عندما تصدى ٧٠ من شرطتنا لما بين ٢٠٠ و٣٠٠ من رجالهم بقاذفتي قنابل ومدفعية ورشاشات خفيفة وثقيلة. وقد خسروا كثيراً من الجنود أيضاً في المتمة والقلابات، وقوة دفاع السودان الآن على ثقة أنه بالغطاء الجوي وسلاح المدفعية يمكننا الآن مهاجمتهم بالرغم من تفوق عددهم.

قوة دفاع السودان والشرطة أبلت بلاءً حسناً ووليام بلات القائد كان رمزاً للقوة. ولم يكن لديه الطاقم الكافي من الضباط واضطر للتصرف على حسب إمكانيته الضعيفة لحراسة ألف ميل من الحدود ومع ذلك نجح وفوت الطليان فرصتهم من الجو والبر. لقد كان تصويب قذائفهم بائساً. لقد أغاروا على السودان حوالى ٦٥ مرة وكل إصاباتنا، وأغلبها مدنيين، كانت حوالى ١٨ قتيلاً و٧٠ جرحى.

شرق أفريقيا الطليانية بها مجاعة ومع خيبة أملهم قد يحاولون الهجوم من الشرق ومن ليبيا.

قائد سلاح طيراننا الكمودور سلاتر أيضاً شخصية فذة وكذلك العميد سكوبي نائب بلات ضابط عظيم ولطيف.

الجالية البريطانية، موظفون ورجال أعمال جارين دعم المجهود الحربي بكل الطرق. لقد ضحينا بحوالى ١٠٠ من موظفينا للجيش البريطاني وسلاح الطيران الملكي وقوة دفاع السودان - أغلبهم لقوة دفاع السودان؛ ولوظائف حربية أخرى (السنسرة والشفرة والتجارة تحت ظروف الحرب وخلافه) ليس لدي أرقام أكيدة ولكن جارين إعدادها الآن، حيث ليس لنا إمكانية للتخلي الآن عن أي موظف آخر. ومن الموظفين المتبقين في وظائفهم، نسبة كبيرة منهم تقريباً طوال الوقت يعملون من المجهود الحربي - الإعدادات، الاتصالات، الأشغال الحربية وخلافه.

الخدمة السياسية فقدت عدداً كبيراً من موظفيها. حوالى ٣٥ انضموا إلى الأسلحة المختلفة أو لأعمال حربية وسنجابه بضحايا المرض أو أسباب طبيعية أخرى عادية قبل أن تتمكن من تجنيد آخرين مرة أخرى. والفقد دائماً في مفتشي المراكز الذين تطلبهم قوة دفاع السودان وسلاح الطيران الملكي وقوة الشرق الأوسط، ولكني لن أتمكن من الاستغناء عن أي فرد آخر الآن. لقد وصلنا حد العظم وليس لنا أي احتياطي ولا بد لنا من المحافظة على نسيج الإدارة.

أما عن مشاركة السودانيين في الحرب فإن ولاءهم لا شك فيه. إنهم يكرهون الطليان وقد تجاوبوا بأكثر مما كان في الحسبان بالنسبة للتطوع والتبرع بالمال والقيام بالأعمال المساعدة مثل الاحتياطات ضد الغارات الجوية. قوة دفاع السودان تقريباً تضاعف عددها، وبعض المجندين تم ترفيعهم برئاسة بمباشية من قوة دفاع السودان ومن مفتشي المراكز الممنوحين براءات. زاد أفراد الشرطة بنسبة ٥٠في المئة والقوات المساعدة (مكونة من بريطانيين ومصريين وأغاريق وسودانيين والأخيرين هم الأغلبية) وصلت الى ١٧٠٠ فرد وقد تصل كحد نهائي الى ٢٠٠٠ فرد. أتوقع أن يصل عدد السودانيين الذين يحملون السلاح عندما يصلكم هذا الخطاب لما بين ١٥٠٠٠ و٢٠٠٠٠ جندي.

شركات أقطان الجزيرة وفّروا ٤٠ في المئة من مفتشيهم الى المجهود الحربي، والآن جارين إنتاج محصول كامل من القطن والحبوب بثلثي حجمهم العادي.

صناديق دعم الحرب المختلفة جمعت أكثر من ٣٠٠٠٠ جنيه مصري والتي تشمل تبرعات كثيرة من سودانيين من جميع أنحاء البلاد وتتمثل في تبرعات التجار السخية وملاليم السعاة.

الزعماء الدينيون ساهموا كل بطريقته المختلفة، فقد فندوا الاشاعات وتبرعوا بالمال وباركوا الجيوش ودعوا لهم في المساجد، كما أصدر المفتي فتوى يعفى فيها الجنود ومساعديهم والعمال من صوم رمضان.

احوال البلاد المالية جيدة وإذا ما تمكنا من شحن صادراتنا أو جزء منها عن طريق بورسودان سيكون وضعنا جيداً. لدينا ثلاثة منافذ مقدمة لنا كسبيل نهائي: (١) طريق النيل حلفا - القاهرة حيث هناك ثلاث شركات ترحيل نهري مصرية يستعملون بنطونات تدار بمكنات، و(٢) طريقي جوبا - ممباسا، واحد عن طريق بوتيابا يستعمل لصادرات الصمغ وواردات السمن والاخر ما زال تحت الدراسة عن طريق سروتي، و(٣) جوبا - ماتادي عبر الكونغو وهو الاغلى كلفة والأبطأ ولكن الأفضل من ناحية الشحن المباشر الى المملكة المتحدة.

عدد كبير من الجنرالات والكولونيلات سيصلونا قريباً من القاهرة وهناك خطط تدرس تبشر بهجوم. تحادثت طويلاً مع ويفل قبل أيام قليلة وأعجبت به. لقد كان يعمل تحت ظروف قاسية، ولكن الآن وصلته التعزيزات من الاسكندرية وبورسودان وأعطته حرية للتحرك.

لقد سهى علي أن أذكر أحد المواضيع - قد يكون هناك قلق من أقرباء الموظفين في انجلترا عندما يسمعون الـB.B.C تتحدث عن غارات برية وجوية على السودان. لا يمكننا أن نبرق كل مرة ترمي فيه طائرة بعض القنابل على بور سودان أو أتبرة ونقول إنه لم يصب أي بريطاني بأذى. ولكن يمكننا أن نطمئن من يسأل بأن أي إصابات سوف تبلغ فوراً إلى الاقربين وإفاداتهم أيضاً بأن تهديف الطيارين الطليانة سيئ للغاية.

❐❐❐

إلى ي. أ. ف. دي كاندول الخرطوم ١٨ سبتمبر ١٩٤٠

المندوب المقيم في الجنينة

لقد تحادثت مع العميد شيرر (مدير المخابرات العسكرية في الشرق الأوسط قبل أيام عن جنوب ليبيا. هو يطلب أن نمده بمعلومات عن الكفرة والعوينات بوجه السرعة. إذا تحصلت على أي معلومات من آدم او أي جهة أخرى فهي مطلوبة. خطابك والخريطة كانا مفيدين جداً، وبوجه العموم كل عملك الاتصالي واتصالاتك مع أبشي كانت قيمة وقد ساعدت كثيراً لتكوين وجهة نظر بالنسبة لشمال شرقي أفريقيا الاستوائية الفرنسية وحماية حدود السودان الغربية.

هل يمكن لنا أو للفرنسيين إرسال أحد الأعراب أو الفزارين الى الكفرة؟

لقد تبادلنا برقيات ودية مع لارمينات وأبويّ، كما أرسلنا للأخير صندوق شمبانيا جواً كهدية من دارفور.

الأخبار من سوريا وجيبوتي أفضل بعض الشيء وقد ينضمون الى ديغول قريباً. الجنرال كاترو والذي كان مؤخراً في الهند الصينية، يعتبر مكسب كبير إلى مجموعة ديغول على حسب أخبار رويتر اليوم، الآن هو في لندن.

لقد كتبت الى لورغسي في فورتلامي. وسنرسل اليوم إلى فورتلامي عدداً كبيراً من المجلات مثل البورصة المصرية وخلافه وقد ذكرت في أحد أعدادها وصفاً عظيماً عن انقلاب برازافيل.

❐❐❐

إلى يوان كا مبل الخرطوم ١٩ سبتمبر ١٩٤٠

قد تكون هناك غارة إيطالية على آروما أو خشم القربة في أي وقت. إنهم جارين حشد جيوش كبيرة خلف كسلا وداخلها. إذا حضروا فنحن مستعدون لهم.

وصلت التعزيزات وجارية الوصول وستستمر في الوصول. لقد قصفنا كسلا

بالقنابل والمدافع. وجارين تجنيد أكبر عدد من السودانيين على حسب إمكانيتنا في تدريبهم وتجهيزهم والاستفادة منهم. ولا زلنا نجند للجيش وللشرطة. قد نحتاج لبعض الشرطة من كردفان إلى أعالي النيل.

يمكنك تنوير مفتشي مراكزكم عن لب الخطاب الذي كتبته لك واسألهم إذا لديهم اي استفسارات. السياسة الحربية هي:

(أ) منع أي تغلغل آخر داخل السودان.

(ب) طرد الطليانة من السودان وإلحاق الهزيمة بهم في شرق أفريقيا بمجرد أن تسمح قوتنا وظروفنا.

(جـ) إشعال الثورة داخل شرق أفريقيا الإيطالية.

لا أدري متى سيتسنى لنا أن نحقق (ب)، أما (جـ) فقد بدأ ومستمر ونتائجه بدأت تظهر. الحكومة المركزية واثقة وتقريباً عملها كله منصب في المجهود الحربي. وفي قيادة بلات وسكوبي وسلاتر لدينا ضباط عسكريين في غاية التأهيل براً وجواً. وقد وصلونا ضباط بريطانيون ذوو خبرة، وقد وضعت البحرية الملكية قيادة في بورسودان. وهناك قائد فوج جديد في البلاد. والفرق الهندية في مواقع متقدمة وكذلك المدافع الجديدة. وباقي سلاح المدفعية السودانية جاري التدريب بصورة حسنة. جارين تعزيز استحكامات حلفا. يا ليتني أعطيكم معلومات أكثر ولكن لا يسمح لي.

❑❑❑

إلى والدته ٢١ سبتمبر ١٩٤٠

أشكرك على برقيتك. لقد سررت جداً على سلامتك بعد القصف الفظيع. رسالتيك بتاريخ ٧ و١٣ سبتمبر وصلتا معاً قبل أيام، وقد سعدت بهما جداً. لقد أعجبت جداً بقصيدة هربرت اسكويث «الشباب في السماء».

يا ترى هل كان القصف قريباً منكم؟ أرجو أن لا يكون الضوضاء قد حرمك من الساعات القليلة التي تنامينها.

علمت بأن راب بتلر وزير الدولة في الخارجية أبدى اشمئزازه الشديد في مجلس العموم بسبب قصف الطليان لمحطة التبشير في اعالي النيل. إنه من المدهش أن نرى الحقائق (وهي فعلاً حقيقة، أن أول من بلغها هو جاويش شرطة سوداني جنوبي وثني يدعى سامسون جمبو!) تصل إلى وزارة الخارجية البريطانية ثم تبث إلى أواسط غرب أمريكا. لقد كان عملاً فظيعاً. إحدى السيدات الضحايا كانت حبلى وعلى وشك الوضع. أما الأخرى التي أصيبت بجراح من جراء الشظايا فهي ما زالت هنا ولكنها وزوجها يتماثلان للشفاء. إن قتل الطبيب الوحيد للإرسالية كان مصيبة عظيمة.

سأغادر جواً إلى الأبيض غداً. يطلبون مني حضور اجتماع لمفتشي المراكز هناك ويحتاجون لتتوير مني عن أخبار الحرب حيث هم معزولون في غرب البلاد. لم أتمكن من الذهاب إليهم سابقاً لأن القطارات بطيئة للغاية ومرتين فقط في الأسبوع، ولكني وجدت طائرة حاملة جنوداً مضمونة مسافرة غداً فجراً وسوف أرجع نفس المساء بالقطار. سأسعد بلقاء يوان كامبل مرة أخرى وبقية الأصدقاء في الأبيض حتى ولو ليوم واحد، كما سأقابل بعض الناس من على القطار في طريق عودتي.



إلى والدته — الخرطوم ٢٧ سبتمبر ١٩٤٠

غداً سوف أتناول طعام العشاء مرة أخرى مع الأمبراطور في نزل القساوسة – مساعد المطران محتفل بالأمبراطور حيث الثلاثة أيام هذه هي عيد الصليب المقدس في أثيوبيا ويسمى «ماسكال». أنا اكن للأمبراطور احتراماً شديداً. أغلب المنفيين ينحرفون، ولكنه ما زال وقوراً ومعتدلا وكيِّساً، بالرغم من الإحباط وفقدانه لبلاطه. بعض أتباعه قد يكونون متوحشين، ولكن كذلك كان أتباع الملك الفرد والسكسون في المانيا. وعلى أي حال فهي بلدهم ولم يهددوا أي إنسان، ولكن موسوليني اشتهاها

وكان يرغب في لفت الأنظار، ولذلك فهو قصف بالقنابل والغاز المسيل للدموع الرجل الضعيف المسكين في داره التي كانت ذات تاريخ لا يقل عظمة عن تاريخ الرومان ومنذ عهد ملكة سبأ. أتمنى أن يسترجع بلاده وسنعمل جهدنا لمساعدته.

أمس حضرت حفلة تشريفية إستعرض لأول مرة فيها رجاله بالإضافة الى طقوس دينية مع قساوسته وضباطه. لقد كان عرضاً بائساً: لاجئون بؤساء وبعض الجنود والضباط، وكلهم زحفوا أمامه وقد هش لهم وقبل الصليب الذي كان يحمله المطران الأثيوبي. كنت أجلس بجانبه وكنت أسائل نفسي عما كان يدور بخلده عند رؤيته للقليل من أتباعه الأوفياء. كنا حوالي ثلاثين ممن حضروا - ممثلين لمجلس الحاكم العام وللجيش ولسلاح الطيران. وعندما كنا نغادر همس له «انا ممتن جداً لحضوركم جميعاً في يوم قائظ هذا العصر لمؤازرتي». قد يتمكن رجاله من عمل ما فعله رجال غاريبالدي بقمصانهم الممزقة. دكتاتوريات عديدة تم إسقاطها بمثل هؤلاء الرجال.

أنا أشعر بأسى أكثر نحو دوق أوستا - نائب الملك - من الأمبراطور. فالدوق رجل مثقف ووديع وإداري ممتاز، ويجد نفسه الآن مرتبطاً بالنظام النازي ويرى مستعمرته غارقة في الحروب داخلياً ومن خارج أسوارها.



إلى ي. أ. ف. دي كاندول — الخرطوم ٢ أكتوبر ١٩٤٠

الجنينة - دار مساليت

لقد أصبت بحزن عميق عند سماع خبر وفاة والدتك، لك تعازي القلبية. إنه من الصعب تحمل مثل هذا المصاب من مثل هذا البعد. يشعر المرء بالعجز الشديد. والدتي أنا ستكمل عامها الثمانين غداً، وقد بلغ بها الوهن وهي تعيش وحيدة ما عدا بعض الخدم ووصيفة اسكتلندية عجوز، أشك في أنها ستعيش لسنة أخرى وتصيبني

رجفة كل مرة أفتح فيها برقية. ولكنها متمسكة بالحياة وتتحلى بشجاعة عظيمة. لقد تعلمت منها الكثير وأدين لها أكثر من أي شخص آخر. الأمهات أناس مدهشات، وإنه من المروع أن تتعرض عواجيز النساء لمثل هذه الأهوال في الوقت المفترض فيه أن ينعموا بالدّعة والسكينة في أواخر أيامهن.

كيف حالك أنت؟ إذا كنت في حاجة لتغيير أرجو أن تخبرني. من الصعب منح عطلة كاملة مع إعارة العدد الكبير من موظفي الإدارة للمجهود الحربي، ولكننا حاولنا أن نرسل بعض الموظفين لفترات قصيرة لاركويت وحلفاء والأبيض والبعض من الاستوائية إلى كينيا. أنا أرغب جداً في زيارة الفاشر والجنينة - لم أزر الجنينة قط - لعدة أيام، وإذا الطليان اخفقوا في محاولة الغزو هذا الشهر قد أتمكن أن أصلكم جواً.

سعدنا جداً برؤيتكم لطائرات الهاريكان المقاتلة، أرجو أن تحصي لي عددها، حيث لا نراهم هنا، أملي أن يتوقف بعضهم في طريقهم إلى هنا قريباً.

داكار كانت نكسة. لا بد أن أحدهم قد تسبب في ذلك. هل سمعت بأي تفاصيل أو أي معلومات من شيروود سميث؟ هل يا ترى جماعتنا في كانو سيقومون بضربة أخرى على زندر؟

لا أدري إذا كان القائد سيرحل قوات المشاة المحمولين على الخيول من الجنينة. في رأيي لا يجب ترحيلهم قبل أن نسترد داكار.

أتمنى لك حظاً سعيداً يا ديكن، ولا تقلق كثيراً بالنسبة لوالدتك. أنا مقتنع تماماً بالآخرة وإننا سنلتقي مرة اخرى.

❒❒❒

إلى يوان كامبل - مدير كردفان الخرطوم ١١ أكتوبر ١٩٤٠

آمل أن يصل الحاكم العام الجديد خلال أسبوع. كردفان ستسر به. اسمه ما زال سراً ولكن مفترض أن يعلن عنه عند وصول هذا لك. ولكن إذا لم تسمع أي شيء

عند استلامك لهذا الخطاب، فلا تخبر أي أحد. هو هيوبرت هدلستون، والذي كنت دائماً أكن له الإعجاب والود.

هل شكرتك على ذلك اليوم الذي قضيته معكم في الأبيض؟ لقد إستمتعت به جداً. يا ليتها كانت عشرة أيام. الأبيض يألفها الإنسان. للأسف أنا ما زالت ملطخاً بهرج ومرج الخرطوم ودنيويتها، ولكن عند رؤيتي للفولة بضفافها الخضراء، وطيورها المائية وسحبها القطنية ومنزلك المحفوف بالهدوء والسكينة كانوا بلسماً شافياً لي. أنا متأكد من أننا سوف نزيل هذا البلاء النازي عن العالم.



إلى مديري المديريات الخرطوم ١٥ أكتوبر ١٩٤٠

الوضع العسكري، كما تعلمون، كان ساكناً بالنسبة للعمليات منذ خطابي الأخير. الحركة الجوية متزايدة من جانبنا ومتناقصة من جانبهم، كانت مستمرة. الغارات الجوية على السودان لتاريخه بلغت ٧٠ غارة، كان حصادها ٢٠ قتيلاً و٩٠ جريحاً، أغلبهم مدنيين سودانيين. أما غاراتهم على عدن فقد كانت ٣٢ منها فقط ١٦ وصلت إلى عدن وأيضاً منيت بالفشل.

المستعمرات الفرنسية والبلجيكية:

حركة فرنسا الحرة منيت بنكسة بلا شك من فشلها في عمليات داكار يوم ٢٣ سبتمبر نسبة للمقاومة الشرسة للمعارضة من الشواطئ والضباب. العلاقات مع أفريقيا الاستوائية الفرنسية ساءت. وكبار الضباط الموالين لديغول تم استبدالهم بتعيينات من حكومة فيشي والجنرال كورني الجديد في زندر يكنّ، العداء الشديد إلى بريطانيا وجاري حراسة الحدود مع نيجيريا. ولكن أفريقيا الاستوائية الفرنسية تستمر صامدة وقد ألقى الجنرال دي لارمينات خطاباً إذاعياً ضافياً وذكياً إلى جنود المستعمرات الفرنسية في داكار يوم ٢٨ سبتمبر.

وصل الجنرال ديغول إلى دوالا قبل حوالى إأسبوع. وحكومة الكميرون عقدت إتفاقية تجارية مع حكومة بريطانيا في ديسمبر، كما فعلت تشاد مع نيجيريا. ونتوقع وصول المسيو آدم مدير وداي على رأس وفد اقتصادي صغير من أبشي ليعقد اتفاقية مماثلة مع حكومة السودان.

موقف الكونغو البلجيكي يستمر مُرضياً - الحكومة البريطانية اعترفت بحكومة بيرلوت كالحكومة الشرعية لبلجيكا. وزراء المالية وشؤون المستعمرات والعدل الآن في لندن، وقد أكدوا التحالف مع بريطانيا، ما أكد ذلك حاكم عام الكونغو حيث عدد كبير من كبار الضباط والمدنيين يطالبون الآن بشن هجوم على الطليان. بعثة لورد هيلي الاقتصادية وصلت الكونغو في مطلع سبتمبر.

هناك الآن شبكة خطوط جوية لا بأس بها بين الساحل الغربي والكونغو وأفريقيا الاستوائية الفرنسية والسودان وكينيا ويوغندا بإتفاق بين الخطوط الجوية البريطانية وسابينا خطوط طيران بلجيكا.

مصر:

يوم ٢١ سبتمبر خرج أربعة من الوزراء السعديين من اجتماع لمجلس الوزراء المصري عندما رفض اقتراحهم الداعي لاعلان مصر للحرب ضد إيطاليا في الحال، وبعدما قدموا استقالاتهم. هم: محمود النقراشي وزير المالية، ومحمود غالب وزير المواصلات، وابراهيم عبدالهادي وزير التجارة، وعلي أيوب الوزير بدون أعباء. وقد كتبوا لرئيس الوزراء أن من مصلحة مصر أن تجابه أهوال الحرب من أن توصم بالجبن. هذا الموقف بالطبع يعكس شعور أغلبية السودانيين كما يبين ما كتبه أحد طلبة السنة الثانية في سبورة فصله بكلية غردون ساخراً.

«العار للمصري الغادر متواري في بيته

بينما سير أرشيبولد ويفيل يزحف على روما.

وقد رد عليهم رئيس الوزراء أن إعلان الحرب أمر خطير وليست هناك ضرورة ملحة لمثل هذا الاتجاه وسلامة الوطن هي الغاية العظمى. إلى الآن مع تقدم إيطاليا البطيء في الصحراء وباحتمال في حالة إعلان الحرب أن تقصف المدن الكبيرة، يمكن أن نجد مبرراً لعدم إتخاذ القرار والتردد، ولكن كلما تأخر إتخاذ القرار كلما أصبح اتخاذه صعباً. إذا ما تقدم الطليان إلى دفاعات مرسى مطروح قد يجبر المصريون لإتخاذ قرار. جريدة المصور في الواقع كتبت مقالاً بتاريخ ٢٧ سبتمبر تعلن فيه ان مصر لا تعلن الحرب على حسب نصيحة الجيش البريطاني. هذا طبعاً غير صحيح.

القوى العاملة:

جملة القوى العاملة من البريطانيين الذين يشاركون في المجهود الحربي في السودان عددهم ٢٢٠، وهذا العدد هو خمس عدد البريطانيين البالغين في السودان. وأغلب الأربعة أخماس الآخرين يعملون بشكل أو بآخر في المجهود الحربي. الحاكم العام أيّد وجهة نظر لجنة القوى العاملة التي تقول بأن قوة دفاع السودان ولو أنها في حاجة إلى ما بين ٤٠ و٥٠ ضابطاً إلا أنه ليست هناك إمكانية لتوفير هذا العدد إلا إذا:

(أ) نغامر بأمننا الداخلي الشيء الذي يعرض البلاد للخطر ويظهر عدم ولائنا للسودانيين.

(ب) أن نفترض ولا يحق لنا أن نفعل، بأن الحرب سوف تنتهي سريعاً.

هذا لا يعني أن مفتشي المراكز الذين لم يسرحوا من وظائفهم المدنية للمجهود الحربي هم الذين يناشدون بأن يساهموا في المجهود الحربي، سيكونون مشدودين على مقاعدهم طول الوقت. ستكون هناك فرص للبعض لأداء أعمال حربية أو مدنية متعلقة بالحرب محددة إما بالبدل أو النقل أو بوسائل أخرى، ولكن الحقيقة الظاهرة هي أن أولئك الذين لا تسنح لهم الفرصة للعمل الحربي فهم من خلال عملهم

المدني يعملون لكسب الحرب بتقوية الجبهة الداخلية، والإمدادات ورفع معنويات السودانيين أسوة بأولئك الذين يعملون في مجال الحرب.

أنا أتعاطف مع أولئك الموظفين (من أمثالي) الذين يطبعون على الآلة الكاتبة بدلاً من إطلاق الرشاشات، ولكن الحرب تفرض ظروفاً قاسية، ولن نتمكن من هزيمة الأعداء إلا بالمجهود المتضافر والمتواصل من المدنيين والعسكريين وعندما تخضع رغبات الفرد إلى توزيع المهام بواسطة المسؤولين.

السياسة المحلية:

المؤتمر، والذي في حالة تفكك مستمر، أصبح طائفياً مرة أخرى، بعد فترة كان متماسكاً فيها، وجاري نظم النشيد الوطني وشعارات وطنية أخرى. لقد ضيعوا قيمة برقيتهم الكريمة لوداع سير استيوارت سايمر بإدعائهم أنهم يمثلون الشعب السوداني في الوقت الذي لا يمثلون فيه حتى المتعلمين. سأتخذ إجراء مباشراً في هذا الشأن.

الحماس لمناصرة البريطانيين يظل قوياً والروح المعنوية العامة ما زالت جيدة وقد ارتفعت أكثر عند رؤية التعزيزات.

إذاعة أم درمان تسمع برامجها ودار الثقافة جارية في نشاطها بالرغم من الصعوبات من قطوعات كهربائية أو انشغال بأمور الحرب.

لا أدري إذا نظر أحدكم «المستمع العربي» التي تصدرها الـB.B.C كل أسبوعين وتكلف قرشاً. إنها مثل «المستمع الانجليزي» من ١٦ صفحة بإخراج جميل ورسومات. كلمة التحرير للعدد الأول أكدت أنها مجهود مشترك بين المتحدثين بالانجليزية والعربية وكان بها كلمات ترحيب من المستر شامبرلين والسفير المصري بلندن والوزير المفوض السعودي والقائم بأعمال السفارة العراقية، والرسومات قام بها رسام شاب مصري. وتحتوي على مقتطفات من صحف لندن عن الإسلام ومن كتّاب مثل الآنسة فريا ستارك ومن خطب مثل تلك التي ألقاها اللورد هاليفاكس

في أكسفورد، ومقالات عن الجغرافيا والمعمار العربي وقصص قصيرة وملخصات لمحادثات عربية وبرامج الـB.B.C. وقد وافقت الـB.B.C لأن ترسل لنا ٤٠٠ نسخة مجاناً من كل عدد للتوزيع للمدارس و٧٠ نسخة للأندية: هذا الترتيب تم منذ أسابيع. الأفراد يمكنهم طلب نسخهم من السودان بوك شوب. المشكلة هي أن الأعداد تصل بغير انتظام وبعد بث برامج الـB.B.C، ولكن المقالات والمواد جيدة.

هناك بدون شك موجة من التفاؤل في الجو. أنا لا أعلم ولن أتمكن من الإعلان حتى إذا علمت، متى سنهاجم نحن أم سيهاجم العدو. ولكن في كلتا الحالتين فنحن واثقون. إذا كنا المهاجمين أولاً فحسناً، وإذا بادر العدو بالهجوم فقد يكون ذلك أيضاً من مصلحتنا. هل تذكرون حديث كاسيوس مع بروتس في رواية يوليوس قيصر الفصل الرابع، المشهد الثالث:

«بروتس: ما رأيك أن تزحف إلى فيلبي في الحال؟

كاسيوس: لا أعتقد ذلك من الحكمة.

بروتس: ما هي أسبابك؟

كاسيوس: ها هي:
أفضل للعدو أن يزحف نحونا:
لأنه سيبدد قدراته، ويرهق جنوده
ويتكبد الأضرار، في الوقت الذي نبقى فيه في مكاننا ننعم بالراحة والحيوية».

الفصل الثامن

الحرب مع ايطاليا

١٩٤٠ - ١٩٤١م في حالة هجوم

إلى مديري المديريات ١١ نوفمبر ١٩٤٠

السير هيوبرت هدلستون - الحاكم العام الجديد - وصل جواً يوم ١٨ أكتوبر وقد قابله في شجرة غردون أعضاء مجلس الحاكم العام، وعدد آخر من كبار المسؤولين وحرس شرف بريطاني وسوداني. ومر موكبه عبر شارع القصر إلى السرايا حيث استقبله حرس شرف مصري. في العيد لم نقم الحفلة النهارية العادية بسبب الحرب، ولكن الحاكم العام طاف بالمدن الثلاث في عربة مكشوفة وقابل الأعيان وقد قابلته حشود كبيرة من السودانيين بالترحيب الحار. ثم قام بدعوة السيدين وبعض رجال الدين لحفلة شاي والآن هو جاري أول جولة تفتيشية له إلى أتبرة وسنكات وجبيت وبورتسودان.

طبعاً تكونون سمعتم من الـBBC عن وصول زوار مهمين في الأسبوع الأخير من أكتوبر من أمثال الجنرال سمتص وانتوني إيدن والذي كان يرافقه الجنرال ويفيل. وقد زار وزير الدولة للحربية امبراطور اثيوبيا السابق وسافر جواً إلى القضارف وبورتسودان ليتفقد الجنود. وقد تم بالطبع عقد مؤتمرات مهمة.

أيضاً زائراً مهماً آخر كان الجنرال كاتروكس والذي كان حاكم عام الهند الصينية - الفرنسية وقد مر متخفياً عبر الخرطوم ليقابل الجنرال ديغول في جهة فرنسية، وقد يكون هو أقدر شخصية تنضم إلى حركة فرنسا الحرة، لقد كان لطيفاً ومثيراً للاعجاب.

وقد كانت زيارته وما تزال سراً للمعلومية.

العمليات في منطقة القلابات والمتمة والتي بدأت يوم ٦ نوفمبر وما زالت مستمرة قد تم وصفها في نشرة المخابرات اليومية التي تصدرها رئاسة الأركان في السودان منذ ٢٦ اكتوبر. استردادنا للقلابات (والتي اعترفت بها إذاعة إيطاليا، كما اعترفت بفشل محاولتهم الأولى لصد هجومنا وكذلك لخسارتهم الجسيمة) لم يأخذ اكثر من ٧٥ دقيقة بخسارة ضئيلة من جانبنا ولكن بفقدان كتيبة كاملة للعدو، ولكننا تعرضنا لاصابات جسيمة في ما بعد، خصوصاً من القصف الجوي وخسارة بعض الطائرات المقاتلة وبعض الاضرار لدباباتنا مما أخر هجومنا على المتمة والذي كنا نأمل أن يتم مباشرة بعد استردادنا للقلابات. وقد انسحبنا من القلابات بعد أن دمرنا مخازن عتاد العدو والنفط وخلافه، ولكننا أعدنا احتلال المرتفعات فجر أمس. وقد قصفنا المتمة بالقنابل والقذائف ولم يبق شيء منها يذكر فوق الأرض.

العمليات في شمال كسلا وهي مستمرة للآن، كانت أيضاً ناجحة ونجم عنها أسرنا لعدد كبير من جنودهم.

لم تكن هناك غارات جوية أخرى مهمة في السودان، ولو أنه في بورتسودان أغار العدو يوم ٢٣ اكتوبر وقتل ٢٢ سودانياً وأصاب ١١ آخريين بجروح بالغة، وجميعهم كانوا في مقهى خشبي في منطقة الميناء.

المستعمرات الفرنسية والبلجيكية:

إن سياسة حكومة بريطانيا الآن هي دعم قوات فرنسا الحرة بالضغط اقتصادياً على المستعمرات التابعة لحكومة فيشي. أفريقيا الاستوائية الفرنسية ما زالت تقف بقوة مع ديغول وحاكم تشاد المسيو أبويّ أرسل رسالة ساخرة إلى مستعمرة النيجر يقول فيها: «بما أننا سلمنا داكار للألمان وتونس للطليان والهند الصينية لليابانيين فسنسلم بدون شك ساحل أفريقيا الغربي لليبريا في حالة أن ليبريا هددتنا». زارت الخرطوم بعثة

اقتصادية من تشاد برئاسة القائد آدم من أبشي الأسبوع الأخير من أكتوبر مصطحبين معهم دي كاندول ليؤمنوا الدعم المالي والاقتصادي الذي وعدته به حكومة بريطانيا إلى المستعمرات التابعة لحكومة فرنسا الحرة. وقد تم عقد اتفاقية تم بمقتضاها تحديد سعر الجنيه الاسترليني بـ١٧٦ فرنكاً (كان الفرنك الفرنسي قد انخفض إلى ٥٣٠ مقابل الاسترليني بعد انهيار فرنسا)؛ كما وعدت الاتفاقية، رهناً لموافقة حكومة بريطانيا لتحمل المسؤولية، قرضاً لحكومة تشاد بمبلغ ٧٥٠٠٠ استرليني لمساعدتها لتنظيم ديونها التجارية الحالية ولتمويل تجارتها الحالية. حكومة نيجيريا قد قامت بمثل تلك الاتفاقية وقامت بفتح خطاب ضمان بمبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه. تشاد عادة ميزانها التجاري مع نيجيريا موجب ومع السودان سالب.

وقد اذاع القائد آدم واليوزباشي تورو بياناً من اذاعة أم درمان واصفين فيه ما تم في زيارتهم.

إن استسلام مستعمرة الغابون التابعة لأفريقيا الاستوائية الفرنسية إلى الجنرال ديغول قد اكتمل الآن، والعاصمة ليبرفيل على ساحل الأطلنطي قد تم استسلامها فجر العاشر من نوفمبر بدون خسائر تذكر، عندما دخلت البارجتان التابعتان لحكومة فرنسا الحرة الميناء وهما «البارجة سافورقنان دي برازا (مسمية على اسم مؤسس برازافيل) والبارجة «كومندانت دودين». ليبرفيل تم انشاؤها في عام ١٨٤٩ وهي ميناء مهم. الغابون تصدر تقريباً ضعف ما تصدره مستعمرات أفريقيا الاستوائية الفرنسية الثلاث.

الأوضاع في غرب أفريقيا الاستوائية وخصوصاً في داكار ما زال كما هو والآراء منقسمة بين الاداريين القدامى الذين تهمهم معاشاتهم ومعهم السلطات البحرية وهؤلاء مع حكومة فيشي، بينما صغار الضباط وأغلب السنغاليين ونصف الأوروبيين مع ديغول. وتقريباً كلهم ضد الألمان ومن المشكوك فيه أن تكون المانيا قد أقامت أي محطة في داكار. الجنرال ويغان يبدو أنه زار داكار آخر اكتوبر، ويبدو جلياً أنه والجنرال نوقس (المندوب السامي في المغرب) إنهم ضد أي ضم لأي مستعمرة فرنسية إلى المانيا

أو إيطاليا، ولكنهم في ذات الوقت وإلى الآن يبدون أيضاً أنهم ضد حركة فرنسا الحرة. يبدو أن انفجاراً (مسلحاً) وشيك الحدوث بين حكومة فيشي وحركة فرنسا الحرة. بينما يتخذ الجنرال ويغان ونوقس وآخرون موقفاً وسطاً بينهما.

أما عن بقية المستعمرات الفرنسية الأخرى، فغينيا الفرنسية ما زالت تدين بالولاء لحكومة فيشي وقد أغلقت حدودها مع سيراليون، وكذلك ساحل العاج ولو أن بعض جنودهم عبروا الحدود للمناطق البريطانية. الاخبار من توغو وداهومي متضاربة، أغلب السكان مع ديغول ولكن الحكومة موقفها فاتر، وموقفهم الاقتصادي سيئ ويخشون اجتياحاً من نيجيريا. حاكم عام وقائد عام النيجر ضد البريطانيين بشدة ولكن هناك جيوب ومراكز حدودية مع ديغول. الغذاء والنفط شحيح للغاية. قد تكونوا سمعتم عن القلاقل في الهند الصينية التي نجمت بعد استقالة الجنرال كاتروكس، الذي خلف الأدميرال دكوكس. لا جديد لدي من جيبوتي، والأوضاع في سوريا في تردٍ واضطراب.

لقد أسهبت في الكتابة عن موقف فرنسا الحرة حيث أخبارها لا ترد في أي تقارير أخرى تصلكم وموقفها من الأهمية بمكان بالنسبة لجهة الشرق الأوسط.

عطاء السكك الحديدية للجهود الحربي كان ملحوظاً. فقد كانت الضغوط عليهم للخدمة العسكرية شديدة من الشهور القليلة الماضية لنقل التعزيزات من الشلال وبورسودان وجوبا بالإضافة لمهام أخرى. كل القاطرات والعربات استعملت لمقدرتها القصوى، وقد تم تحويل عشرات العربات إلى عربات مسطحة لأخذ العربات المصفحة، كما تم تجهيز قطار إسعاف ثانٍ والتوسع في خطوط السكك الحديدية، كما تم تحويل عربات نقل الابقار إلى عربات تحمل قواعد المدافع المضادة للطائرات، والتي تم تصنيعها في ورش السكك الحديدية (والتي أيضاً صنعت امشاط القنابل وأغطية أبراج العربات المصفحة). كما قاموا بحفر آبار الماء وصناعة كشافات للمدافع المضادة للطائرات وحتى وفروا الاكسيجين لطائرات السلاح الجوي الملكي التي تحلق على ارتفاع عالٍ.

المسائل الصحية:

أهم خبر كان هو التأكيد على أن الاصابات التي ظهرت في جبال النوبة هي مرض الحمى الصفراء. الوباء ظهر أولاً في جبال أوتورو في يونيو، وعدم المعلومات وسوء الاتصالات ومرض بعض المسؤولين كان السبب في عدم التحقيق. ولكن راتكن وكيرك وكامبل وشارلتون بالإضافة إلى أطباء سودانيين آخرين كانوا جارين التحقيق وقد تمكنوا من القطع بأن الأعراض هي فعلاً لداء الحمى الصفراء على حسب نتائج الكشف على الكبد. كان هناك على الأقل ألف حالة وفاة ولكن نسبة الوفيات بين المصابين كانت حوالى ١٠ في المئة على أسوأ الفروض وهي نسبة أقل بكثير من المعتاد حيث النسبة في الماضي كانت تتراوح بين ١٢ في المئة إلى ٨٠ في المئة، بينما بلغت في ريو دي جانيرو في البرازيل عام١٨٩٨ ٩٤،٥ في المئة. أول معلومات أكيدة عن وباء الحمى الصفراء أو «الجاك الأصفر» كما سماه البحارة، أتى من باربيدوس عام ١٦٤٧، ثم انتشر في موانئ جزر الهند الغربية، ثم وجد طريقه إلى اسبانيا في القرن الثامن عشر عندما لوث كل الموانئ (حيث البعوض الحامل للفيروس كان يسهل نقله بواسطة السفن الخشبية التجارية) وظهر في سواحل غرب أفريقيا عام ١٨٢٠ والتي قد تكون الجهة التي وصل منها الوباء.

الدكتور ماهافي مدير معهد أبحاث وباء الحمى الصفراء في يوغندا سيصل من ستانفيل للمساعدة في التحقيق. بعض الإصابات بُلِّغت لنا من الأبيض الآن وقد وضعت إجراءات مشددة لتطويق المنطقة التي ظهرت فيها الإصابات وانشئت الكرنتينات وأُغلقت كل المطارات في جبال النوبة والأخرى في طريق الغرب اعتبرت معدية. وقد طلبنا اللقاح من ثلاث جهات مختلفة وبعضه قد يصلنا بالطائرة من لاغوس. وبالرغم من مضايقات الإجراءات الوقائية وقفل المناطق فإن منع انتشار الوباء في غاية الأهمية ليس لهذا البلد فقط وانما لبلاد أخرى أيضاً. نحن الآن أصبحنا الطريق الجوي الاساسي بين اوروبا والشرق، والطائرات هي الوسيلة الوحيدة لنقل العدوى بسرعة عبر البحار والقارات. الهند إلى الآن لم تتعرض للوباء ويجب علينا

المحافظة لعدم تعرض الامبراطورية للوباء كما نعمل جاهدين الآن في بلادنا. لا داعي لإثارة الذعر، حيث الطقس الجاف عادة يقلل من عدد البعوض الناقل للعدوى وقد ينحسر الوباء، ولكن الخطورة بالغة وإذا أبدينا أي تراخي فقد يؤثر الوباء على مجريات الحرب. إن وباء الحمى الصفراء قد فتك بحوالي ٦٩ في المئة من الحامية البريطانية في جورج تاون بغينيا البريطانية حوالى ماية عام سابقاً ونحن لا نرغب أن يتكرر ذلك مرة أخرى.

قاضي القضاة:

قاضي القضاة الشيخ محمد نعمان الجارم الحائز على وسام «قائد الامبراطورية البريطانية»، غادر الخرطوم متقاعداً إلى رشيد في مصر يوم ٨ نوفمبر بعد ثماني سنوات خدمة في السودان. نشك في أن نجد مثيلاً له في مصر مرة أخرى. قضاة القضاة المسنين في اعتبار موظفي الخدمة السياسية في السودان انهم متشددون ومحدودو التفكير، ولكن الشيخ الجارم كان صورة طبق الاصل من «سير جون فالستاف» (شخصية شكسبيرية من مسرحية «الملك هنري الرابع» ومسرحية «زوجات وندسور المرحات» والذي كان يتمتع بسِمْنَة ضخمة ومقدرة عظيمة للضحك والإضحاك - المترجم). أعضاء مجلس الحاكم العام طالما عانوا من الجلوس بجانبه أثناء حفلات الشاي الرسمية الصباحية المملة. كما كان دائماً يمسك بيد القائد العام في تلك الحفلات. وقد جمع بين بساطة ومرح الفلاح وكلمة الشيخ الجليل.



إلى مديري المديريات الخرطوم ٦ ديسمبر ١٩٤٠

العمليات الحربية في جبهتنا الشرقية تتواصل منذ خطابي الأخير لكم في شكل غارات متواصلة من جانبنا ومناوشات شمال وجنوب كسلا وفي منطقة القلابات.

المتمة أصبح الدفاع عنها متعذراً وسلاح مدفعيتنا أصبحت تقصف بنجاح. أما جنوباً منها فيبدو أننا تمكنّا من قلب الأوضاع في المنطقة شرق وجنوب الروصيرص، وأصبحنا نغير عليهم بدلاً من العكس، كما جارين تعزيز مواقعنا المتقدمة في حدود مديرية أعالي النيل بقوات مشتركة من الجيش والشرطة أنشئت حديثاً. أما مساعدتنا للثوار في شمال غرب أثيوبيا فقد أصبحت تتخذ شكلاً مكثفاً وداخل أراضيهم ولن أتمكن من إعطائكم تفاصيل عنها.

نجاحات اليونانيين المتكررة غمرت الجالية اليونانية هنا بسعادة عظيمة. أخبار أخرى متفرقة عن الحرب:

١- وافقت السلطات العسكرية عن تخفيف بعض فترات التعتيم في الخرطوم. المبدأ المعمول به هو أن الأنوار التي يتحكم فيها محول رئيسي يمكن استثناؤه من القيود مع الإبقاء على القيود على أنوار السيارات ولمبات الكاز. وتعديل القوانين هذه ساعدت على إضاءة المنازل والحدائق وعلى تشغيل عرضين للسينما مع تمديد الرخصة لأماكن الترفيه.

٢- رفضت لجنة القوى العاملة تسريح ١٢ من موظفي الادارة وموظفي شركة أقطان الجزيرة.

٣- تم تشكيل وحدة جديدة من قوات دفاع السودان المساعدة، كما تم استنباط وحدة ضوء كاشف للطائرات في مطار الخرطوم، مكونة من بعض المكنات والكشافات التي اختلست من مصلحة الري المصري ومن مصلحة سكة الحديد ويقوم بإدارتها فريق مكوّن من بريطانيين وسوريين وأغاريق وسودانيين تحت إدارة المستر بيترسون (مدير شركة النور السودانية).

٤- لقد طلبت وزارة الخارجية من الحكومة الأميركية أن تعين قنصلاً في أديس أبابا ليقوم بأعباء الحماية لمسجوني الحرب بمقتضى الاتفاقية الدولية، حيث لا يوجد قنصل أو أي مندوب محايد هناك.

٥- الصليب الأحمر الأسترالي أهدانا ثلاث عربات إسعاف شفرليت كل منها قادرة على حمل اربع نقالات، كما وصلنا أيضاً جهاز تصوير XRay محمول من الصليب الأحمر للشرق الأوسط حيث ننتظر أيضاً استلام مواد أخرى.

٦- إن صناديق دعم الحرب المحلية في زيادة مضطردة.

حركة فرنسا الحرة وحكومة فيشي:

الحكومة البريطانية تستمر في السعي للوصول إلى تسوية موقتة مع الفرنسيين الذين في رأيهم «لا يمكننا التخلي عن المستعمرات التي أخذها ديغول، وادعاؤكم بأنكم تساعدونه باطل لأننا لم نسمح للألمان للاستيلاء على تلك المستعمرات». وقد ردت الحكومة البريطانية أنه من المهم عدم الصدامات بين القوات الفرنسية «الحرة» و«المقيدة» في أفريقيا، وبين الأسطولين الفرنسي والبريطاني.

محادثات هتلر - لافال سببت استياءً شديداً لدى الفرنسيين في الخارج (ما عدا لدى سلاح البحرية وسلاح الطيران الفرنسيين واللذين يبدو أنهما يكرهوننا أكثر من كراهيتهم للألمان). ولكن بيتان وويغان ما زالا شخصين محبوبين، وقد فقد ديغول بعض شعبيته بسبب هجومه عليهما. ويدّعيان أنه محاط بالجواسيس والخونة الذين يكشفون خططه. من ناحية أخرى فهو يملك أعواناً أشداء.

الرأي العام لدى الجيش الفرنسي في الخارج يبدو «نأمل أن تكسب إنجلترا ونعتقد الآن أن لديها فرصة متكافئة. (في يونيو حكومة فيشي كانت تعتقد بأن نسبة هزيمة إنجلترا تعادل ٩٩ في المئة). ولكننا جزء من مساعدي بتان ضد هتلر ولا يجب علينا أن نحرمه من أوراقه المهمة». وهذا هو موقف الكولونيل (X) في سوريا والذي سيقاوم أي محاولة بريطانية لغزو سوريا.

في فرنسا نفسها فإن شعبية ديغول تزداد يومياً، بسبب عبء الاحتلال الألماني. في باريس ولا فندي فالمقاومة على أشدها. وجيش الاحتلال الالماني والجيش الجديد

المعد لاجتياح بريطانيا يبدو أن روحهم المعنوية في تدهور.

أحداث حركة فرنسا الحرة في أفريقيا لا جديد فيها منذ خطابي الأخير لكم، ولكن أجريت اندماجات وإعادة تنظيم بواسطة ديغول خلال جولته التي دامت ثلاثة أشهر والتي شملت اتصالاً مع قيادتنا في غرب أفريقيا وزيارة إلى فورتلامي واجتماع مثمر مع جنرال كاتروكس وزيارة مجاملة إلى ليوبولدفيل أثارت حماساً بلجيكياً بالغاً. نحن متأكدون من أن أي تهديد إلى تشاد من داكار، على حسب الإشاعات التي تقول إن هناك تجمعاً لغواصات غريبة وطائرات من الدار البيضاء، ستقابل برد عنيف.

الجنرال لنتلهوم قد نصح الحكومة البريطانية لمضاعفة حصار جيبوتي وأصر على رجوع القنصل العام البريطاني. معنويات المدنيين هناك تدهورت كثيراً وأساليب الشرطة أدت لاختفاء حركة فرنسا الحرة تحت الأرض. محاولة حكومة فيشي لإقامة قاعدة جوية في مدغشقر تتعثر بسبب قلة الموارد والمواد. جزيرة ريونين أدعى لدعم حركة فرنسا الحرة من جزيرة مدغشقر.

سوريا تفادت لحسن حظها تعيين المسيو شياب ذراع لافال (نائب رئيس وزراء حكومة فيشي في فرنسا والمتعاون مع الألمان) للمخابرات والقمع، كمندوب سامي، عندما اعترضت طائرته معركة بحرية بين بريطانيا وإيطاليا جنوب ساردنيا وتحطمت وهي في طريقها لبيروت. إنها العناية الإلهية.

نشاط الجنرال ويغان وتحركاته في شمال أفريقيا ما تزال غامضة. خطاب الجنرال كاتروكس الرصين الذي أذيع الأسبوع الماضي بعد تعيينه مندوباً عاماً لحركة فرنسا الحرة للشرق الأوسط لم يجد صدى يذكر في سوريا ولكنه أثلج صدر الفرنسيين في مصر وأفريقيا، كما فعل خطاب ديغول المذاع من لندن في نفس الوقت والذي ذكر فيه أنه يملك الآن عشرين بارجة حربية و٣٥٠٠٠ جندي بسلاحهم (بالمناسبة أخبرني كولونيل بولندي حضر هنا في طريقه من لشبونة إلى القسطنطينية أن القوات البولندية في بريطانيا تعدادها ٢٦٠٠٠ وأن جيشاً كبيراً من البولنديين جاري إعداده في أفريقيا من الـ٩ ملايين بولندي المقيمين هناك).

الكونغو البلجيكي:

لم أذكر لكم أي شيء عن الكونغو البلجيكي في خطابي السابق. تم إنشاء محطة عسكرية بريطانية منذ مدة في ليوبولدفيل تحت إمرة الكولنيل ماكنزي الذي مر عن طريق الخرطوم يوم ٢١ أكتوبر وزودنا بمعلومات مفيدة. الحكومة البريطانية كان دائماً لها قنصل عام في ليوبولدفيل وجارية فتح قنصلية في كوسترمانسفيل يوم ١٥ ديسمبر.

خلال طوال أكتوبر ونوفمبر أصبحت العناصر الكونغولية التي تطالب بمشاركة فاعلة في الحرب أصبحوا يصرحون بذلك وقاموا بتكوين رابطة العمل الوطني من بين أهدافهم ابتعاث حملة للمشاركة في العمليات ضد شرق أفريقيا الإيطالي. وقد ألقى حاكم عام الكونغو خطاباً أكثر قوة يوم الهدنة وأعلن يوم ٢٦ نوفمبر أن بلجيكا الآن تعتبر نفسها في حالة حرب مع إيطاليا. وقد تم اعتقال كل الرعايا الطليان في ليوبولدفيل واليزابث فيل. الوفد الاقتصادي البريطاني كان يناقش مسودة الاتفاقية. ومنذ يوم ٢٠ نوفمبر تمت زيادة الرحلات الجوية بين ليوبولدفيل ولاغوس إلى ٤ رحلات أسبوعياً في الاتجاهين. أول خطاب بالبريد الجوي استلمته هذا الأسبوع من البعثة الاقتصادية (موقع من يدلر الذي كان سكرتير لجنة دي لاور، يتساءل فيه إذا كانت المصلحة الطبية في إمكانها مشترى خيوط أمعاء الضان وحيوانات أخرى تستعمل لخياطة العمليات الجراحية! ما زالت هناك قلاقل دينية شمال الكونغو.

يجب أن نتذكر بها أن شجاعة أفريقيا الاستوائية قد قوت شوكة الكونغو ولذلك فان شجاعة الكونغو سوف تؤثر على المستعمرات البرتغالية في الجنوب.

الشؤون الطبية:

وباء الحمى الصفراء، بعد أن تسبب في فقدان عظيم وآلام، لحسن الحظ تلاشى ولم ينتشر ونأمل أن يكون الآن قد انحصر في المنطقة الوسطى لشرق جبال النوبة.

في الأسبوع الأول من نوفمبر كانت هناك١٨٤١ اصابة و١٦٧ حالة وفاة منخفضة في الأسبوع الماضي إلى ٣٦ إصابة و٤ حالات وفاة. جملة الحوادث لنهاية نوفمبر كانت ١٥٥٥٦ إصابة و١٦٠٦ حالة وفاة. وقد قامت حملة مكثفة لتقصي المعلومات في كل مدن كردفان شرقا وغرباً، ولم تكتشف أي إصابات كما تم القضاء على إصابات البعوض، ولذلك رفع حظر التحركات في هذه المناطق مع استبقاء قفل منطقة جبال النوبة، ولكن المصل متوافر لتطعيم الجنود ورجال الشرطة وآخرين الذين يحتم عملهم أن يدخلوا ويخرجوا من المنطقة. وهناك ٢٥٠٠٠ جرعة تطعيم في طريقها من نيويورك عبر لشبونة وساحل غرب أفريقيا. كنا ننوي إبراق الحكومة الهندية لأن ترسل لنا اثني عشر قرداً من فصيلة الرصيرص جواً لنجري عليها الاختبارات، ولكن كانت هناك صعوبات وقد تمكنا من عمل اللازم بدونها. دكتور فندلي من منظمة ولكم للبحث في الأمراض الاستوائية في طريقه جواً لنا للمساعدة. وكروتش، مساعد مدير مصلحة الصحة في طريقه إلى نيروبي غداً للمشاركة في مؤتمر شرق أفريقيا عن الحمى الصفراء.

❐❐❐

إلى أ. ب. ب. هاول – عضو الامبراطورية البريطانية

مدير مكتب السودان في لندن ٢٠ يناير ١٩٤١

غادر الامبراطور اليوم إلى الحبشة جواً إلى الحدود ثم براً. أتمنى أن لا يصيبه مكروه. لقد أصبحت معجباً به. فهو رجل محترم، قصير القامة، وقد تحمل نفيه بصبر. ابناه الاثنان موجودان هنا وسيتبعانه لاحقاً. العميد ساندفورد كلّلت حملته بنجاح كبير ولدينا الآن عدد محترم من الجنود داخل منطقة قجام وأغلبها في أيدي الثوار الآن. لقد ذهبت للرصيرص الشهر الماضي للإشراف على التدابير لإرسال الأسلحة والمؤن. استرداد كسلا واحتلال تسني وسبدرات أخبار سارة وفي اعتقادي أن الطليان سينسحبون من المتمة والكرمك وقد يكون قد تم ذلك اليوم. وأخيراً – وبعد تأخير

يؤسف له - بدأ العمل في وضع الترتيبات لإدارة شؤون المناطق المحتلة. سمعت بأن الحكومة البريطانية قد عينت فيليب متشل كمساعد للجنرال ويفيل ليكون مستشاراً سياسياً أولاً لمناطق شرق أفريقيا الإيطالية المحتلة.

أبرقنا كندي - كوك (مدير كسلا) مفيداً أن روح السكان المعنوية والأحوال عموماً أفضل مما كان متوقعاً بعد ٦ أشهر من الاحتلال وذلك لحد كبير بفضل ولاء وثبات السيد محمد عثمان والسيد الحسن ابني أخ السيد علي الميرغني واللذين استمرا في تصريف الأمور وكانا يحولان بين تصادم الطليان مع الأهالي. كنا نخشى من الأمراض ومن آخذ الطليان لبعض الرهائن، ولكن الطليان لم يتعرضوا للسيدين ولم يأخذوا إلا واحداً أو اثنين من صغار الموظفين وبمباش متقاعد.

هناك كتيبة فرنسية من أفريقيا الاستوائية الفرنسية في طريقها إلينا، جزء منها بالبحر والجزء الآخر برّاً عن طريق الفاشر والأبيض. الجنود الكونغوليون سيصلون ايضاً إلى ملكال وبعض ضباط الاتصال البلجيك الآن معنا هنا. فرقة السلاح الملكي الآن على الحدود من جهة الكرمك والناصر، وقد قام مفتشو مراكز مديرية إعالي النيل مع الشرطة باحتلال هضبة البارو الأثيوبية المطلة على السودان.

التعزيزات الاميركية المتمثلة في طائرات متوقعة قريباً عن طريق ساحل غرب افريقيا وهناك عدداً مقدراً من طائرات الهاريكان البريطانية عبرت الخرطوم خلال الشهرين الماضيين من تاكورادي في طريقها إلى الجبهات الليبية والافريقية. نحن في حاجة لمزيد من الطائرات ولكن لدينا كميات ضخمة من المدافع وعدد كاف من الجنود على حسب امكانية قطاراتنا لحملهم. قوة دفاع السودان الآن قوامها عشرات الآلاف وقد أعددنا ٢٠٠٠٠ جمل لحمل المواد للمناطق التي لا تصلها القطارات أو الطرق المعبدة. أتمنى أن تتم ترقية وليام بلات إلى فريق قريباً. قيادته الآن تمثل فيلقاً كاملاً وتحته لواءان.

هناك عجز مريب في رتبة الضباط الشيء الذي لا أفهمه، لأن لا القيادة العليا هنا أو في الشرق الأوسط يستطيعون تفسيره. هل الكليات الحربية في إنجلترا لا تخرج

أعداداً كافية؟ مشاكل اللغة مقدور حلها. السودان قد استنزف خصوصاً بالنسبة للخدمة السياسية ومفتشي شركة أقطان السودان، لتوفير ضباط، ولكن الآن قد نضب معيننا، حيث لا بد لنا من المحافظة على شكل من الحكومة والخدمات الأساسية هنا. لقد أخبرت أن أعداداً كبيرة من الضباط قد أرسلوا إلى كينيا وساحل الذهب من المملكة المتحدة في نوفمبر، ولكن لم يأتِ لنا إلا النذر اليسير. بعض الناس يعتقدون أن مجرد طلبهم من حكومة السودان سيوفر لهم ضباطاً. إنه لمن حسن الحظ أن إصابات ضباطنا كانت قليلة جداً.

رغم الحرب فلم نسمح لإدارتنا المدنية أن تتدنى. لقد أجرينا اصلاحات بالنسبة لمدرسة المامير ومدرسة الشرطة وزدنا من أعدادهم، والحكم الأهلي مستمر بتكوين اتحادات قيادية وميزانيات جديدة للحكم الأهلي، المدارس فوق الثانوية تسير على حسب نهج مقترحات دي لاوور، كما تم إنشاء مدارس بنات أخرى، كما وضع برنامج لتطوير الاقتصاد الاستوائي، كما ساعد البحث عن مواد خصوصاً الخشب والوقود لتشجيع الصناعات السودانية، كما نجري إصلاحات معينة بالنسبة للشرطة، أما دار الثقافة فهي في نمو مضطرد.

❐❐❐

إلى مديري المديريات الخرطوم ٥ فبراير ١٩٤١

«الهم يستغرق ليلة ولكن الفرج يأتي في الصباح». منذ خطابي الأخير لقد رأينا الأمور تنقلب على ليبيا وألبانيا وأفضل من ذلك على حدودنا نحن. فالنصر المتوالي قد عوض عن فترة الضجر والانتظار والقلق.

إن طرد القوات الإيطالية من مصر في خلال أسبوع واحد (٩ - ١٦ شهراً) وما تبعه من سقوط بارديا يوم ٥ يناير وطبرق يوم ٢٢ يناير نتج عنه أسر ١٠٠٠٠٠ جندي والاستحواذ على مئات المدافع والدبابات واللواري وخلافه والقضاء على ثلاثة فيالق ايطالية (ثلثا قوة الجنرال غرازياني). أغلب الأسرى كانوا إيطاليين. كانت خسائرنا في

سيدي براني أقل من ١٠٠ وفي بارديا أقل من ٦٠٠. نحن نسيطر الآن على درنة وقرني ونتطلع لأخذ بنغازي.

الاجتياح الاغريقي على ألبانيا توقف بعد أن استولوا على كليسورا، ولكن ما زالت المبادرة عند الاغريق بالرغم من التعزيزات الضخمة من إيطاليا. اليونان أسرت أعداداً كبيرة من الرجال وغنمت الكثير من المدافع والمواد وما زالت مستمرة، كما يتوقع أن يستولوا على تبلين في أي لحظة.

على جبهة السودان فاسترداد كسلا واحتلال مثلث كسلا - تسني - سبدرات يوم ١٩ يناير أدخل السرور على البلاد، خصوصاً بعدما تبع ذلك طرد الأعداء من خطوط دفاعهم في كيرو - إيكوتا بعد ذلك بأيام، والاستيلاء على بسيشا يوم ٢٤ يناير وأقوردات يوم ١ فبراير وبارنتو يوم ٢ فبراير. وما زلنا جارين في مطاردة العدو إلى المرتفعات وهم منسحبون، ولكن قواتنا الآن في مناطق جبلية وعرة، وصعوبة المواصلات والمؤن أصبحت حادة خصوصاً أن مقدمة جيوشنا الآن على بعد ١٨٠ ميلاً من كسلا بعد فقط أسبوعين من بداية العمليات. ما زالت التقارير عن هذه العمليات السريعة لم تكتب بعد، وكل ما نتلقاه الآن هو رؤوس مواضيع أشبه بعناوين فصول رواية مالوري «موت أرثر»:

«عن اليوم الرابع والملاحم الحربية العظيمة»

«عن اليوم السادس وما تم فيه»

وأفضل من ذلك:

«المزيد من نفس المعركة».

نحن الآن على بعد بضعة أميال من كرن، ولكننا نعاني من نقص حاد في العربات ومن وعورة المنطقة ونقص الإمدادات وتأخرها. كرن هي مفتاح أسمرا التي ترتفع ٧٧٦٥ قدماً فوق سطح البحر.

ليس لدي رقم أكيد عن عدد الأسرى ولكن لا بد أن يكون حوالى ٤٠٠٠ أسير

لتاريخه بمن فيهم حتماً جنرال (يوقو فنقولي)، وقد غنمنا أيضاً عدداً كبيراً من المواقع والعربات. ولو أن خسائرنا كانت طفيفة للغاية إنما كأن زحفنا لم يكن سهلاً. لقد حارب جنودنا بالسمكي كما شن العدو غارة بالخيالة على مواقعنا استبسلوا فيها. إن دباباتنا الجديدة أنقذتنا من خسائر كبيرة.

والأمور تسير حسناً في جبهات أخرى أيضاً. بدأ العدو في الانسحاب من المتمة يوم ٣١ يناير. وقد استولينا على ممر قندوا المهم (أسفل نهر أتبرة) والآن نواجه واهني على طريق قندار. الانسحاب من القبة حوالى يوم ٥ يناير أفسح لنا الطريق إلى قوجام، والذي كان مواربا في الماضي. وصل الامبراطور الآن إلى بلده بعد أن سافر جواً للحدود في منتصف يناير. وبعد أن قضى عدة أشهر في الخرطوم متحلياً بالصبر ودماثة الأخلاق. الأحباش المقززين كما يحلو للـB.B.C أن تنعتهم، تحفزوا تماماً من نشاطنا العسكري (الذي أثمر بعد ٦ شهور من العمل الشجاع داخل أثيوبيا) بواسطة منشورات ستير وبزيادة الذخيرة والأسلحة. أتمنى أن يكونوا على درجة من الإيمان بالخرافات ليزيد تحفيزهم بظهور الكوكب الجديد هذا الأسبوع (قد يكون كوكب هوبل - لا أدري من هو هوبل) كما حفز كوكب هالي قبائل جبال النوبة للتمرد مما دعانا لإرسال خمس دوريات عام ١٩١٠ بدلاً من الدورية الواحدة كل عام.

لقد زرت الروصيرص وما بعدها في مطلع العام الجديد وقد كان منظر الحركة الدؤوبة للجيوش وقوافل الجمال التي لا تنتهي مختلفاً جداً عن السابق عندما كان هناك تخوف من الغزو وليس لدينا خلاف عدد قليل من الشرطة للحماية قبل شهور قليلة مضت.

وجنوباً كذلك، فإن الكرمك الآن في قبضة السلاح الملكي، أما هضبة البارو فقد توغلت فيها شرطتنا الحربية بقيادة رني ولزلي (مفتشي مراكز) متقدمين إلى أعالي نهري السوباط والقيلا بينما يتراجع العدو إلى قمبيلا. يوم ٢٥ يناير قمنا بمهاجمة أريبو شمال بوما بينما القوات الكينية تتوغل شمالاً إلى منطقة بحيرة رودولف.

في أقصى الشمال فقد بدأت حركاتنا في كارورا حوالى ٢٣ يناير. وقد تراجع العدو الآن من هناك ومن الفيتا إلى نكفا، مما يعني، وبالانسحابات الأخرى، جلاء حوالى ١٥٠٠٠ ميل مربع من أرتريا.

سعدنا أثناء هذه النجاحات بخبر ترقية القائد إلى فريق (وهو الآن يقود أكثر من فيلق) كما وجد الجنرال ويفيل الزمن بزيارة الخرطوم أكثر من مرة وكذلك الجبهة الأرترية. وقد كان ضمن خطابه الذي أذيع أول العام للجنود (الغازيتة المصرية تاريخ ٢ يناير): جزء سار لنا عندما قال:

«انا أرغب أن أزجي إعجابي عن الكتائب الصغيرة في حدود مصر والسودان وشرق أفريقيا التي لم تفزع ولم تعبأ بتفوق العدو العددي ولكنها هاجمت متى ما سنحت لها الفرصة. إن اندفاعهم العنيف ومقدرتهم ومهارتهم هي التي مهدت الطريق للمكاسب التي تحققت في ما بعد».

إن القوات التي تحت إمرة الفريق بلات الآن تشمل بريطانيين وسودانيين ومصريين وهنوداً وجنوب أفريقيين وأثيوبيين وجنود فرنسا الأحرار وسنغاليين ومغاربة وكونغوليين والسلاح الملكي، وقبارصة ويهوداً وفلسطينيين عرباً وكذلك استراليين بقبعاتهم المترهلة يمكن رؤيتهم في شوارع الخرطوم.

النجاح الوحيد الذي حققه الطليان كانت قنبلة أصابت قطار جنوب درديب يوم ١٩ تسببت في قتل ضابط بريطاني وقتلت وجرحت حوالى ٤٠ من الجنود الهنود. قامت فرقة استكشافية صغيرة بريطانية فرنسية باستكشاف واحة مرقا غرب دنقلا بواسطة قاي مور مع ٢١ كشافة عرب وكابتن باريتو قائد فرقة انبيري الرحل مع ١٨ كشاف، الغرض منها لتمتين الاتفاقية الثنائية، ولطمأنة القبائل على الحدود الفرنسية ولمعرفة إذا كان الطليان لهم وجود في جنوب العوينات. البعثة وجدت منطقة المرقه غير مأهولة ولكنهم جمعوا معلومات قيمة عن المنطقة غير المعروفة ووجدوا منخفضاً مائيا جديداً.

صناديق دعم الحرب:

في يوم ٢٩ يناير أبرق الحاكم العام السفير البريطاني في القاهرة يعلن عن هدية ثانية من حكومة السودان إلى حكومة بريطانيا مقدارها ١٠٠٠٠٠ جنيه مصري (هذه المرة لوزير الحربية) «بمناسبة استرداد كسلا وطرد العدو من مناطق السودان واعترافاً بالخدمات التي قدمتها الجيوش البريطانية وجيوش الامبراطورية بالتعاون الكامل مع قوة دفاع السودان».

وقد رد وزير الحربية يوم ٣٠ يناير قائلاً إنه يبعث لحكومة السودان تشكراته الحارة للهدية القيمة جداً وأن الجنود البريطانيين وجنود الامبراطورية كانوا فخورين بمساهمتهم مع زملائهم في قوة دفاع السودان الشجعان.

صندوق دعم الطيران الآن تعدى الـ٣٥٠٠٠ جنيه مصري وبالنسبة للقائمة الطويلة بالنسبة للتبرعات الشهرية نتوقع أن يصل إلى ٥٠٠٠٠ جنيه مصري. وقد شملت القائمة التي نشرت أخيراً متبرعين مختلفين بينهم، على سبيل المثال، شركة باتا في بورتسودان والرئيس ماين وينخ (ثور) وموظفو الشريعة في مروي ومجموعة الخرطوم المسرحية، وسلطان دارمساليت وموظفو منجم الذهب بجبيت.

أما صندوق دعم إغاثة الحرب فبلغ ١٠٠٩٤ جنيهاً مصرياً أرسلت منها ١٠٠٠ جنيه مصري إلى كندي - كوكو فوراً عند اعادة احتلال كسلا كدفعة أولية لتخفيف الأعباء.

أما صندوق الحرب الإغريقي فبلغ حوالى ٦٥٠٠٠ جنيه مصري، كما بلغ صندوق الكريسماس للمستشفيات الحربية مبلغ ٣٠٠ جنيه مصري وكذلك ٢٥٠ كيكة لتوزيعها كهدايا للمرضى والجرحى من الجنود.

حركة فرنسا الحرة وحكومة فيشي:

مزيداً من جنود فرنسا الحرة (فرنسيين وسنغاليين) قد وصلوا وما زالوا يصلون. ابن الجنرال كاتروكس هو ملازم أول في الجيش العثماني وقد كان هنا منذ مدة.

المعنويات في شرق أفريقيا الفرنسية وفي الكمرون ما زالت عالية ما عدا بعض المناطق في الغابون حيث هي تابعة لحكومة فيشي ولكنها في تدهور.

هناك ما يؤكد بأنه يوجد تجاوب إيجابي مع البريطانيين في غرب أفريقيا الفرنسية، حتى في داكار، أقوى مما كنا نظن. كل الأنظار الآن تتجه إلى الجنرال ويغاند، الذي أحد شعاراته: «انجلترا بكل عيوبها، ما زلت أحبها». تمت اجتماعات مهمة بين حركة فرنسا الحرة وحكومة فيشي على الحدود. حكومة الفيشي تجتهد لتنشيط التجارة مع غرب أفريقيا. الكمرون (تابعة لحركة فرنسا الحرة) قدمت مبلغ ١٠٠٠٠ جنيه مصري لشراء طائرتين حربيتين. توغو وداهومي (تابعة لحكومة فيشي) ولاؤهم مشكوك فيه ويخشون من غزو بريطاني. ساحل العاج يبدو أنها تميل أكثر لنا. السنغال لها نيات سرية لمؤازرتنا. غينيا الفرنسية تتأرجح بوجه العموم، فيبدو أن المكاسب الليبية والألبانية قد أوجدت تغييراً حتى في الحكام الذين وصفتهم حركة فرنسا الحرة كمتشنجين جداً.

وصل زائر مهم منذ فترة وجيزة (ليتسلم زمام منصبه كرئيس لبعثة حركة فرنسا الحرة هنا) هو الكمندان ريني جنين والذي كان حديثاً عضواً في قيادة أركان حكومة فيشي. وقد هرب من فرنسا المحتلة لفرنسا غير المحتلة بواسطة ضباط كبار، ثم ذهب إلى شمال أفريقيا ثم إلى قاو حيث أبحر بزورق عبر نهر النيجر ووصل إلى المناطق البريطانية. لم يخفي أبداً وقوفه مع ديغول ووجد أغلب صغار الضباط متعاطفين معه، أما كبار السن فكانوا أكثر ولاء لبيتان وليسوا معادين للبريطانيين. أيضاً زائر آخر وصل حديثاً هو القنصل العام الفرنسي في بوخارست الذي غادر رومانيا لينضم إلى الجنرال لاريمانت في أفريقيا الاستوائية الفرنسية. آخرون من الذين انحازوا إلى ديغول هم القائم بأعمال السفارة الفرنسية في أفغانستان وموظف سابق في البعثة الديبلوماسية في بغداد.

١٦ من الـ٥٤ بحاراً في الغواصة «بونسليت» التابعة لحكومة فيشي التي تم إغراقها انضموا إلى ديغول.

قد تكونون قرأتم في نشرة رويترز أو في الغازيتة المصرية عن الغارة التي تمت حديثاً على «مرزوق» في جنوب غرب ليبيا بالقرب من الحدود الجزائرية. لقد كانت عملية مهمة وذكية قامت بها إحدى وحدات بانقول لسلاح خفر الصحراء للمسافات البعيدة (والتي كان بل شو - الذي كان موظفاً بمصلحة الغابات في السودان - ضابطاً للمخابرات). لقد تمكنوا من قصف القلعة والمطار ودمروا الطائرات ومستودعات الوقود. وقد أرسل سلاح الهجانة الفرنسي بعض المندوبين في عربات ولكن للأسف قتل الكولونيل كلونا دي أورناتو. وقد ألقى الجنرال كاتروكس خطاباً مؤثراً أُذيع من القاهرة يوم ٢٨ يناير عدّد فيه ضحايا فرنسا الحرة في البحر والبر والجو وواصفاً العمليات التي قاموا بها.

الكونغو البلجيكي:

غادر اللورد هيلي الكونغو إلى إنجلترا بعد إكمال الاتفاقية الاقتصادية مع المسيو رايكمانز، والتي تشتمل على قروض من الحكومة البريطانية، ومشتريات نحاس وقطن وفول سوداني وزيت نخيل وذرة شامية وصفيح. أنشأت حكومة جنوب أفريقيا قنصلية في اليزابثفيل. وزير المستعمرات البلجيكي المسيو فليشتاور وصل إلى الكونغو من لندن أوائل ديسمبر وقام بطواف على جنوب الكونغو وزار برتوريا ونايروبي. وبما أن بلجيكا الآن في حالة حرب مع إيطاليا فقد وضعت الخطط لإرسال جنود كونغوليين إلى الجبهات الأفريقية وبعض الوحدات بدأت تصل جنوب السودان.

الكولونيل مكنزي والملازم هوڤيردنت التابعين للبعثة العسكرية البريطانية الآن في الخرطوم، كما وصلت بعثة عسكرية بلجيكية إلى الخرطوم يوم ٢١ ديسمبر، كما وصلت بعثة غير رسمية قوامها ٧ ضباط من (واتسا؟) وقامت بزيارة جوبا يوم ١٧ ديسمبر. برزت مشكلة للأسف في نوفمبر عندما أرسل قائد حامية ستانليفيل المتهور إنذاراً إلى حاكمه العام مطالباً فيه لرفع سقف المشاركة في الحرب، وبعد مناقشات

أُخبر بأنه استعجل الأمور وكشف عن ميعاد تسريع العمليات وعليه قد أُعفي من قيادته. أما عمليات ليوبولدفيل فقد أرضت غرور الوطنيين.

تم استعراض للجنود الكونغوليين المعدين للذهاب للسودان من فارديجي وحضره المستر بيير مفتش مركز ياي والذي قام بمجهود مقدر من الاتصالات. سيزور الجنرال جياليرت نائب قائد عموم جيوش الكونغو الخرطوم هذا الأسبوع. الاتصالات الجوية واللاسلكية بين ليوبولدفيل والعالم الخارجي تحسنت كثيراً في أواخر عام ١٩٤٠.

مصر:

لديكم معلومات كاملة عن سياسة وأحوال مصر ولذلك لن أكررها هنا. عدد كبير من المصريين في حالة غضب لعدم مشاركة جيوشهم في نصر معركة سيدي براني، ولم يخفَ على السودانيين عدم مشاركة مصر لصد العدوان في مصر والسودان. هناك فضيحتان تشغلان الرأي العام في مصر الآن، إحداهما قضية احتيال جنائية خاصة بعقد خوذات حديدية؛ والأخرى تقرير يقول بأن نسخة من خطط دفاع سرية والتي أُعطيت لأحد الباشوات، وجدت مترجمة للطلياني في حقائب الجنرال مالتي في سيدي براني. وبالرغم من رقابة المطبوعات فقد تمكنت صحيفة آخر ساعة من نشر خبر مقتضب.

إن وفاة محمد محمود باشا يوم ٣١ يناير عن عمر يناهز الـ٦٤ عاماً يعني فقدان رجل دولة محنك. لقد تولى رئاسة الوزراء أربع مرات وبالرغم من أنه وطني غيور إلاّ أن علاقته بالبريطانيين كانت جيدة منذ أيام دراسته في أكسفورد.

إبراهيم عامر باشا الذي ولد في بربر عام ١٨٨٠ وتاجر مشهور في أمدرمان إلى عام ١٩١٨ حين ترك السودان لمصر، توفي يوم ٢٩ ديسمبر. لقد كان أول أكبر متبرع لصندوق الإغاثة لحرب السودان.

الشؤون المحلية:

روح السودانيين المعنوية عالية، ولكن بزوال الخطر الوشيك من حدودنا لا بد لنا أن نتوقع أن يلتفت السودانيون الآن لشؤونهم الخاصة وسيغلبون مصالحهم الخاصة على الصالح العام.

الطوابع:

من بين مشاكل الحرب الكثيرة برزت لنا أزمة طوابع. حكومة السودان تمدها بالطوابع شركة دي لا رو في لندن. لم تصلنا أي طوابع منذ مايو ١٩٤٠. علمنا أن مصانع دي لا رو قد تم ضربها بالقنابل مرتين ودمرت مخزوناتها وأيضاً الكليشيهات. ولزيادة المشاكل فإن سفينة كانت تحمل طوابع للسودان فقدت في أعلى البحار. المستر هبرت، مدير البريد والبرق عمل كل ما في وسعه:

١) تعاقد مع مطبعة في بومباي لطباعة مجموعة من الطوابع من فئة ٤ قروش و٣ قروش و١٥ مليم مؤقتاً.

٢) إعادة طباعة الطوابع من فئة الـ٨ قروش إلى ٤,٥ قرش، والطابعة من فئة الـ٥ مليم إلى ٤,٥ قرش. الإجراء الأخير سياسة سيئة (تغيير قيمة الطوابع من سعر أدنى إلى سعر أعلى) ولكن لم يكن لدينا خيار. هبرت أيضاً مُطالب من إدارة مناطق العدو المحتلة لمدهم بطوابع إلى ارتريا وآثيوبيا، ولأن نحن جارين دراسة تغيير طوابعنا لهم (إلاّ إذا تحصلنا على استوكات كبيرة).

إن وفاة اللورد لويد حرمت السودان من صديق مخلص. لقد حضر من القاهرة ليفتتح خزان سنار قبل خمسة عشر عاماً وقال في خطبته «العلاقات بين الحكومة والمواطنين في السودان كانت دائماً علاقات ود شخصي»، وفي كتابه «مصر بعد كرومر» كتب «إن القدرة الإلهية الغامضة تتعطف على عدد قليل من الإداريين خارج بلادهم بمنحهم فرصة رؤية ثمار ما زرعوه».

إن الولاء والدعم (معنوياً وبالرجال والأموال وبالعمل) الذي قدمه السودانيون كبارهم وصغارهم، غنيهم وفقيرهم، حضريهم وريفيهم، عربيهم وأفريقيهم في هذه الحرب، والتي ليست من صنع أيديهم، قد أعطتنا لأول مرة نظرة لثمرة جهود إدارة السودان.

❑❑❑

إلى مكي عباس الخرطوم ٧ فبراير ١٩٤١

كلية تعليم المدرسين - بخت الرضا

أشكرك على خطابك بتاريخ ١٩ يناير والمقالة التي قدمتها إلى الآنسة برهام. لقد أعجبتني جداً وأعتقد أنها تظهر مقدرتك الكبيرة للاستيعاب والاستدلال. الفارق بين أساليب الفرنسيين والبريطانيين موضوع دائماً مثير للمتعة وسيكون من الممتع معرفة إذا ما ستحاول حكومة فيشي، بعد أن نبذت شعار الثورة، «الحرية، المساواة، الأخوة»، أن تعيد صياغة سياسة فرنسا الاستعمارية.

سيسرني جداً أن أطلع على الجزء الثاني من مقالتك، لأني حريص على جمع ودراسة آراء السودانيين عن الإدارة الاستعمارية عموماً والحكم المحلي السوداني (الإدارة الأهلية) تحديداً. أرجو أن ترسلها لي.

وبالمقابل أنا مرسل لك بعض أوراقي الخاصة:

١) محاضرتي التي ألقيتها في دار الثقافة عن وجه الثقافة الإنساني.

٢) خطابي بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٣٨ (نشرة لموظفي مديرية كردفان).

٣) مقتبسات من خطبة ألقيتها على حوالى ١٥٠ من الأفندية والتجار في الأبيض عام ١٩٣٨. لقد كتبتها بالعربي ولا أعتقد أغلبها أستُوعب حيث لغتي العربية ليست كما يجب أن تكون.

٤) مذكرة عن العلاقة بين العناصر المتعلمة ورجال القبائل.

٥) نسختان من محاضرتين ألقيتهما على طلبة المدارس العليا عن الحكم المحلي. الأولى كانت عن نظام الحكم المحلي البريطاني وبالطبع كانت مبسطة جداً وقد تكون أجزاء منها غير صحيحة، لأني لست خبيراً بالنسبة للحكم المحلي في إنجلترا. ولذلك لا داعي أن تقرأها كاملة، ولكني أرحب بنقدك لها. أما الثانية فكانت محاولة مني للرد على هجوم المتعلمين على الحكم الأهلي، ولم يكن الغرض منها دحض الهجوم، لأن بعض النقد كان مبرراً، ولكن لتوضيح أننا كنا مدركين للمخاطر التي تجابه الإدارة الأهلية وكنا نحاول أن نستبق تلك المخاطر والعمل على تفاديها.

السير ستيوارت سايمز - الحاكم العام - كان يرغب في نشر تلك المحاضرتين وأنا راغب في طباعتهما بالرونيو أو في كتيب لمدرسة الإدارة، ولكن أجزاء منها لا زالت تحتاج لتنقيح قبل طباعتها. هنا أيضاً أرجو أن تمدني بملاحظاتك عنهما.

مشاغل الحرب منعتني من الكتابة لك سابقاً، ولكني أوكد لك أن موضوع الحكم المحلي في بالي طول الوقت وأن مكتبي لا يهمله، بالرغم من الحرب، في الريف وفي الحضر.

نحن جارين الآن تقسيم ميزانية الخرطوم على الثلاثة مدن حتى نحقق تفويضاً أكثر للمحليات والوحدات الصغيرة. وقد تمكنا من خلق تحالفات قبلية تمشياً مع سياستنا الإقليمية، كما نمضي قدماً في سياستنا لتعليم أبناء وأقرباء شيوخ القبائل والأعيان.

اليوم أقوم بجولة لمدة أسبوع لمناطق ارتريا المحتلة. أرجو إفادتي عن الزمن الذي ستحضر فيه للخرطوم. لقد استمتعت جداً بزيارتي لبخت الرضاء وللنقاش الذي دار بيننا. أتمنى لك حظاً سعيداً.

إلى يوان كامبل مدير كردفان الخرطوم ١٠ مارس ١٩٤١

معركة كرن على أشدها. إنها أكبر معركة خلال هذه الحرب في الشرق الأوسط، حيث معارك الصحراء الغربية لم تقابل بمقاومة حقيقية. قوام جيشنا فرقتان وجيش العدو حوالى ٢٥،٠٠٠ جندي أو أكثر. الأخبار أمس واليوم قبل الأمس عن الأوضاع كانت مقتضبة، ولكننا احتلينا بعض القمم وأسرنا بعض الجنود، كما دمر سلاح طيراننا قطاراً محمّلاً بالقنابل والذخائر.

آمل أن نصل إلى قمبيلا هذا الأسبوع بعدما أمّنا الطريق إلى أقودو وأصوصا ويمكننا الآن تحويل الفرقة الملكية البريطانية والفرقة البلجيكية إلى هضبة البارو. طلبت من جاك موريس - مفتش مركز قمبيلا - العودة هناك، وسيغادر إلى الناصر غداً.

إدارة مناطق العدو المحتلة تعاني من بعض الفوضى، حيث الإجراءات المرتجلة وضيق الوقت في إيجاد العدد الكافي من الموظفين، ولو أن بعضهم بدأ يصل الآن من عدة مناطق من أفريقيا. سيمتد نفوذ فيليب متشل من جزيرة رودس إلى مقديشو! كندي - كوك وضع خطة لجهاز متواضع من ٦٦ ضابطاً وضباط براءة وضباط صف إلى أريتريا. للآن تحصل على عشرة منهم.

سنحصل على مئة عربة سكة حديد من جنوب أفريقيا بالاضافة إلى ١٥٠ لوري. تم العثور على قبور لاثني عشر مسيحياً في الكرمك تاريخهم ٧ يوليو ١٩٤٠.

هناك مشاكل عملة في كسلا (حوالى أربعة ملايين ليرة) وإدارة مناطق العدو المحتلة متعبة ومكلفة للغاية. تمنياتي لأفضل المديريات.

❑❑❑

إلى أ. ب. ب. هاول الخرطوم ١٩ مارس ١٩٤١

كرن ما زالت في أيدي العدو ولكن هجوماً مكثفاً بدأ يوم السبت ١٥ مارس وما زال مستمراً. إذا سقطت كرن وتمكنّا من أخذ جزء كبير من الحامية، قد يعني ذلك

انهيار شرق أفريقيا الإيطالي فوراً، حيث ركز الطليان أفضل جيوشهم هناك وكرن هي مفتاح أسمرا وأسمرا مفتاح شرق أفريقيا الإيطالية.

سلاح الطيران الملكي نجح في تدمير طيران العدو خصوصاً على الأرض وفقط أربعة من طائرات العدو شوهدت وقد دمرت إحداها على مشهد من الجنود.

الجنرال لورنزيني «أسد الصحراء» والذي كان قائداً مقتدراً ونشطاً في كرن كان مقتله في المعركة ضربة شديدة للعدو حيث لا يملكون الكثير من القادة أمثاله.

كندي - كوك احتل منزل لورنزيني في اغوردات كرئاسة لإدارة مناطق العدو المحتلة وعنده الآن نواة إدارية قوامها بعض مفتشي المراكز. لش نظم كادره الصغير من الخرطوم وفي انتظار الوقت المناسب والمدينة المناسبة ليدخل إلى أثيوبيا. لقد سافر جواً عدة مرات لزيارة الامبراطور. الثوار الأحباش نشاطهم متزايد في القوجام ووجود الامبراطور بينهم ودعاية ستير قد كان لهما تأثير سحري.

كالدري - مدير الإمدادات الحربية وأنا زرنا أغوردات وبارنتو وأبسا جنوب كرن في فبراير للاطلاع على حالة الناس ولمعرفة المطلوب من السودان. لقد كانت رحلة مثيرة وقد رأينا آثار المعارك في أغوردات وبارنتو واستحواذ قوة دفاع السودان على اللواري والدبابات والمدافع جنوب بارنتو. أغوردات مدينة جميلة مبانيها بيضاء ومضاءة ومباني حكومتها جيدة.



إلى يوان كامبل الخرطوم ٢٧ مارس ١٩٤١

أرجو أن تكون حازماً في إجبار الموظفين لأخذ عطلات. وحتى ولو ١٥ يوماً في اركويت أو الاسكندرية تساعد على تجديد نشاط الإنسان. لا يجب أن نترك القرار لهم. أنا أجابه نفس المشكلة بالنسبة لموظفي مكتبي.

أرجو أن تكون مساعيك مكللة بالنجاح. أنا آسف لما تجابهه من نقص في الموظفين، هناك نقص في كل الجهات.

للأسف قتل لزلي (مساعد مفتش مركز اكوبو) في قمبيلا. لقد كان شاباً دمث الأخلاق وكان مقتله بعد استتباب الأمور هناك - زيادة في عجز الموظفين - بعد فترة أضاف الآتي:

كرن آيلة للسقوط. تقلبنا على حواجز الطريق وسمعت بأن دباباتنا تجوب شوارع المدينة. إذا كان ذلك صحيحاً فإن الأمر قد قضي. ولكن هذه المعلومات ما زالت سراً وليس هناك تفاصيل. ستكون أخبار عظيمة إذا تأكدت. آرش ويفيل لحسن الحظ متواجد هناك. سننعم براحة عظيمة. لا بد أن أتوقف.

❒❒❒

إلى يوان كامبل الخرطوم ٣٠ مارس ١٩٤١

لقد أعرت إدارة المناطق الآرترية المحتلة في آرتريا وأثيوبيا ١٥ موظفاً سياسياً وأربعة آخرين يعملون بعض الوقت معهم. أعتقد هذا يكفي. إنه من البخل والغلظة أن لا نساعد في وقوف تلك الإدارات على أقدامها، كما نرغب أيضاً في إدارات جيدة عبر الحدود، وهم في حالة يرثى لها من قصر النظر؛ ولكني لا أرغب في التضحية بخيار موظفينا أن يذهبوا إلى أثيوبيا. آرتريا مختلفة وتحتاج لكادر مؤهل حتى لا نخذل الناس هناك. بعض الموظفين يعتقدون أن أثيوبيا رومانسية، وقد تكون لمدة شهر أو شهرين، ثم سيكتشفون أن ضعف الموظفين، والمشاكل الدبلوماسية، وثنائية حكم الامبراطور وإدارة المناطق الآرترية المحتلة البغيض، ونفاق رؤساء القبائل، وقلة المال، والقاذورات وجيش ريفي فوضوي ناكر للجميل. على أي حال هذا ليس من شأني وقد أضفت لعقودات التخديم فقرة تسمح لنا بإرجاع الموظفين العاديين.

كانت إصاباتنا في تنافس معركة كرن حوالى ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ نسبة القتلى حوالى

واحد من كل اثني عشر والجرحى حالتهم غير خطيرة حيث أغلبها كانت شظايا قنابل يدوية، أما جرحاهم فكانت إصاباتهم خطيرة حيث كانت نتيجة شظايا قنابل مدافع.

لقد تسنى لي مقابلة ديغول عدة مرات: صارم وفظ وغير جذاب ولكنه جبار. وقد سافر جواً إلى كرن لزيارة جنود حركة فرنسا الحرة.

❐❐❐

إلى ت. ر. بليكلي ٣٠ مارس ١٩٤١

المعار لإدارة مناطق العدو المحتلة

لقد وصل خطابك لي قبل أن يصل خطابي لك للأسف. كان عليّ أن أكتب عدداً من الرسائل وقد تركت رسالتي لك للآخر لأني افتكرت أنك في قوجام. (أنت ولش مثل الطيور المهاجرة يوماً بالقرب من بحيرة تانا ويوماً واقِفَين على رجل واحدة في حديقة منزلي).

على أي حال أشكرك على خطابك وهاك رسالتي.

أولاً تهانينا على ترقيتك. الحاكم العام هو الذي يعين نواب المديرين ولست أنا، ولكن كما قد تخمن فقد كان لي دور كبير في ذلك وعادة ما أشاور السكرتير القضائي والسكرتير المالي بالإضافة إلى مفتشي المراكز وأحياناً مديراً أو اثنين.

لم يكن لدي شك إطلاقاً في ذكائك وخبرتك، ولكن بعض مواطن الضعف المزاجي الإنساني كانت تعمل ضدك لفترة من الزمن. لكل منا شياطين ولا بد لنا من طردهم. أنا أملك عدداً منهم وأحياناً أعتقد أني تخلصت منهم، ثم أراهم بعد فترة يحومون حولي، ولكن الآن لا أراهم بكثرة. حاول أن تبعد شياطينك أيضاً. ستجد مناخاً مختلفاً في إدارة مناطق العدو المحتلة وتوجهات جديدة.

الجبال تساعد على التأمل وكذلك التخلص من النقد غير المجدي (المدنيون يبدون

كأغبياء ومعوقين للعسكريين، كما يبدو العسكريون للمدنيين، والعالم مكون من جميع الأنواع). أسعى لأن تكون متسامحاً وتتحلى براحة البال وعندما ترجع يمكنك الانخراط في رئاسة مديرية ليس بها موظفي مصالح أو ضباط قوة دفاع السودان المتشككين. هل لك أن تفعل ذلك لي؟ إن مشاكل الموظفين هي من أسوأ ما أعانيه وأصعبهم حلاً.

هذه موعظة: من ناحية أخرى فأنا على ثقة تامة بمقدراتك وتعاطفك ومعرفتك بالسودانيين وسرعة تفهمك لأساليب الإدارة والأمور المالية. نائب مدير المديرية هو مدير للمديرية تحت التمرين. ونحن ليس من مبدأنا أن نرقي نواب مديريين إلاّ إذا ظننا أنهم سيصلحون كمديرين في المستقبل. ليس هناك أي سبب في أن لا تصبح أنت أحد أولئك المديرين، إذا ما فعلاً كنت تملك القدرة، كما أعتقد أنا ويعتقد كندي - كوك، في أن تتقبل النقد ولا ترفضه. إنك تمتلك روحاً مرحة. مدير المديرية هو قائد لفريق من موظفي المصالح وموظفي الإدارة. لا بد أن ينسى كونه قائداً لموظفي الإدارة وحدهم وإنما قائداً للجميع. يجب أن يكون امرأ يكسب ثقة قائد فرقة قوة الدفاع السودانية المحلية، وكبير مفتشي الصحة، والبيطري، ومهندس البلدية، والذين يرغبون به كقائد لمديريتهم. هل سيفعل رجالك ذلك معك؟

أنا لا أدري، ولكن هذا ما يجب أن يتم ويجب عليك أن تجعل من شخصك ذلك الرجل المقبول لمرؤسية كقائد لهم. وإذا كان دنيس ينتقد حكومة السودان ويبدو متعصباً أو كان مشاكساً للإداريين فيجب عليك أن تتحلى بالسماحة والحيدة والتفهم لتتمكن من تبديد شكوك موظفي المصالح (كانت صائبة أم خاطئة).

عندما يذهب جورج بريدن إلى مديرية النيل الأزرق مديراً، أعتقد مفتش مشروع الجزيرة والأطباء والمهندسين سيقولون: «من حسن حظنا أن بريدن عين مديراً لنا». عندما تذهب أنت إلى مديرية ما كنائب مدير، ثم في ما بعد كمدير أنا أحب أن يقول عنك الموظفون: «من حسن حظنا أننا حظينا ببليكلي». أنا لن أتمكن من حملهم على قول ذلك ولكن باستطاعتك أنت أن تفعل إذا ما اقتنعت أنت أنه من الجميل أن يقولوا

ذلك عنك، وإذا تمكنت من إظهار تلك الخصال التي ستحببهم إليك وتتخلى عن تلك الخصال التي قد تجبرهم لقول شيء مختلف. أنا لا أقصد شعبية رخيصة ولكني أرغب في أن يكون نواب مديرينا، ومديرونا محط احترام وترحاب من الآخرين وليس فقط من مفتشي مراكزهم. آسف لهذا الوعظ الثاني.

أتمنى لك حظاً سعيداً في عملك في إدارة مناطق العدو المحتلة. ستجد فوضى عارمة وتتعرض لمضايقات كثيرة من إدارات متضاربة ونقص في المعدات وموظفين غير أكفياء. وقد يقود ذلك لأن تنفجر. ولكن إذا تمكنت من عدم الانفجار ونظرت للأمور بصبر وبمزاج رائق فسوف تهزم الشيطان الأول. لا من أحد يستطيع أن ينظم أثيوبيا في يوم أو شهر أو سنة أو يجعلها قادرة على أن تقف على أرجلها. لقد استغنيت عن ١٢ إلى ١٥ من أفضل رجال إداراتنا إلى إدارة مناطق العدو المحتلة ولن أتمكن من عمل أكثر من ذلك، إلا بمدهم بالمواد والنيات الحسنة. أتمنى لهم التوفيق. تذكر أنك التحقت بالجيش لعدة أشهر الآن وما زلت ضابطاً فيه. لا تفسد مستقبلك. تصرفات رجال الجيش ليست من تصرفاتنا ولن تكون. الجنود يجب عليهم أن يكونوا أكثر صرامة من المدنيين وأكثر عناداً وإلا فلن يكسبوا الحروب.

أنا لا أحب الأحباش، ولكن الحقيقة هذه بلادهم ونحن ندين للامبراطور بالكثير لاسمه ولمنشوراته، كما يدين هو لنا أيضاً بالكثير، وأرجو أن تتمكن إدارة مناطق العدو المحتلة من سداد ديوننا جميعاً.

أرجو أن تكتب لي من وقت لآخر وأوصيك خيراً بلوري الصغير. وإذا سمح لك الوقت أرجو أن تزورني قبل مغادرتك.

❏❏❏

إلى والدته الخرطوم ٣١ مارس ١٩٤١

الأسبوعان الماضيان كانا من أسعد أيامنا. ثورة اليوغسلاف على المحور وفشل

هجوم موسوليني الذي أعلنه عند وصوله لألبانيا. في آخر التقارير قرأت «لا بد أنها هزيمة فاقت كل توقعاته المتفائلة». لقد فقد الطليان حوالى ٢٥,٠٠٠ جندي واضطروا أن يطلبوا هدنة لدفن موتاهم. تمَّ إسقاط كرن بعد معركة دموية، أعنف معركة شهدتها أفريقيا. لقد منينا بإصابات كبيرة ولكن عدد موتانا كان حوالى ١ مقابل كل ١٢ إصابة والجرحى كانت جروحهم طفيفة جراء قنابل يدوية صغيرة يرميها الطليان وجيوشهم بين الأهالي كما ترمى كرة الكريكت، بينما جرحاهم اصاباتهم بالغة لأنها من جراء شظايا قنابل مدافعنا. ان أخذنا لكرن ولهرار ثاني أكبر مدينة حبشية تعني نهاية شرق أفريقيا الإيطالية، وفي خلال أسابيع (ومحتمل بعد أيام) أن ينتهي الأمر. لا أدري إذا كانت جيوش السودان ستصل إلى أسمرا قبل جيوش جنوب أفريقيا ستصل إلى أديس أبابا. والآن سمعنا عن إغراقنا لثلاثة طرادات ايطالية ومدمرتين.

لقد اجتمعت مع سمتس عدة مرات، وهو رجل عظيم، ساحر وحكيم. يبلغ من العمر الآن ٧١ عاماً وقوي ومُلهم. لقد أعجبت به كثيراً وهو عالم مميز ووجهه طيب ويتحلى بذقن صغيرة بيضاء. ديغول ما زال في شبابه ولكنه فظ ومتقلب ولكنه قوي الشكيمة. لقد اجتمعت به لفترة طويلة وتحادثنا بالفرنسية (ذكرتني بمدرستي الآنسة هارلاند) وتعشيت معه مرتين.

السودان ينعم بالخير، المحاربون السودانيون كانوا ممتازين مثل البريطانيين والهنود. ما زلت آمل أن أسافر جواً إلى لندن هذا الصيف، ولكني غير متأكد. ممنوع السفر لعطل إلى بريطانيا ولكني قد أتمكن من السفر لمأمورية.

❐❐❐

إلى يوان كامبل — الخرطوم ١٣ أبريل ١٩٤١

إن وفاة كولن ماكدونالد كانت فاجعة بالنسبة لي. لقد كان من أفضل شبابنا، عاقل ومرح وكفء وأديب ومستقيم، ابن بار لأسرة دينية فاضلة. لقد علمت - ولو أنه ليس لدي دليل رسمي - أنه قتل يوم ١ أبريل في غارة - يبدو ليلاً - في دبرا ماركوس

حوالى ١٤٠ ميلاً شمال غرب أديس ابابا. كتيبة الحدود التي كانت رأس الحربة في ثورة التجام تلقت كل الإصابات لأن الوطنيين لم يؤدوا دورهم كما يجب. كانت هناك عمليات ليلية لست ليالٍ خارج دبرا ماركوس إلى أن احتلت في يوم ٤ إبريل. الطليان خسروا ٨ ضباط و٣٧ طليانياً من رتب أخرى و٢٠٠ جندي من الأحباش قتلوا و٨٠٠ جرحوا. قوة دفاع السودان فقدت ١١ قتيلاً و٢٠ جريحاً. كولن قتل يوم ١ أبريل. لقد غنمنا مدفعين و٢٤ مدفعاً رشاشاً و٦ عربات مصفحة. كانت عملية ناجحة جداً والقائد أرسل رسالة تقول «أحسنتم» ولكننا فقدنا كولن ولن نراه مرة أخرى.

لقد كان لصيقاً بي جداً لمدة أربع سنوات في الأبيض وهنا في الخرطوم. لقد كنت أوده كثيراً. أنا متأكد أنه مات ببسالة كما عاش بشجاعة.

أرجو أن تخبر الناس كيف كان كولن ناجحاً في عمله. كان يحب الأبيض ودائماً يتحدث عنها. سكرتير معاينات جامعة أدنبرة قال إن كولن كان أفضل من خرّجتهم الجامعة.

لقد فقدنا الآن بروي وتتلي ولزلي وكولن. إنها مصيبة ولكن علينا أن نبرهن أن موتهم لم يكن سدىً.

❐❐❐

إلى أ. ب. ب. هاول — الخرطوم ١٧ أبريل ١٩٤١

الكل في السودان حبورون بالنصر في آرتريا وأثيوبيا وخصوصاً موقعة كرن والتي كانت معركة ساخنة في مناطق جبلية وعرة. لقد كانت معركة كر وفر وحرب جنود شجعان. لم يكن هناك طريقة لتفاديها ومواجهة عدو يفوقنا عدداً قد تقرر مواجهته بشجاعة والنتيجة كانت كما علمتم. قوة دفاع السودان أبلت بلاء حسناً جداً في أثيوبيا وفي أرتريا وعلى الأخص فرق مدافع الرشاشات المحمولة على العربات في

أرتريا والتي تحصل اثنين من ضباطهم، أور وهانك على ميدالية الخدمة الممتازة والصليب العسكري على التوالي. وفي أثيوبيا كان أداء فرق جبال النوبة وكتيبة بوستد الحدودية في القوجام ممتازاً ولا يقل عن أداء الفرقة الملكية البريطانية أو فرقة الكونغو. كانت إصاباتنا في قوة دفاع السودان ضئيلة للغاية عبارة عن ٣ ضباط سودانيين جرحى و٢٩ من رتب أخرى بين قتيل وموتى متأثرين بجراحهم مع ٦ أسرى و٣٥ جريحاً. ولكننا فقدنا ثلاثة من أميز مفتشي مراكزنا: بروس الذي قتل بالقرب من كرن، وبل لزلي التي قتل في قمبيلا، يوم ٢٢ مارس، وكولن ماكدونالد الذي قتل في دبر ماركوس يوم ١ أبريل. أتمنى أن يكون ذلك آخر إصاباتنا، ولو أننا يجب أن نتوقع وفاة واحد أو اثنين من رجالنا الذين أعرناهم لسلاح الطيران الملكي وللجيش البريطاني.

لقد حررت رسائل اليوم لوالدي لزلي وماكدونالد وارفقتها لك لإرسالها لهما. ليست لدينا تفاصيل كاملة عن ظروف وفاتهما حيث الاتصالات مع أثيوبيا ما زالت رديئة وبطيئة للغاية.

وفاة ماكدونالد كانت صدمة بالنسبة لي حيث عمل معي في الأبيض وهنا في الخرطوم. لقد كان ضابطاً في كتيبة الحدود التي كانت تساند الثوار في القوجام. لزلي كان يرأس فريقاً من الشرطة من جهة نهر جيلا على الضفة المقابلة لأكوبو وكان يناوش القوات الطليانية في هضبة البارو ثم اشترك في الزحف على قمبيلا الشهر الماضي مع الفرقة الملكية البريطانية وكتائب الكونغوليين. أعتقد أنه قتل في كمين.

القوات النظامية جارين سحبها بسرعة من أرتريا للذهاب شمالاً ولكن أرجو أن يكون لدينا عدد كافٍ لمقابلة أي طارئ. قوام قوة دفاع السودان الآن ١٤٠٠٠ رجل والشرطة ٧٠٠٠.

إدارة مناطق العدو المحتلة تواجه صعوبات جمة. فوجود ٢٠٠٠٠٠ من المدنيين الطليان وحفظ الأمن ونظافة المدن وصعوبة ازدواجية الحكم الامبراطوري والعسكري في أثيوبيا ونقص الموظفين الحاد، ومسألة العملة المعقدة وآلاف الأسلحة

بأيدي قطاع الطرق وصعوبات الاتصالات الرديئة كلها عقدت المشاكل التي أصلاً كانت معقدة بسبب عدم وضع الترتيبات لها سابقاً في الخريف.

❒❒❒

إلى والدته — الخرطوم ١٨ أبريل ١٩٤١

الامبراطور كان سعيداً جداً بزحفه إلى أديس أبابا. لقد حاولنا أن نثنيه بعض الشيء لأنه كان هناك حوالى ١٠٠,٠٠٠ أثيوبي هناك بالإضافة إلى ٤٠,٠٠٠ إيطالي ولم نكن نرغب في أن تتم مجزرة أو حوادث لأن الأثيوبيين سيصيبهم الجنون عند وصوله. هناك حوالى ٢٠٠,٠٠٠ إيطالي مدني رجالاً ونساء وأطفالاً في أرتريا والحبشة والصومال الإيطالي، منهم ٤٠,٠٠٠ على الأقل في أسمرا لوحدها، وهي مشكلة كبيرة لحمايتهم وإعاشتهم.

لقد ناقشت مع الحاكم العام مسألة سفري لإنجلترا وهو يعتقد أنها فكرة لا بأس بها لأن حكومة السودان لم تتمكن من الاتصال بمكتبها بلندن أو بوزارة الحربية أو وزارة الخارجية لأكثر من عام ونصف وهناك العديد من المسائل التي تتطلب المشاورة. الحاكم العام نفسه لن يسافر لإنجلترا. لقد فكرت ليلاً في الأمر. المشكلة الوحيدة هي أن موظفي حكومة السودان ممنوعين من السفر لإنجلترا في عطلهم التي يمكن أخذها للشرق الأدنى أو أفريقيا فقط لمدة خمسة وأربعين يوماً ما عدا زمن الرحلة، وأنا لا أرغب في أن أبدو كأني استغل منصبي، ولكن إذا ذهبت في مأمورية فهذا أمر مختلف، والحاكم العام وبريدن يؤكد لي أن الأمر لا غبار عليه. أنا لم أطلب من حكومة السودان أي شيء إطلاقاً خلال عشرين عاماً، كما أني مشتاق للقياك، كما أحب أيضاً أن أرى إنجلترا أثناء الحرب.

الجو رجع حاراً جداً مرة أخرى ولكني تعودت على الحرارة وقد سبحت في النيل اليوم. أنا في حالة جيدة في الواقع، وقد خفّ التوتر ولكنه قد يتجدّد إذا ما هوجمت مصر. السودان أقوى بكثير الآن في جيوشه ومعنوياته وامداداته. أنا أشعر بالخجل

وأنا آكل في الفراخ والسجك والبرتقال والبيض والسمك والعسل بينما أنتم تعانون من التموين. هناك الكثير من المزايا في العيش في بلد زراعي ورعوي. إذا لم تدخل إيرلندا الحرب فعلى الأقل يمكن تحويلها إلى مزرعة لتمدّ انجلترا باحتياجاتها الغذائية. أنا أشفق على الطبقة الفقيرة التي لا تستطيع شراء السمك والفراخ واللحوم.

لقد سمعت أن بعد معركة ماتابان البحرية التي تم فيها اغراق عدد كبير من البوارج البحرية الايطالية، أرسل الأدميرال كنتنغهام اشارة لكل سفن أسطوله ليبلغوا عن أي إصابات. الجميع ردوا «لا اصابات» ما عدا مدمرة حربية صغيرة بلغت بأن هناك «اصابة واحدة عبارة عن ادميرال إيطالي نشلوه من البحر بسنارة ومصاب بالبواسير».

❑❑❑

إلى مديري المديريات ٥ مايو ١٩٤١

لقد مضت ثلاثة أشهر منذ كتبت لكم عن الأخبار. حصلت تطورات كثيرة في الحرب منذ ذلك التاريخ. أولها وقبل كل شيء نصر الجنرال بلات العظيم في كرن (تفاصيل أكثر ادناه)، ودخول اسمرا واخيراً غزو ارتريا مع تغنيم كميات ضخمة من المدافع والعتاد (نصف مليون قذيفة من أسمرا لوحدها) وأعداد كبيرة من الأسرى، ثم احتلال الصومال الطليانية، واعادة إحتلال الصومال البريطانية بعد سبعة أشهر، كذلك زحف قوات الجنرال كنتنغهام العظيم وأخذهم لهرر وديرداوا ودخولهم أديس أبابا _ احتلال العدو لطبرق والذي بدأ يوم ٢٤ مارس كان مباغتاً وبارعاً (الجنرال الالماني رومل مشهود له بأنه تكتيكي ماهر ومقدام)، ولكنها كلفتهم خسائر كبيرة في تدمير الأسطول الايطالي في معركة خليج ماباتان التي خاضوها لصرف النظر عن هجومهم على طبرق وإلهاء البحرية البريطانية من إمداداتهم الحربية إلى ليبيا، ولكن ذلك كلفهم كثيرا. مصر تم تعزيز قواتها جيداً.

المساعدة الفورية التي قدمت لليونان على حساب الجبهة الليبية وفي وجه مخاطر كبيرة ومن غير اعتبار للمبادئ قد رفع من أسهمنا عالمياً بالرغم من هزيمة طبرق. وقد أثلج عملنا هذا قلوب الجالية اليونانية هنا، وقد حضر لمكتبي اثنان منهم بعد الاحتلال يحملون شيكاً بمبلغ ١٥٠ جنيهاً مصرياً للمجهود الحربي البريطاني.

الموقف في العراق غير مدرك في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا، ولكنه نتاج حتمي لفترة المغازلة الطويلة مع دول المحور وخيانة رشيد والأربعة جنرالات المعروفين بالمربع الذهبي. هؤلاء الرجال وقّتوا انقلابهم ليتزامن مع توغل الألمان في دول البلقان وليبيا وبتغيير السفراء. السير كنهان كورنواليس عبر عن طريقنا في طريقه إلى بغداد. كان في الخدمة السياسية لحكومة السودان ١٩٠٦ - ١٩١٣ ثم أصبح مديراً للمكتب العربي في بيروت. هو الآن في الثامنة والخمسين من عمره ولديه تأثير بالغ على القبائل. ولي العرش عبد الإله لم يتمكن من عمل شيء وهرب إلى الحبّانية، ثم إلى مركب شراعي في البصرة حيث اخذوه إلى القدس وهو الآن في شرق الاردن حيث في امكانه دخول العراق مرة أخرى عن طريق رطبة اذا دعت الظروف. المربع الذهبي نصب أحد أبناء عمومة عبد الإله غير المعروفين اسمه الشريف شرف. وصول الجيوش الإمبريالية والهندية السريع أصاب رشيد عالي بالذعر. إحدى الكتائب وصلت جواً من الهند في شعيبة حيث القاعدة العسكرية لسلاح الجو الملكي بالقرب من الحبانية يوم ١٧ أبريل والآخرون وصلوا بحراً إلى البصرة يوم ١٨ أبريل. مبدئياً أعلن رشيد عالي صداقته والتزامه بالاتفاقية مقابل الاعتراف به ويوم ٢٢ أبريل أصدر تصريحاً يوافق فيه على مرور الجيوش البريطانية. ولكن بعد فترة، وربما بنتيجة لوعود ألمانية لمساعدته وأيضاً تحت ضغوط من المربع الذهبي تحسب، وعندما أخطر بوشوك وصول القوات المساعدة لكتيبتنا في البصرة لم يوافق على ذلك والنتيجة كانت قطع العلاقات الودية والصدام الذي جرى في الأيام الماضية. أرجو أن تؤكدوا لمن يسأل من السودانيين أن الأموال الألمانية وطموحاتهم السياسية هي الأسباب الرئيسية لمشاكل العراق وأن الحكومة البريطانية وممثلينا في العراق قد تحلوا بصبر فوق الطاقة

مع السياسيين العراقيين ومع الجنرالات المسيسين والذين أصروا على عدم الالتزام بروح الاتفاقية: مثلاً لقد كانوا يشجعون دعاية المحور ويمنعون الدعاية البريطانية، ولم يعتقلوا المواطنين الطليان، ويضعون العراقيل أمام سلاح الطيران الملكي وخلافه كما أبعدوا أي صديق لبريطانيا من النفوذ.

الحرب في شرق أفريقيا الإيطالية:

تم طرد آخر طلياني من السودان عندما أخلوا الكرمك يوم ١٤ فبراير إلا إذا اعتبرنا قمبيلا والتي لم نعد احتلالها إلا يوم ٢٣ مارس وتمكنا من الاتصال بهم باللاسلكي يوم ٥ أبريل. الطليان أخذوا معهم مكنتين لاسلكي ولكنهم تركوا جهازي إرسال.

اعتقد أن معركة كرن ستدخل التاريخ. لقد كانت حرب رجال بالفعل، كسبها سلاحا المشاة والمدفعية، بعد حرابة ضارية، وعلى أرض جبلية وعرة وموحشة، وضد عدو متفوق في العدد ومتحصن في المرتفعات ومزوّد بذخيرة وفيرة ومصرّ على المقاومة. لحسن حظنا هذه المرة وجدنا عوناً كبيراً من سلاح الطيران، كما كانت إصاباتنا حوالى ٤٠٠٠ وهو الرقم الذي كنا نتوقعه وأغلب الإصابات كانت خفيفة ولكنها جروح من شظايا القنابل اليدوية القابلة للتقيح. نسبة الموتى للاصابات كانت منخفضة أما اصابات العدو الجسيمة كانت من شظايا قنابل مدفعيتنا التي كانت مكثفة وفي الصميم. مواصلاتنا وخدمة إمدادنا كانت تجابه صعوبة بالغة. نحن ندين بالكثير لفرق جنوب أفريقيا المحمولة بالعربات وبسائقيها السود المرحين من رأس الرجاء الصالح، فقد كانوا مهرة في تصليح السيارات وملتزمين بقواعد المرور. بعد استلام الوجبات والماء والذخيرة باللواري كان لا بد من حملها على ظهور الرجال المتعبين إلى أعلى الجبال والعدو يطلق النار عليهم. ان الذين شاركوا في معركة كرن كانت مهمتهم لا يحسدون عليها ولكن سيظل الآخرون يحسدونهم. اما منطقة ادي تكلسان في الشرق فقد كانت أيضاً قوية ولكنها لم تؤمن بشكل كافٍ، ثم جاء استسلام أسمرا والمفاوضات حول مصوع ثم استسلامها أيضاً. لقد اسرنا ٤١٠٠٠ من جيشهم بينهم

١٧٥٠٠ طلياني بما فيه ١٠٠٠ ضابط و٢٣٥٠٠ أرتري بواسطة جيش بلات والآن جارين توزيعهم على معسكرات داخل السودان. الطليان جارين وضعهم من هيا وتهاميم وخلافه على جبال البحر الأحمر بسبب المناخ والأرتريين في أتبرة وشندي وحول الخرطوم ومدني. مشكلة استخدامهم عويصة للغاية. أداء المساجين دائماً ضعيف، وغير اقتصادي على كل حال، والنقص الحاد في وسائل المواصلات وصعوبة حراستهم والطقس غير المساعد يحد من إمكانية تشغيلهم. نأمل أن نتمكن من اطلاق سراح الأسرى الأرتريين وإرسالهم لبلادهم عاجلاً ام آجلا.

منذ جلاء أديس أبابا كان دوق أوستا يقاوم في أربع مناطق، دسي وامبا الاجي (اثنتيهما من طريق أديس أبابا أسمرا) وقندار وجيما - دسي والتي ترتفع ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وسكانها عادة حوالي ٣٦٠٠٠ (منهم ٦٠٠٠ طلياني) سقطت يوم ٢٥ أبريل بعد عبور طريق كومبولشيا بخسارات كبيرة للطليان في اليوم السابق. وسقوطها يعني عزل منطقة قندار - ديراتابور والتي تنقصها المؤن. امبا الاجي هي عبارة عن كتل ضخمة من حجارة الغرانيت ترتفع إلى عشرة آلاف قدم وكانت مسرح المعركة في ٧ ديسمبر ١٨٩٥ حيث أبيدت قوة إيطالية مكونة من ٢٠٠٠ جندي بقيادة توسلي بواسطة راس مالكنون وجيشه الحبشي. دوق أوستا يقال أنه هناك وقوات بلات تقترب منه من ناحية الشمال (هم الآن حوالى ٢٢٥ ميلاً من أسمرا)، ولكن تدمير الطرقات هنا وفي جهات أخرى يبطئ التقدم. منطقة جيما مساحتها اكبر من مساحة بريطانيا العظمى وتشكل صعوبة في تخفيف بؤر المقاومة. روح الطليان المعنوية متدنية للغاية والجنود الارتريون الهاربون من الجيش كثر. الدوق ينفذ الأوامر الصادرة له باحتواء الجنود والامطار في مصلحته. هذا الوضع يتيح له الفرصة لممارسة مغامراته المشهور بها وروحه الدعابية. لقد أُعطي إنذاراً اذا لم يستسلم فلن نكون مسؤولين عن سلامة الطليان المدنيين. رفض وكان رده نحن واجبنا أن نحمي أولئك الذين في المناطق التي احتليناها. يقال إن هناك حوالي ٢٠٠٠٠٠ منهم (رجال ونساء وأطفال) من كل شرق أفريقيا الإيطالية، أسمرا لوحدها بها أربعين إلى خمسين ألفاً، وسيسببون لنا مشاكل إعاشية وأمنية.

امتداد خط سكك حديد تسني الجديد والذي يبدأ من محطة ملاويا جنوب كسلا قد تم انشاؤه بين ١٠ فبراير و١٤ مارس، ثلاثة أيام قبل الميعاد. طوله ٣٢ ميلاً من تسني. وضع الخط وصل إلى ١,٥ ميل في اليوم بالنسبة للخط المثبت بفلنكات حديد و١,١٢٥ ميل في اليوم بالنسبة للخط المثبت بفلنكات خشب سنط. قام بالعمل ٢٠٠٠ رجل. ثم امتد الخط فوق نهر القاش لمسافة ستة اميال شرقاً لمحطة ارياتب. وقد قام سلاح المهندسين الملكي ببناء كبري عبر القاش.

سيتم تخفيف الازدحام بمشترانا لـ١٠٠ عربة سكة حديد من جنوب أفريقيا والتي جارين تصنيعها الآن لتصلنا بمعدل اثنين يومياً ابتداء من أول مايو. للمعلومية سكك حديد ارتريا تم توصيلها إلى أسمرا في عام ١٩١٢ وإلى كرن في ديسمبر ١٩١٤، وفي عام ١٩١٥ أقرضت إيطاليا مبلغ ١٠٠٠٠ جنيه استرليني لتوصيل الخط إلى أقوردات.

إدارة أراضي العدو المحتلة من ارتريا وأثيوبيا في حلة لا يحسدون عليها. ومشاكلهم الادارية متعددة ومستعجلة خصوصاً الحالة الأمنية والامدادات وكادرهم غير الكامل والذي جّمع باستعجال يواجه صعوبات جمة. كاودري هبرت وأنا قمنا بجولة لمدة أسبوع في أرتريا قبل سقوط كرن للتعرف لمتطلبات إدارة أراضي العدو المحتلة. وقمنا بزيارة بارنتو وأقوردات ووادي الامبساحو حوالى ٥٠ ميلاً من كرن. لم تكن هناك مجاعة واضحة ولديهم كميات كبيرة من المأكولات المعلبة والمياه المعدنية والنبيذ، ولكن هناك نقص في الحبوب والأقمشة لأفراد الشعب. رأينا حوالى ٤٠٠٠ رأس من البقر شرق بارنتو وعدداً كبيراً من الماعز ولم نر أي أغنام، ولكن كانت هناك بعض حقول الحبوب محروثة بشكل جيد، ولكن بوجه العموم فهي مناطق جرداء وغير اقتصادية. مشروع تسني جاري العمل فيه. هناك منجم ذهب كبير بالقرب من بياكندي وآخر بمعدات حديثة حوالى خمسة أميال من بارنتو.

وجدنا الكثير من المطبوعات الطليانية منثورة في الطرقات بين المدن وفي شوارع المدن مثل أوامر للفرق العسكرية، وكتيبات عن استعمال المدفعية ومقررات عن البيطرة وقوائم عقوبات وعدد من الدوريات الاستعمارية المفيدة وكتب المرشدين.

من المناظر المبهجة كان رؤية دبابات العدو المحروقة من أقوردات ومجموعة كبيرة من اللواري المهملة والدبابات والبنادق في طريق بارنتو - أريسا حيث أجبرت قوة دفاع السودان عدداً من جنود العدو للصعود راجلين إلى اعلى الجبال، وكان هناك كذلك عدد من الرشاشات المثبتة على العربات.

المناطق السودانية التي أعدنا احتلالها:

نظافة كسلا وإرجاعها لحياتها الطبيعية جار على قدم وساق. وزعت حوالى ١٠٠٠٠٠ وجبة لأهالي المدينة منذ بداية دخولنا يوم ١٩ يناير إلى يوم ١٠ فبراير بواسطة مفتش المركز واللجنة المحلية. افتتحت أسواق المحاصيل يوم ١٤ فبراير. هدية صندوق الإغاثة والبالغ ١٠٠٠ جنيه مصري ساعد في تخفيف الضيق الآني، كما أنشأ ملجأ للفقراء كبار السن. وقد بدأت السواقي في دورانها كما تم تجميد الضرائب والعوائد إلى نهاية يونيو. تم إقراض خمسة تجار مبلغ ٣٠٠٠ جنيه مصري لإعادة تموين حوانيتهم. لقد قمت بزيارة المدينة في فبراير. لقد كانت قذرة وغبار عربات الجيش والحدائق العطشى والزرائب المكسرة جعلها تبدو كئيبة. ولكن لم تكن هناك أضرار من قصف سلاح الطيران الملكي أو العدو. ستعان المباني الحكومية بمنحة قدرها ٤٥٠٠ جنيه مصري. ر. ى. روبي المشرف على حدائق الحكومة والذي ذهب لاعادة تأهيل الحدائق هناك لأن جاري شق طريق جديدة داخل المدينة مستعيناً بالمحدلات البخارية. في الختمية قمت بتقديم ثوب الشرف من الدرجة الثانية الذي منحه الحاكم العام إلى الشيخ عبدالله فقيري، أحد التجار المخلصين والذي أحسن العمل في فترة الاحتلال وبهذه المناسبة فقد رفض المئة جنيه الهدية التي منحت له من ضمن المبلغ الذي سلم لمدير كسلا ليوزعه كمكافآت. السيد حسن عثمان الميرغني والسيد الحسن أحسنا العمل وقد منحوا مبلغ ٥٠٠ جنيه مصري لتغطية جزء من خسارتهما من إعاشة الفقراء ومما نهب من ممتلكاتها بواسطة الطليان. السيد حسن عثمان والبمباشر عثمان علي كيلة مأمور السجن والذي أسر وأخذه الطليان المتراجعون إلى أسمرا وقد

تم الإفراج عنه في أسمرا يوم ١٧ أبريل مع ناظر الحلانقة والأسرى الآخرين، تم تزكيتهم ليمنحوا أوسمة بريطانية. الخائن عبدالماجد سلطان أيضاً وجد في أسمرا وتم اعتقاله وأرسل إلى كسلا وسيقدم لمحاكمة قد تكون عقوبتها الإعدام. ضخ الطليان كميات كبيرة من الليرة الايطالية في كسلا خلال ستة أشهر الاحتلال مما سبّب مشاكل عويصة وواجبنا نحو كسلا أقوى من واجبنا نحو ارتريا. جملة المبلغ كان حوالى ثلاثة ونصف مليون ليرة، أقل من نصفها في أيدي الفقراء والباقي حوالى ٢ مليون ليرة في أيدي حوالى ٦٠ تاجراً. بعدما درسنا الأمر اتفقنا أن نغيّر العملة النقدية والأوراق من فئة الـ١٠٠ والـ٢٠٠ ليرة بواقع ٢٢٠ ليرة للجنيه المصري، أما العملة الورقية من الفئات الكبيرة فقد غيرناها بواقع ٢٠٠٠ ليرة للجنيه المصري.

الكرمك أيضاً في حالة قذرة وقد تصدق بمنحة لإعادة تأهيلها وقد بدأ التعامل التجاري، كما منح كل من الملك نايل بن كيلا والعمدتين حميدة في فازوغلي ونمر في بكوري خمسين جنيهاً كجائزة لهما.

تم استرجاع قمبيلا بواسطة جاك موريس - والذي في سن ٥٧ يعتبر أكبر سناً من أي مفتش مركز في أفريقيا - يوم ٢٠ مارس كان المكان مدمراً واللواري المحروقة تملأ الشوارع والحوانيت والمخازن مكسرة أبوابها ومنزل موريس ملطخ كله بالدماء والأدوية حيث كان يستعمل لتضميد جراح جنود الباندا (الجنود الطليان غير النظاميين). منزل قائد الفرقة وبناية بنك روما مدمرين بالقنابل ولكن لنش مونتازلا كان موجوداً. وكان المكان مليئاً بالقنابل اليدوية مما سبب بعض الإصابات للجنود البلجيك والانواك الذين لم يأخذوا حذرهم.

قوة دفاع السودان كما لا يخفى عليكم، قد حظيت بسمعة عظيمة طوال فترة الحملة من الضباط من كل الوحدات الذين شاهدوا بلاءهم - الجنرالات المتمرسين وصغار الضباط وزملاؤهم من البريطانيين والهنود. في أرتريا كان اداءهم لا يقل عن أداء الوحدات البريطانية أو الهندية. لقد تصدّوا لنيران القنابل والقذائف وهجوم الدبابات، وقد أظهروا جرأة وحركة، وتسلّقوا الجبال وتمكنوا من قيادة العربات

المصفحة والحاملة للرشاشات في طرق وعرة، كما تحملوا الحر والبرد والأمطار وأسوأ من ذلك كله غيابهم الطويل عن أزواجهم وأولادهم. في هذه اللحظة هم يقاتلون في جبال أثيوبيا الغربية، بعضهم على بعد ١٢٠٠ ميل من ديارهم. يجب علينا أن نرفع قبعاتنا لهم ونحييهم بتجلة. كافة الصحف البريطانية - من خلال القصاصات التي تترى الآن بكثرة - تكيل الإشادة وبتفاصيل عن بلائهم، ولا بد أنكم اطلعتم على التهاني بالفوز في كرن التي أرسلها رئيس الوزراء بتاريخ ٢١ أبريل وكذلك الجنرالات ويفيل وسمتس وأوشفيك وكاتروكس. لقد لعبت قوة دفاع السودان دورها في ارتريا كما كان لها الدور الرئيسي في شمال غرب وغرب أثيوبيا. لقد كانت إصاباتهم لحسن الحظ ضئيلة مقارنة بحجم عددهم الآن. جملة الإصابات ١٦٥ - ٤٤ قتلى و١٠٠ جرحى و٢١ مفقودين.

البحرية:

إن قصة نهاية البحرية الإيطالية في البحر الاحمر من الصعب الإلمام بها كاملة. أبحر مركب شراعي محمل بلاجئين غادر مصوع بسلام يوم ٢١ فبراير. ووصل إلى كوبي في اليابان بعد شهر، كما وصلت سفينتان بخاريتان إلى اليابان أيضاً. اعترضت سفينة ألمانية محملة ٨٥٠٠ طن وفجرت نفسها يوم ٢٣ مارس بالقرب من برم. ظهر يوم ١ أبريل تمت رؤية خمس مدمرات للعدو شرق مصوع تتجه شمالاً. ويوم ٣ أبريل فجراً تمت رؤيتها حوالى عشرين ميلاً من بورسودان في اتجاه بورسودان يبدو في نيتهم عملية انتحارية يقصفون فيها بورسودان ثم يغرقون مدمراتهم. تم قصفها بالطائرات واضطروها للتقهقر. تم إغراق ثلاث منها والاثنتان الاخريان ذهبتا إلى الساحل العربي. حوالى ٩٠٠ ضابط وبحار تم اعتقالهم في جده (وكذلك طاقم ثلاث طائرات). كل السفن المتبقية في مصوع تم إغراقها بما فيها سفينة الطوربيد «اوسيتي» وكذلك ٢ من الارصفة العائمة في الميناء، ولكن علمت أن المدخل لم يعق وأن السفن من حمولة ٢٠٠٠٠٠ طن يمكنها الدخول. جنودنا نجحوا في الإبحار. السفن في عصب والتي

لم نحتلها بعد تم تدميرها في منتصف أبريل. تمكنت بارجة حربية من طراز (E) من الاصطدام بسفينة ركاب بريطانية يوم ٧ أبريل إلى ٤٥ ميلاً من مصوع وقد تم جرها إلى ميناء مصوع حيث تقبع الآن. لا ادري اذا سمعتم ان المدمرة «الخرطوم» (والتي أرسلنا لها بعض الهدايا) حصل فيها انفجار (ليس من العدو) العام الماضي وهي الآن تقبع على رمال جزيرة في البحر الأحمر. لم يعلن عن الاضرار بعد ولكن يبدو أن بحاراً صغيراً قد قتل.

الامبراطورية الفرنسية:

الأحوال من غرب أفريقيا الفرنسية والصومال تبدو بدون تغيير. مساهمة حركة فرنسا الحرة في حرب الصحراء الغربية في كباكب والغارة على مرزوق واحتلال الكفرة لم تثر مشاعر مستعمرات حكومة فيشي والتي تغمرها فرنسا بالدعاية مع طرد أو تحييد أغلب مناصري ديغول. من جهة أخرى فإن الإشاعات التي كانت تتنبأ بالهجوم على تشاد لم تتحقّق، ولكنها قد تتجدد إذا ما أعادت المانيا استرداد الكفرة والتي جاري سلاح الطيران الألماني استطلاعها لمصلحة المحور. عملية الكفرة كانت نجاحاً للكولونيل ليكلرك وقوته الصغيرة من القوات المحمولة بالعربات من تشاد. الغارة يوم ٧ فبراير تبعها حصار يوم ١٨ فبراير. وقد استسلمت الحامية المحصّنة فجر يوم ١ مارس بعد ليلة من القصف بالمدفعية. تم أسر ٣٥٠ جندياً وتغنيم ٥٣ مدفعاً رشاشاً و٤ مدافع مضادة للطائرات. للأسف ب. أ. كليتون تم القبض عليه نتيجة خطأ وأرسل إلى روما قبل سقوط الكفرة (كان يشغل منصب مدير مساحة الصحراء المصرية وأحد أفراد دوريات بانقول الصحراوية).

جيبوتي للآن لم تتحرك ولم تتأثر بهزائم الطليان عبر الحدود. الجنرال ليقنهوم أعطاني تفاصيل دقيقة عن عقلية موظف المستعمرات الفرنسية الضيقة والأنانية. مشكلة أولئك الرجال في جيبوتي وداكار وخلافها، إنه لا أمل لهم ولا هدف لهم ليتوجهوا إليه. بعضهم لا يبالي، وبعضهم محبطين وماسويين، وقليل منهم في حالة

غضب ولكنهم غالباً ينقلوا أو يرفدوا في حالة ثورتهم. حتى ويغاند قد ينقاد إلى ذلك الجمود الفكري ولا يقوى على اتخاذ القرار - بالرغم من إعلانه بعد زيارته إلى حكومة فيشي أن الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية ضد أي عدوان مؤكد - إلى أي مدى يمكن مقاومة التغلغل الألماني والذي بالفعل قوي في المغرب.

المسيو كونيير حاكم الكمرون والذي خلف الكولونيل بارانت الذي قتل في تحطم طائرة، يجد صعوبة في توحيد وولاء الغابون.

عموماً ومع تقدم الزمن وبضعف حصارنا (داكار تصلها سفينة من مرسيليا يومياً) والتقلبات في الحظوظ في حرب الشرق الأوسط، فإن مستعمرات حكومة فيشي تتجاهلنا الآن. مركز مخابراتنا في غرب افريقيا، بما يعلمه من موقف داكار المعادي، ينصح بعمل عدواني. أما مركز مخابراتنا في الشرق الأوسط، آملاً في تحييد ويغاند ودنتز فهو يتوخى الحذر. لقد تحادثت طويلاً مع الجنرال ديغول والذي عبر عن طريقنا إلى القاهرة والقدس ثم عاد. إنه ذو شخصية طاغية. يُقال إن بيتان قال (ولو أن هذا منذ زمن طويل) إذا لم يكن ديغول موجوداً لكان من الضروري اكتشافه.

كانت هناك عمليات شغب خطيرة في سوريا في مارس وأيضاً حديثاً مما تسبب في حصار دمشق (عندما تم اعتقال ٨٠ من دعاة الهياج يوم ٢٣ مارس)، كما كان هناك قتال في حمص وحماة وحلب. لقد كانت الأسباب هي شح الطعام وارتفاع تكاليف الحياة ولكنها تطورت سريعاً لمظاهرات سياسية وضد الفرنسيين. الحماقة وعدم الكفاءة ساعدا في تطويل الأزمة. لجنة الهدنة الإيطالية، والتي تم تجاهلها نسبة لهزائم الطليان بدأت نشاطها مرة أخرى. دعايات المحور مكثفة والمسرح معد لأن يقوم أحد الأطراف المحاربة بعمل عنيف.

تم تعيين المسيو أنيت كحاكم عام لمدغشقر مما أراح نائبه المسيو كاملاً. الشعور الطيب نحو البريطانيين ما زال قوياً ولكنهم لا يحبون حركة فرنسا الحرة كثيراً. موقف الغذاء عندهم جيد ولكن الواردات قليلة. حكومة جنوب أفريقيا قبضت على سفينة تابعة لحكومة فيشي في طريقها لفرنسا من هناك وبها ٣٠٠ من الجنود و٧٠٠٠ طن من

المشحونات. بعض الرجال سبحوا إلى شاطئ ديربان للانضمام إلى ديغول. وصلت غواصتان فرنسيتان إلى مدغشقر للتزود بالوقود. قائد جماعة الرِفي، عبد الكريم والمنفي في جزيرة ريونين، أعلن ولاءه لحكومة فيشي.

المسيو لابي حاكم فورتلامي مع القمندان مونتشامب حاكم أبشي وصلا إلى الفاشر في نهاية مارس وكانت هذه أول زيارة لحاكم من تشاد يزور فيها دارفور.

المجلس الاستعماري لحركة فرنسا الحرة يتعامل مع مستعمراته بجدية. تم افتتاح كلية حربية تحمل اسم الكولونيل دي اورزانو في برازافيل بواسطة الجنرال دي لارمينات وتسع لـ١٢٥ طالباً عسكرياً أغلبهم هربوا من فرنسا. ثم إعداد كورس في جامعة لندن لتعليم الفرنسية لموظفي الخدمة المدنية للمستعمرات الفرنسية في أفريقيا الاستوائية والاستوائية الشتاء الماضي، وقد خاطب اللورد لوغارد دفعة كانت في طريقها لأفريقيا في نادي ما وراء البحار أثناء حفلة غداء أُعدت لهم. لورد لوقارد هو الذي سبق الفرنسيين إلى بحيرة تشاد ورفع العلم البريطاني هناك، وقد سماه الفرنسيون «ذلك لوقارد قاطع الطريق». وقد قال لهم إن ليوطي أعطاه ختمه والذي كتب تحته «سعادة الروح تكمن في الحل» (شيلي). المسيو ابويّ حاكم عام أفريقيا الاستوائية الفرنسية كتب مذكرة عظيمة عن الحكم الاستعماري لموظفيه وقد قامت نيجيريا والسودان كل على حدة بتوزيعها. الترجمة المطبوعة سيتم إرسالها جواً من لاغوس وسنوزعها لكم.

الكونغو البلجيكي:

تعلمون أن الجيوش الكونغولية كانت في السودان منذ مدة. أول كتيبة بقيادة القمندان هربيت بدأت في مديرية أعالي النيل واشتركت في عمليات اصوصا وقمبيلا كما وصلت وحدتان أخريان منذ ذلك التاريخ. لديهم وسائل نقلهم الخاصة (كانوا يشترون العربات من أميركا) ولديهم ضباط صف وضباط بلجيك. هناك نسبة كبيرة

من الجنود من قبيلة الزاندي (أرفق لكم قصيدة عن تقرير الطليان بأن الزاندي آكلي لحوم البشر).

ولو أن الجنود الكونغوليين ليست لديهم خبرة بأساليب الحروب الحديثة ولكنهم أحسنوا البلاء تحت قيادة اللواء توميير (والذي أخبرني عنه الجنرال سمتس بأنه قائد ممتاز) في حملة شرق افريقيا ضد الجنرال فوف لتوفوربك، عندما تمكنت المستعمرة في تجنيد ١٢٠٠٠ جندي للمحاربة، كما قاد الطيارون البلجيك الطائرات المائية البريطانية. وكما في الحرب العالمية الأولى فمن الممتع أن تقارن أسلوبهم المنهجي مع حماس الفرنسيين الأحرار المتهور.

الاتفاقيات المالية والتجارية الكونغولية مع حكومة بريطانيا تم التوقيع عليها في لندن يوم ٢١ يناير. حكومة بريطانيا جارية شراء ١٢٦٠٠٠ طن نحاساً و٢٠٠٠٠ طن قطن و١٥٠٠٠ طن حبوباً و٢٥٠٠٠ متر مكعب أخشاباً وبعض الصمغ والفول السوداني وزيت النخيل، ولكن لا بن ولا ذرة شامية. لقد انضم الكونغو إلى منطقة الاسترليني. لجنة هيلي بعد الفراغ من عملها صفَّتْ أعمالها وغادرت وأصبح الاتصال الآن بواسطة قنصلنا العام.

وصلتنا أعداد كبيرة من كبار الزوار - بمن فيهم العابرون - خلال الثلاثة أشهر الماضية. الجنرال سمتس ورئيس أركان الجنرال سير بيير فان ريتفلر، والجنرال ويفيل والجنرال كننغهام والجنرال ديغول والجنرال كاتروكس والسير ج. نورثكوت (حاكم هونغ كونغ) والسير فيليب متشل وفرانسيس رود (الاثنان من إدارة المناطق العدو المحتلة)، ونواب بهوبال والسير كناهان كورنواليس والمستر رتزل (السفير بصوفيا) واوليفر بولدوين وسيمورهكس وايلالينا تريس واللواء شاتر (راجعاً من إنجلترا كحاكم عسكري للصومال البريطانية).

مختلفة

خطآن مطبعيان مسليان. أولهما كان خطاب من بنك في الخرطوم مرسل إلى الإبن الثاني للامبراطور هيلاسلاسي يخاطبونه بدوق الرعب (Horror) بدلاً من (Harrar). والثاني كان إعلان للجنود بأن يحضروا غداً الساعة السابعة ونصف صباحاً لأخذ حقنة ضد الخوف (FEAR) بدلاً من (FEVER).

مرفقات

مقتطف من ملخص مخابرات

«الإشاعة التي تقول إن الجنود الكونغوليون الذين وصلوا السودان هم من آكلي لحوم البشر قد أوقعت خوفاً شديداً في قلوب الجيوش الايطالية».

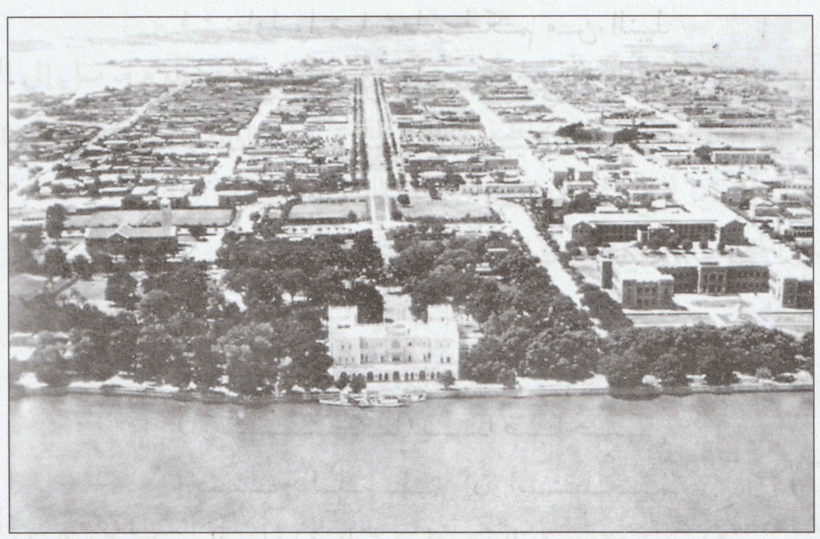
هذه القصيدة جهد مشترك من صغار موظفي قسم المخابرات بالخرطوم:

يــــا لهــــا مــــن فــكــــرة مــبــهــجــة
لــتــجــلــس عــــلى مــــائــــدة طــعــام
تــقــدم فــيــه لحــوم الــطــلــيــان الحــيــة
وتــعــلــم أن لحــم الــكــســتــيــلاتــة
هــــو مــــن ضــلــــوع الــطــلــيــانــة
لــــذيــذ بــالــرغــم مــــن الــرائــحــة

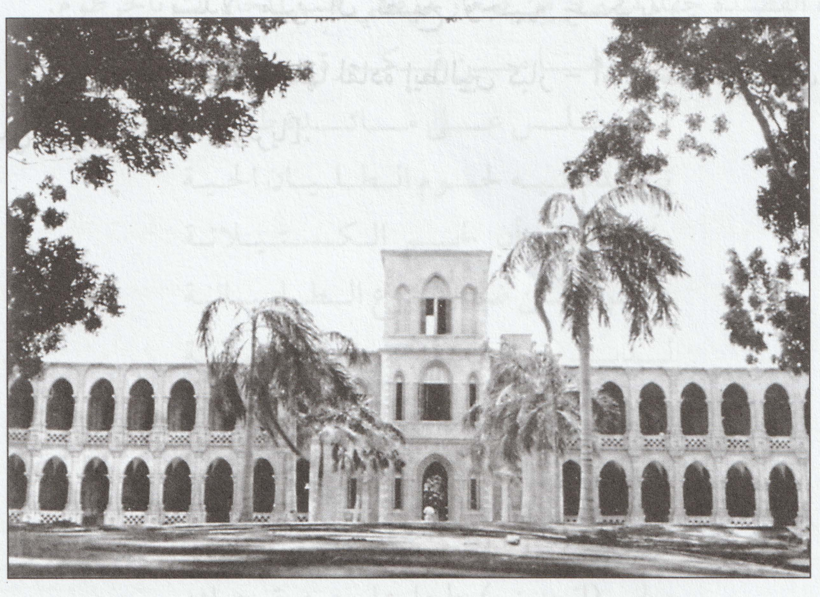
لحم (فروسكي) المفروم والمحمر
ولحم (قراناتيري) المطهو بالسكر
ولحم (انجديني) طبعاً على صهوة جواده
ولحم (الجنرال ينا) الفاتح للشهية
يا لها من وجبة ممتعة للجيوش الكونغولية.

فتناولوا ما يحلو لكم من النبيذ
وكأساً من المارتيني المبلل
أو إن كنتم من الأغبياء الذين
لا يتعاطون الكحول
فمياه بلغريني المعدنية
ولو أنها في الواقع مقززة
فهي شراب مقرف
(أوستا) يا صاحبي
إجنح للسلم إن استطعت
بالطرق العادية الطبيعية
من الأفضل لك أن تبقى كما أنت
بدلاً من أن تصبح وجبة عسكرية

[الأسماء في هذه القصيدة كلها لقادة إيطاليين كبار - أما أوستا فهو نائب الملك الايطالي وحاكم أثيوبيا وأرتريا].



الخرطوم من الجو في ثلاثينات القرن الماضي تظهر قصر الحاكم العام والسكرتارية ومبنى البوستة وشارع فكتوريا (القصر حالياً - المترجم) والصحراء خلفها.



كلية غردون التذكارية - المبنى الاساسي، حالياً يحتوي على مكتبة نيوبولد.



صول في قوة دفاع السودان بزيّه الرسمي أثناء فترة السلام.



السير وليام بلات، القائد العام لقوة دفاع السودان يهنّئ جنود قوة دفاع السودان بعد سقوط أسمرا عام ١٩٤١.



مسطورات
MUSTORAT

فهرس الأعلام والأماكن

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

الفهرس